حميد رضا شاه آبادي

بئر الظلمات

ترجمتها عن الفارسية | سمر عزت



ترجمة حصرية



بئر الظلمات

حميد رضا شاه آبادي

بوابة الموتى (الجزء الثالث)

كتوبيا للنشر والتوزيع

الفصل الأول

الفراشات جميلات، لكني لا أرى أنها ذات ألباب تعقل بها. إنها أحيانًا ما تطوي بأجنحتها البديعة الزاخرة بالألوان مسافة عِدة كيلومترات، دون أن تعرف وجهتها. وفي ذاك المسار الطويل تتخذ من الزهور والأشجار مهابط لتنال بعض الراحة، ثم تعاود التحليق بغية الوصول إلى مكان ما.

لا أحد يدري كم ستعيش الفراشة، فإنها عادة ما تغدو غذاء حشرات أخرى قبل أن ينقضي عمرها الافتراضي، وعند اصطدامها بالسيارات التي تقطع الطرق تتلاشى، أو تحترق وقد طالتها ألسنة اللهب.

إن صورة الشمعة، والزهرة والفراشة لهي من أقدم الصور التي قد رأيناها في كل مكان، بداية من جدران المباني القديمة، واللوحات المرسومة، ومحافظ الأقلام العتيقة، وحتى دفاتر تلامذة الصفوف الابتدائية في سالف الزمان. وكأن هذه القصة رُويت مرات ومرات، ذلك أن الفراشة تحط على الزهرة، فيزداد جناحاها المبسوطان على البتلات جمالًا. ولكم تتقد فرحًا لرؤية كل هذا الجمال في ذاتها، وفي العالم من حولها. لكنها على حين فجأة تلتفت إلى وهج الشمعة الموقدة قرب الزهرة، فتؤنس لهبها، وتُولع به، حتى إنها لتعزم على أن تطير إلى اللهب. إن الفراشة تعلم أن اللهب سيحرقها، تعلم أنه يجب أن ترجع وتمضي في سبيلها، لكن وكأنها لم تعد تملك من أمرها شيئًا، وكأن وقدة اللهب قد فتنتها سحرًا لا تنفك تنجذب إليها. تعلم أنه يجب أن ترجع، بيد أنها تنجذب إلى اللهب، فتنفذ إليه... وتحترق.

الفراشات جميلات، سوى أن حظها من العقل قليل. في خلسة من الزمان تحيا بيننا بأجنحتها البديعة، الزاخرة بالألوان، لتجمّل عالمنا. تحط على الزهور، وتهوم حول الشموع، ثم تمضي. هذا كل شيء.

الفصل الثاني

عندما قال الرجل الأسود أني يجب أن أسافر إلى مدينة كاشان للاطلاع على مخطوطات كافور، تصورت أن الأمر على هذا النحو سيكون عسيرًا جدًا. كانت المسافة بعيدة، وأنا مكلف بالذهاب إلي المدرسة، وليس من الواضح هل يأذن لي أبي بالسفر إلى كاشان. قال الرجل الأسود أن خادمه، وهو أكبر، سوف يصحبني بسيارته إلى كاشان، وهناك في ظرف يومي الخميس والجمعة أتمكن من الاطلاع على المخطوطات، وقراءتها، كما أتعرف أيضًا إلى «السيدة المُرَبِّية»، العجوز التي أُودعت إليها تلك المخطوطات. لم يوافق أبي على ذهابي وحدي، وقال سوف أصحبك إلى هناك. فقلت في ولكن أكبر هو من يعرف مكان تلك العجوز. فقال أبي إذن فليأت أكبر معنا أيضًا. كان اقتراحه مقبولًا، فاتصلت بالرجل الأسود وأبلغته اقتراح أبي. قال لا بأس، سوف يأتي أكبر معكما. ثم اتصل بي أكبر. اتفقنا على أن يقف صباح يوم الخميس منتظرًا في ناحية من شارع شوش، حتى نُركبه معنا، ونمضي إلى كاشان. وهذا ما فعلناه. كان النور قد بزغ لتوه، عندما غادرت أنا وأبي وليلي المنزل، وقبل أن نغادر طهران، أركبنا أكبر معنا. تراجعت ليلى إلى مقعد السيارة الخلفي لتجلس بجانبي، وجلس أكبر على المقعد الأمامي. كان صامتًا، لم ينطق بكلمة. ولما رأيناه صامتًا، لزمنا نحن أيضًا السكوت. سأل أبي أكبر غير مرة أسئلة تتعلق بشخصه وبالرجل الذي يعمل لديه، غير أنه أجاب بإيجاز شديد. كان من الواضح أنه لا يستطيع الحديث عن شيء لم يؤذن له فيه. تناولنا الإفطار في أثناء الطريق قرب مدينة قُم، ووصلنا إلى كاشان بعد ساعة تقريبًا. وبينما كان لا يزال أمامنا

نحو خمسة عشر كيلو مترًا إلى كاشان، حل أكبر عقدة لسانه، كما لو أنه كان تقرر من قبل أن يتكلم متى شارفنا الوصول إلى كاشان، ويخبرنا ببعض الأمور. كان محور كلامه يدور حول تعريفنا بالسيدة المُرَبِّية، السيدة التي كنا سنذهب إليها. قال أكبر: «السيدة المُرَبِّية هذه كبيرة سلالة العبيد السود، والجميع يبجلونها، إنها من عائلة عريقة، جميعهم أناس رفيعو النسب خلفًا عن سلف. سواء في طهران أم في زنجبار.... والآن إذ يُطلق على هذه المهنة المعالج، فإنهم كانوا جميعًا معالجين.»

قاطعته في أثناء حديثه: «مثل كافور وأجداده.»

توقف أكبر عن الكلام، وأدار رأسه نحوي قليلًا. كنت أنتظر منه أن يؤكد كلامي، لكنه سكت بضع لحظات فقط، ثم أردف قائلًا: «كانوا يصنعون الدواء، ويعالجون المرضى، ويصلحون بين الناس و... خلاصة القول أن السيدة المُرَبِّية هي نفسها هكذا، فهي طاعنة في السن، غير أن دماغها لا يزال يعمل جيدًا. تعرف أصل وفصل الجميع، حتى إنها لتعلم ماذا حل بهؤلاء الذين لم يفدوا إلى إيران. وفي المرات المعدودات التي جاء سيدي فيها إلى إيران كان يذهب قبل كل شيء إلى السيدة المُرَبِّية، ويتحدث إليها، ويسألها إيجاد حل لمشكلته. وقد أعطى السيدة المُرَبِّية أيضًا بعض المخطوطات التي كان قد خلفها جده، لتقرأها عسى أن تتبين شيئًا آخر فتخبره به... فلتتحدثوا أنتم أيضًا إليها، ولتخبروها بما تشاءون، وتسألوها عما تريدون. عسى أن تستبينوا شيئًا يفيد في هذا الأمر.»

ثم عاود الصمت. لقد اختصر كلامه فيما تبقى من الطريق.

وسرعان ما دخلنا المدينة. كان أكبر بعبارات مختصرة مقتضبة يشرح لأبي أي الاتجاهات عليه أن يسلك في طريقه. وما هي إلا أن صرنا إلى ناحية كاشان القديمة، حيث الشوارع التي كانت اصطفت على جانبيها بيوت شُيدت جدرانها من الآجر الخام والقش المخلوط بالطين، والأزقة الضيقة التي يصعب أن تعبر منها السيارات في وقت كان عابروها يتشبثون بالجدار عندما يقتربون منا، حتى نتمكن من المرور بجانبهم. وفي نهاية المطاف في وسط أحد الأزقة المسدودة، قال أكبر: « توقف هنا!»

توقفنا. أما الأطفال الذين كانوا قبل مجيئنا يلعبون في الزقاق، فمع قدوم سيارة مزاحمة للطريق، ظلوا في أماكنهم يرمقوننا بأنظارهم. فتح أكبر باب السيارة، والتفت إلى أبي، وقال: «انتظر بضع دقائق، حتى أذهب، فأبلغهم.»

نزل أكبر، وعبر من باب خشب قديم كانت السيارة وقفت أمامه. ولما غادر، قالت ليلى: «هذا الرجل غامض جدًا، أليس كذلك؟»

ودون أن يدير أبي رأسه، ضرب كفيه برفق على جانبي مقود السيارة، وقال: «إنه متحفظ، كأنما أُمِر بألا يتفوه بكلمة زيادة.»

فقلت: «لو كنتِ رأيتِ كيف مضى لقائي به، لفهمتِ معنى الغموض بحق.»

فقالت ليلى: «تلك الفتاة بائعة بطاقات الحظ، وما إلى ذاك؟!»

فقلت: «أجل، كنت أحسب أني أمثل دورًا في فيلم من أفلام المافيا.»

أدار أبي رأسه نحوي، وقال: «من المستبعد أن يظهر في مخطوطات جِد ذلك السيد شيء جديد... يعني أن يظهر شيء يقود إلى حل مشكلة هؤلاء.»

فقلت: «على أية حال، ذاك أفضل من لا شيء، على الأقل بهذه الطريقة قد نتمكن من معرفة المزيد عن رضا قُلي.»

فقال أبي: «والآن لماذا لم يحتفظ ذلك السيد بالمخطوطات لديه، وجلبها إلى هنا؟!»

هذه المرة أجابت ليلى أبي، فقالت: «أرأيتما عندما... كان يقول أن تلك السيدة هي كبيرتهم، وكأن لديها سجلات إحصائية للجميع. لا بد أنه أراد أن تقرأ تلك المذكرات أيضًا، ربما استنبطت منها شيئًا.»

فقال أبي: «ربما!»

ثم نظر أولًا إلى ساعة معصمه، ثم إلى باب البيت، وما لبث أن قال: «لماذا تأخر ذاك الآخر؟!»

مر الأطفال الذين كانوا يلعبون في الزقاق بجانب السيارة، وما لبثوا أن مضوا. قالت ليلى: «لقد سئمت الجلوس في السيارة، لننزل على الأقل، ونقف بالخارج.»

قال أبي وهو يفتح السيارة: «نعم، من الأفضل أن ننزل.»

نزلنا ثلاثتنا من السيارة، ووقفنا أمامها. كانت العديد من البقع الصفراء قد انتشرت بكثرة على سطح السيارة الأبيض من الخارج، وعلى حواف الزجاج الأمامي. أشارت ليلى إلى تلك البقع الصفراء، ثم قالت: «رباه... إنها فراشات...»

فقال أبي: «لقد ازداد عددها للغاية هذه السنة، كما لو أن ذلك له صلة بزيادة الأمطار.»

وجعلت أتفكر في رفرفة أجنحة الفراشات و حومها في الطريق، في الفراشات الجميلة التي كانت تحوم في قارعة الطريق، وتصطدم بالسيارات المنطلقة، ثم ما تلبث أن تتلاشى. لم يمض الوقت حتى خرج أكبر من الباب الخشبي للمنزل، والتفت إلى أبي قائلًا: «معذرة على التأخير، لقد كانت معاونتها نائمة، واستغرق الأمر وقتًا حتى استيقظت.»

نظرت أنا وأبي وليلى بعضنا إلى بعض، ثم قال أبي: «لا عليك، لم تتأخر كثيرًا.»

ثم أشار أكبر إلى باب البيت، وقال: «تفضلوا!»

ثم تزحزح جانبًا، لكي يدخل أبي ومن ثم أنا وليلى، وجاء هو في إثرنا. خلف الباب كان ثمة فناء فسيح نوعًا ما، كانت ناحية منه قد شقفت بدعائم معدنية. وتحت هذا السقف بضع قدور كبيرة مخصصة لاستخلاص ماء الورد، قدور مغطاة بأغطية مخصوصة وقد انبثقت منها أنابيب معدنية كبيرة وصغيرة كانت تضفي عليها شكلًا غريبًا. وفي جهة الفناء الأخرى كانت بضع نبتات خضراء صغيرة تتمايل مع نسمات الهواء التي كانت تتدفق. وفي نهاية الفناء كانت بضع درجات صغيرة تفضي إلى إيوان صغير، وباب صغير في ركن الإيوان يفتح على داخل البيت. صعدنا الدرج، واجتزنا الإيوان، ثم نفذنا من الباب إلى البيت. خلف الباب كان يوجد ردهة صغيرة، وإلى الأمام قليلًا جهة اليمين، باب غرفة مفتوح. قال أكبر من ورائنا:

«تفضلوا بدخول هذه الغرفة.»

التفت أبي إلى أكبر، وقال: «ادخل أنت أولًا.»

قال أكبر: «تفضلوا... لا يوجد أحد.»

دخلنا غرفة كبيرة، لم يكن فيها أي شيء آخر غير بعض السجاجيد الصغيرة المنسوجة يدويًا كانت قد فُرشت على أرضيتها، وبضعة دُثُر مطوية وُضعت إلى جوانب الجدران، ونحو أربعة مرافق صغيرة على هذه الدُثُر. أشار أكبر إلى الجدار المقابل، حيث كان قد أُلقى على أرضية الغرفة دُثار ذو ملاءة بيضاء، وقال: «تفضلوا اجلسوا، ريثما تأتي.»

ذهبنا جهة الجدار، وجلسنا على هذا الدُثار المغطى بالملاءة، واستندنا إلى المرافق المخملية التي كانت قد نُقش على كل منها صورة طاووسين قرمزيين. حينئذٍ قال أكبر الذي كان لا يزال واقفًا: «إن السيدة المُرَبِّية تعاني من عطب في الحنجرة، فلا يمكنها أن تعلي من صوتها، كذلك لها لكنة في الكلام لا يفهمها أحد، لذا فإن لها معاونة، والآن سوف تأتيان معًا.»

قال ثم ذهب. فما لبثنا أن سمعنا وقع خطى أقدام في الردهة، ثم من بعد ذلك، دخل أكبر الغرفة أولًا وعقبه تراءت لنا على عتبة الباب امرأة عجوز قصيرة القامة بدينة. كانت بشرة يدي المرأة ووجهها بلون أسود، تمامًا مثل الرجل الذي كنت التقيته في نُزل المسافرين في شارع ناصر خسرو قبل عدة أيام. وجهها المدور كان قد أُحيط بإطار وشاح رأسها الأبيض، وقد بدا بياض عينيها في صفحة وجهها الأسود المعتم غريبًا. كانت قد ارتدت قميصًا أزرق لامعًا مكشكشًا

يصل إلى تحت ركبتيها، مع بنطال فضفاض أسود، يغطي ساقيها حتى الكاحلين. وقف أبي لها، كذلك أنا وليلى إذ كنا قد تجمدنا لرؤية العجوز فانتبهنا ووقفنا، وألقينا عليها التحية. دخلت العجوز الغرفة وخلفها فتاة صغيرة ما بين العاشرة والثانية عشرة من عمرها ترتدي فستانًا أرجوانيًا وتضع على رأسها وشاحًا قصيرًا أزرق. لم تكن الفتاة الصغيرة سوداء البشرة، كذلك لم تكن بيضاء. كان وجهها مستديرًا داكنًا، و ملامحه لا تشبه ملامح وجه العجوز. ردت العجوز تحيتنا بأن هزت رأسها، ثم اتجهت نحو أول الغرفة، فتربعت واستندت إلى مرفق كبير كان قد وُضع إلى الجدار. كما جلست الفتاة الصغيرة إلى جوارها. أما أكبر فقد اتخذ موضعه إلى جانب الباب جالسًا على الأرض واستند إلى جدار خالٍ. ولبضع لحظات سكت الجميع. ودون أن تلفظ العجوز بكلمة، حررت المسبحة التي كانت تقبض عليها بكلتا يديها، وأخذت تقلب خرزاتها. ولما طال الصمت، التفت أكبر إلى أبي قائلًا: «قل للسيدة المُرَبِّية فيمَ جئتم.»

تنحنح أبي، والتفت إلى السيدة المربية قائلًا: «في الحقيقة، ابني يريد مخطوطات...»

فقلت: «كافور..»

فقال أبي: «أجل... يريد أن يقرأ المخطوطات التي خلفها كافور.»

حدقت العجوز إلى أبي قليلًا، ثم أدنت رأسها من أذن الفتاة الصغيرة، وأفضت إليها ببعض كلمات، ثم إنها عاودت رفع رأسها. وقتئذٍ التفتت الفتاة الصغيرة إلى أبي، وقالت: «السيدة المُرَبِّية تقول لماذا يريد قراءة تلك المخطوطات؟ ما الذي سيجنيه من ذلك؟»

فقال أبي: «يريد إن أمكن له أن يجد حلّا لأجل هؤلاء الذين... قومك، أولئك الذين.. يصيبهم المرض، يصيبهم الشلل، وما إلى ذاك.»

نظرت العجوز فجأة إلى أبي، ثم إليّ و إلى ليلى. وقتئذٍ أفضت في أذن الفتاة الصغيرة بقولٍ، ثم أنحت رأسها عنها. فقالت الفتاة: «السيدة المُرَبِّية تقول لقد قرأت تلك المخطوطات بنفسي، ولم أرَ فيها ما يجدي في ذاك الأمر نفعًا، فكيف يريد ابنك أن يستنبط شيئًا منها.»

وقبل أن يقول أبي شيئًا، قلت: «ولكن... أنا... كيف أقول... أنا أعرف كافورًا، أعرف كافورًا كما أعرف ألماس وقنبرًا، وبعض السود الآخرين، أعني أني اطلعت على بعض المعلومات عنهم، وعليه فربما تمكنت من الاستدلال على شيء.»

أدنت العجوز رأسها من أذن الفتاة أسرع من المرات التي كانت من قبل، وتحركت شفتاها بالكلام. ثم من بعدئذٍ خاطبتني الفتاة قائلة: «السيدة المُرَبِّية تقول كيف تعرف ذلك؟ ماذا قرأت؟»

فقلت: «قرأت مخطوطات شخص كان يعيش في ذلك الوقت، كان يعرف كافورًا وألماس أيضًا، وكان يرتاد مقهى قنبر، المكان الذي كان مُلتقى للسود في طهران.»

شددت العجوز إليّ النظر بعينيها البيضاوين، ثم فكرت قليلًا، ثم أفضت في أذن الفتاة بكلام. قالت الفتاة الصغيرة: «السيدة المُرَبِّية تقول هل تعرف شيئًا عن ذلك القصر الذي كان يسكنه الأطفال؟»

فقلت متحمسًا: «نعم... نعم أصلًا فإن المذكرات التي قرأتها هي

لشخص قضى طفولته داخل ذلك القصر.»

فقالت الفتاة: «من يكون؟»

فقلت: «رضا قُلي... وفيما بعد لما أن كبُر صار يُدعى رضا قُلي ميرزا. كان أمين مكتبة مدرسة دار الفنون، وقد كتب مذكراته الشخصية وقتما كان يعمل في دار الفنون.»

شددت العجوز إليّ بعينها البيضاوين مرة أخرى النظر، وما لبثت أن ألقت في أذن الفتاة ببعض كلام. ثم قالت الفتاة: «السيدة المُرَبِّية تقول رضا قُلي؟ ذاك نفسه الذي هرب مرتين من القصر؟ ذلك الذي كان يحاول إنقاذ فتاة صغيرة؟»

فقلت مغتبطًا: «نعم إنه هو، هو ذاك.»

تغضنت خطوط وجه العجوز. نظرت إليّ طويلًا، وكأن شيئًا ما كان قد شغل ذهنها بشدة. رحت انتظر أن تقول شيئًا، غير أنها ظلت تنظر إليّ. أخيرًا وبعد صمت ممتد، أدنت رأسها من أذن الفتاة الصغيرة، وأفضت إليها ببضع كلمات. سألتني الفتاة: «السيدة المُرَبِّية تقول هل قلت إنه كتب هذه المخطوطات عندما كبر؟»

فقلت: «نعم، قلت إن... في دار الفنون، كان أمين المكتبة.»

هذه المرة على الفور أفضت العجوز في أذن الفتاة ببضع كلمات أخر، فالتفت إليّ الفتاة قائلة: «السيدة المُرَبِّية تقول وكأنه وقع التباس.»

سألتها: «ما هو؟»

فقالت الفتاة: «كلامك ينافي المنطق.»

فسألتها: «لماذا؟»

وأجابت: «لأن رضا قُلي ذاك الذي كان في قصر الأطفال، لم يكبر قط.»

فسألتها: «ماذا يعني ذلك؟!»

فقالت الفتاة: «السيدة المُرَبِّية تقول إنه قد قُتل في طفولته.»

الفصل الثالث

هكذا جرى القدر عند رجعتي إلى طهران، التي كنت قد أنفذتها بدعوة من الميرزا حسن خان وبغية التعلم والتحصيل في محضره وتحت عنايته، أن أقع مرة أخرى في براثن رجال نويان خان. لكن المشيئة الإلهية قضت أني سارعت بالفرار من قصر الخان القاجاري المرهب بفضل من صديقي الحميم شكور، وبإيعاز منه خضت غمار الحادثات، التي أورطتني مع عصبة من أشرار طهران ومجرميها على شاكلة أيّاز الأعمى وصبيانه. وبالطبع فإني لأحمد الله حمدًا كثيرًا أن تلك الأخرى مرت بسلام، وبفضل مؤازرة صديقي المخلص ألماس الأسود البشرة، وصديقي الذي اهتديت إليه حديثًا نادر ميرزا الحبيب، تمكنت من أن أتبع إرشاد شكور، وأخلص عالية شقيقة رسول، الصبي القزويني الذي كان قد توفى أخيرًا، وجماعة أخرى من الأطفال المظلومين الأبرياء من مخالب الخاطفين العتاة، وأبيض وجهي أمام صديقي الصدوق وأرفع هامتي.

لكن عندما انفض ذلك الاعتراك المتلاحق برمته، ومضت كل الأمور على خير ما كان يُرجى لها، فجأة هجست في ذهني الهواجس وابلًا، حتى لقد سلبت من حلاوة الظفر على الأشرار الطغاة طلاوتها وأذهبت بها دفعة واحدة. قبل كل شيء فكرت في مصيري، ماذا أفعل الآن في ظل تغيب الميرزا حسن خان ودون أن أملك شاهيًا واحدًا في رحاب طهران العامرة بالناس. ومع وضع كهذا فحتى العود إلى قريتنا ودارنا كان أمرًا غير مقدور، فمن أين لي بمبيت أرقد فيه ليلًا؟ وكيف أدبر أكلي؟ ذلك أيضًا في مدينة نُكبت بالقحط

حتى لقد عَيّ ميسوروها وموسروها عن التزود بقوت يومهم. كيف لي أن أخرج بمفردي من دار التلغراف أو أي مكان آخر راجيًا ألا أقع مرة أخرى في قبضة فرّوخ وراضي ورجال نُويان خان. لا سيما أني كنت تبينت أن راضيًا ما هو بآدمي طبيعي، وأنما مثله كمثل شكور من بني الموتى. وإني وإن كنت لا أزال بحاجة إلى سبر غور كثير من الأمور بشأنه، كنت أدرك أنه يغاير سائر الناس. لقد رآني راضي مع نادر والأمر نفسه مع ألماس وآخرين. والآن كان يعرف جليًا أنه إذما رام الاهتداء إليّ، فعليه أن يقص آثارهم. لذا فإن عثوره عليّ كان شيئًا يسيرًا، ومن الممكن أن يفجأني وهو على رأسي في أي لحظة.

غداة يوم تحرير عالية، وبعد أن جاءنا نصر الله أبو رسول ثم ولّى وبنيته، خلوت أنا ونادر في غرفة نادر في دار التلغراف. وقد أحالني سيل من الهواجس إلى خشبة مسندة، حتى ما عدت قادرًا على التكلم، وكل ما فعلته هو أني أخذت أقلب طرفي فيما حولي بنظرات مبهوتة. كان يلوح من القلق البادي على وجهي نادر وألماس أنهما يتفهمان وضعي وحالي. فما مضى من الوقت شيء حتى أشار نادر عليّ بالذهاب معه إلى بيته لدى والديه، والبقاء هنالك مدة من الزمان، ريثما يعود الميرزا حسن خان إلى طهران، وأستطيع الذهاب إليه في المدرسة. كذا قال ألماس إنه يستطيع أن يصحبني معه إلى مقهى قنبر فأبقى هناك ما ألجأتني الحاجة. لكني كنت راغبًا عن كل ذاك، إذ كنت أعلم أن وجودي في مقهى قنبر يكلف نفقة، وخليق بي أن أدفع ثمن مأكولي ومنامي، وحينئذٍ كنت خالي الوفاض، وما كنت أريد أن ألقى نفقة مكوثي على عاتق ألماس أو رفاقه. كذلك ما كنت لأرتضي الذهاب إلى بيت نادر، لأني لم أكن أعرف والديه،

وكان المكوث عندهما يتعذر عليّ، هذا وقد لازمتني في طفولتي كلها كبرياء نهنهتني عن استجداء العون من أحد، فيهبني الطعام والمرقد بدافع الشفقة.

ما كان مني إلا أن آثرت الصمت، فما بحت بشيء، كذلك نادر وألماس. وما مضى من الوقت إلا أقله حتى قال نادر الذي بدا وكأنه فطن إلى ما كان يدور في خلدي: «أعلم أنه لا راحة لك في مكان خلا أن تكون في جوار الميرزا الحسن، على كل فإنك ما قدمت إلى طهران إلا بدعوة منه، ولكننا نحن أيضًا أصدقاؤك و....»

وإذا بنادر قد قطع حديثه. أهمني سكوته الفُجائي. تفرست وجهه وعينيه اللتين وكأنهما كانتا ألقتا النظر بعيدًا. هال ألماس أيضًا سكوت نادر المُباغت، فراح ينظر إليه محدقًا. طفقت أحاول قول أي شيء إلا أني لم أجد ما أقول. ومرت عليّ لحظات الصمت المعدودات تلك ساعات مديدات، إلى أن قال نادر: «ما لي لم أفكر في ذا قبلًا؟!»

فسألته: «فيمَ فكرت؟»

فقال: «ليس من شيم امرئ مثل الميرزا حسن أن يدعو أحدًا، ثم يخلفه، ويرتحل إلى مدينة أخرى. لا بد أنه دبر لك أمرًا.»

ثم سألني: «كان مُقررًا أن تذهب إلى منزل الميرزا أيان وصلت إلى طهران، أليس كذا؟»

فقلت: «بلى.»

فقال: «ولكنك لم تذهب.»

فقلت: «حسنًا، لقد أمسك فرُوخ بي، فسار بي إلى قصر نُويان

خان.»

عندئذٍ أكمل نادر عني الكلام: «ثم فررت، ومضيت في إثر أبي عالية، ثم من بعدئذٍ جئتني وما إلى ذلك من بقية الأمر.»

فقلت: «نعم، كنت أزمع بعدما تحدثت إلى أبي عالية، التوجه إلى الميرزا.»

فقال نادر: «لمّا يفت الأوان، ما مضى سوى كذا ليلة. سوف نذهب معًا إلى بيت الميرزا، لنرى هل يا ترى ترك لك رسالة أو شيئًا.»

وذهبنا. وأمام باب دار التلغراف فارقنا ألماس فتوجه إلى عمله في البازار. وطرقت أنا ونادر الطريق إلى بوابة قزوين وبيت الميرزا حسن خان. حتى إذا طرقنا باب البيت، أخذ قلبي يطرق صدري. فمتى قدم أحد، وقال أنه لا يعرفني ولم يسمع من الميرزا شيئًا عني، أشارف الموت من فرط اليأس والقنوط. راحت الدقائق تمر ثِقالًا وقد وقفنا بالباب، إلى أن صر صرير الباب، ولاحت من ورائه عجوز تضع على رأسها منديلًا أبيض صغيرًا وتلبس قميصًا وتنورة حمراوين. بداية تحدثت بلسان تركي فقالت قِيلاً لم نفهمه. فأجابها نادر باللغة الفارسية بأن ألقى السلام أولًا، ثم من بعدئذٍ قال: «هل الميرزا حسن خان موجود؟»

أجابته العجوز بلهجة تركية بصعوبة قائلة: «يُوخ، ذهب في سفر، ماذا تريد منه؟»

فأشار نادر إليّ، وقال: «لقد أتى هذا الصبي من فج عميق، ليلحق بالمدرسة، لقد طلب منه الميرزا بذاته أن يأتي.»

نظرت العجوز إليّ قليلًا، ثم إلى نادر، وقالت: «صبرِلَه، بير دَقه ذوزا»

وانتحت خلف الباب. التفت نادر إليّ فقال: «أرجو أن تكون فهمت عني ما قلت.»

ثم بعد قليل، شخصت المرأة مرة أخرى في إطار الباب، فقالت: «چِت مدرسه دَن، اذهب إلى المدرسة... لاله زار، أوردا... هناك يوجد بيوك أغا، أخبر بيوك أغا، فإنه يعرف.»

ثم ما لبثت أن انتحت جانبًا، وأغلقت الباب. بعد أن ولّت العجوز، تسمرت أنا ونادر، وقد لزمنا الصمت هنيهات، إلى أن قال نادر: «أظن أنها أخبرتنا أن نذهب إلى مدرسة في شارع لاله زار»

لم أفعل شيئًا عدا أني نظرت إلى نادر، فجعل نادر دون أن ينظر إليّ يتكلم: «ولكن أين موقعها في لاله زار؟ هذا شارع كبير جدًا.»

تذكرت يوم أن ذهبت مع الميرزا حسن قبل أن نحضر عرض السينما توجراف في شارع علاء الدولة أننا ذهبنا أولًا إلى مبنى مدرسة قيد الإنشاء. تذكرت حين قال الميرزا: «سوف نقصد أولًا شارع لاله زار» فقلت لنادر: «إني أعرف،... ذهبت مع الميرزا ذات مرة إلى هناك.»

أزهر البشر والحبور في وجه نادر، وقال: «أحقًا تعرف؟»

فقلت: «أجل، إذا ما تقدمنا إلى هناك، فسوف أعثر عليها.»

فقال نادر: «الطريق طويل جدًا إلى لاله زار، للذهاب إلى هناك يلزمنا ركوب ترام الخيل.»

وما مضى من الوقت شيء حتى كنا قد جلسنا في ترام الخيل المزدحم والآهل بالركاب نتوجه إلى شارع لاله زار. لشد ما كان ماتعًا ركوب ترام الخيل بعد برهة كنت فيها بائنًا عن طهران. كان الجلوس على مقاعد الترام الخشبية وهو ينطلق بنا منقادًا دونما ارتجاج قد تبدى لي كاعتلائي عرش الشاه. وددت لو كانت شقيقتاي عطية ومرضية معي، فتختبران بنفسيهما تلك المتعة الماتعة. عندما وصلنا إلى لاله زار نزل معنا أيضًا جمع كبير. كان شارع لاله زار المديد المُذلل المؤنق بنسق من غرسات زهور اللّاله التي كانت قد توسطته، بديعًا يستلب الأنظار. كدت من فرط الجمال المحيق بي أذوب لولا أني أفقت على صوت نادر: «حسنًا، والآن هل تعرف أين تكون؟!»

تلفت حواليّ قليلًا، وافتكرت في يوم جئت إلى هناك برفقة الميرزا حسن خان، ثم قلت: «لنمض قُدمًا.»

مشينا، فما هي إلا أن وصلنا إلى زقاق فسيح بدا لي مألوفًا، فقلت: «هذا الزقاق.»

صرنا إلى الزقاق، بيد أن نادرًا سبقني إلى إيجاد مبنى المدرسة، ذلك من لافتة خشبية سوداء مكتوب عليها بخط أبيض كانت قد دسرت فوق باب المدرسة. لما أن أبصر تلك اللافتة، قال: «أحسنت، لا تزال ذاكرتك بخير.»

كان باب المدرسة مغلقًا، فطرقه نادر غير مرة. لم يطل الوقت حتى فُتح الباب، وتقدم منه شيخ سمين الجسم قصير القد، كان يعتمر طاقية بيضاء، وقد لبس قميصًا أبيض طويلًا، وسروالًا فضفاضًا أسود من الدّبّيت. بادره نادر بالسلام، فقال: «هنا مدرسة الميرزا

حسن خان، أليس كذا؟»

أومأ الشيخ رأسه، فقال بلهجة تركية: «تفضل.»

قال نادر: «هذا الصبي قطع طريقًا طويلًا إلى المدرسة حتى يدرس، لقد طلب منه الميرزا بنفسه أن يجيء.»

رمقني الشيخ بنظرة، ثم قال لنادر: «اسمه رضا؟»

وبسماع هذا الكلام، طربت فرحًا، حتى خلتني أقفز من مكاني صائتًا. كان الشيخ يعرف اسمي وذاك يعني أن الميرزا حسن كان قد أوصاه بي. قال نادر: «أجل، اسمه رضا.»

فسألني الشيخ وقد التفت إليّ: «من أين أتيت يا رضا؟»

تبلعت ريقي، فقلت: «من سلطان آباد ساوة.»

عاد الشيخ ينظر إلى نادر، ثم قال: «كان الميرزا أخبرني أنه لآتٍ. أما من شيء معه؟ بُقجة، فِراش، ثياب...»

سكت أنا ونادر. أما العجوز فنظر إلينا في سكون، ثم ودون أن يردف كلامه، قال: «أأنت قريبه؟!»

فقال نادر: «صاحبه!»

فقال العجوز: «أليس له من قريب في طهران؟»

فقال نادر : «نعم، ولكن صَحبه كُثر.»

تزحزح الرجل من أمام الباب، وقال: «هيا ادخل أيها الصبي.»

وقبل أن أتحرك من مكاني، التفت إلى نادر، وقال: «هنا الإقامة

دائمة، كذلك يوجد طعام، ومأوى للنوم، وله في أيام الجُمُعات أن يقصد أقاربه ... أو صَحبه.»

ثم إنه قال لي وأنا لا أزال واقفًا في مكاني: «ما لك لا تدخل؟!»

التفت إلى نادر فقلت: «جزيل الشكر أيها الميرزا، الآن ارتاحت نفسي.»

ربت نادر على ظهر كتفي، وقال: «الحمد لله، ادخل، سآتيك لأزورك فيما بعد.»

الفصل الرابع

بعد ساعة من انتهاء حديثنا مع السيدة القربِّية، كنا قد جلسنا معًا في طابق بيتها العلوي. أنا وليلى وأبي كنا استندنا إلى المرافق المستديرة الموضوعة إلى جنب الجدار نفكر مذهولين فيما قد سمعناه. كانت السيدة القربِّية قالت لا يمكننا أخذ مخطوطات كافور إلى مكان، ولا يمكننا قراءتها إلا في بيتها. فقلت قد تستغرق قراءتها وقتًا طويلًا، فردت قائلة لا بأس. «أنتم على الرحب والسعة، لكم أن تبقوا ما شئتم.»

بعد ذلك وبإرشاد أكبر لنا، صعدنا إلى الطابق العلوي، إلى غرفة كبيرة ذات نوافذ مُشبّكة ملونة، وسقف مزدان بزخارف جصية غلب عليه الطابع القديم جعل يعيد إلى أذهاننا عبق العصور القديمة. عندما دخلنا الغرفة، كنا مشوشين من كلام السيدة القربِّية الأخير، الكلام الذي كان يصعب علينا تصديقه، وقد بلغت صعوبته حد أن قالت ليلى: «لا يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحًا، لا بد أنه كان شخصًا آخر.»

فقلت: «ولكنها أعلنت أن اسمه رضا بمنتهى الوضوح، قالت إنه كان هرب من قصر نويان خان مرتين. وقالت إنه كان يحاول إنقاذ شقيقة صاحبه... ماذا ينبغي أن تقول بعد لنصدقها؟!...»

فقالت ليلى: «حسنًا، أنت بنفسك قرأت مذكرات رضا قُلي، ولقد دون فيها كل الأحداث، كان حينئذٍ كبيرًا راشدًا بل وكان قد تزوج أيضًا... ليست روحه من كتبت كل هذا.»

ومع عبارة ليلى الأخيرة، أخذ كل واحد فينا نحن الثلاثة ينظر إلى الآخر في سكون تام. ولبضع لحظات بدا أننا جميعًا كنا نفكر فيما قالته ليلى. لم يكد يمضي الوقت، حتى همست ليلى: «أذلك يعني... روحه كتبتها؟!»

فقال أبي: «لا أعتقد ذلك... إن كنتِ تقصدين أن رضا قد مات هو الآخر، ثم خرج من الحوض فيما بعد، فسيكون ذاك غير منطقي. أي لا يوجد سبب وجيه ليكون قد خرج مرة أخرى. ولو كان يوجد، لكان بالطبع أشار إليه بطريقة ما في مذكراته.»

فقلت: «إذن لمَ تقول السيدة المُربِّية مثل هذا الكلام؟»

فقال أبي: «لا تستبق الأمور، لقد جئنا إلى هنا لنفهم، وها قد أُضيف الآن سؤال جديد إلى قائمة أسئلتنا السابقة. ربما عندما نقرأ مذكرات كافور، تتضح لنا إجابات بعض الأسئلة، كذلك نجد إجابات الأسئلة المتبقية بأي طريقة.»

فقلت: «كم أتوق لمعرفة ما تلك الأحداث التي كان كافور قد كتبها، في حين لم يذكرها رضا قُلي.»

اتجهت ليلى بأنظارها إلى باب الغرفة، وقالت: «ألم يتأخر أكبر أغا ذاك؟»

فقال أبي: «هو لم يتأخر، بل نحن مستعجلون.»

فقالت ليلى: « ولمَ لا يسمحون لنا بأخذ هذه المخطوطات معنا إلى المنزل، فنقرأها، ونعيدها إليهم.. إننا لن نأكلها على أيه حال.»

فضحكت وقلت: «ربما يخشون أن نكون عازمين على صنع لوحة

بها.»

حينئذٍ نظر إليّ أبي بمرارة شديدة، ثم قال: «ألا تريد أن تنسى ما مضى؟!»

لقد ندمت على الكلام الذي كنت رميته، فقلت: «... لم أكن أقصد، إنما قلت شيئًا هكذا لنضحك.»

فقال: «أتظن أن كلامك هذا كان مضحكًا؟»

مرة أخرى كان أبي قد انزعج من شيء ما، وقد وقعت في مأزق. لم أعرف كيف السبيل لأصلح فعلتي الشنعاء تلك. قلت: «لا... أقصد أني عندما قلت ذلك الكلام، ظننته مضحكًا... لم أكن أقصد والله.»

حينئذٍ سمعنا صوت أكبر الذي أخذ ينبهنا لوجوده خارج الغرفة قائلًا: يا الله. تفقد أبي ليلى أولًا، ثم التفت نحو الباب قائلًا: «تفضل.»

دخل أكبر الغرفة حاملًا بين يديه صندوقًا صغيرًا. توجه إليّ، وسلمني الصندوق الذي كان أثقل من ظاهره الصغير المدمج. كان صندوقًا مطليًا باللاكيه ومزينًا بنقوش لأزهار وطير له قوائم خشنة ووزنه ثقيل يثير الضيق. عندما تناولت منه الصندوق قال: «إنه الآن مُودع إليك.»

كان يشوب صوته حزن. وكأن أمرًا ما ينكد عليه. قال أبي: «شكرا جزيلًا لك.»

ألقى أكبر نظرة حول الغرفة، ثم قال: «إذا احتجتم شيئًا، فأخبروني... سأقدم لكم الغذاء بنفسي، ويوجد أيضًا فِراش إذا ما أردتم النوم.»

فشكره أبي مرة أخرى: «شكرا جزيلًا لك. لم نرد أن نثقل هكذا عليكم.»

نظر أكبر إلى الصندوق، وكأنه يتحدث إلى نفسه، ثم قال: «إن هذا الصندوق الآن مودع إليك.»

فقال أبي: «أجل، نعلم ذلك.»

ولئلا أظل صامتًا، قلت كذلك: «أجل.»

رفع أكبر رأسه، ونظر إليّ: «يوجد داخله أوراق، أوراق تخص...»

فقلت: «أعلم... لقد أخبرتني السيدة المربّية، والسيد أيضًا.»

كنت لا أزال أجهل اسم الرجل الأسود، كما أنه يوم تقابلنا لم يسأل أحدنا الآخر عن اسمه، ثم من بعد ذلك أمسى أكبر هو الوسيط بيننا. والآن إذ كان أكبر يدعوه سيدي، فقد أحببت أن أدعوه السيد أيضًا. وقف أكبر جامدًا أمامي كإنسان آلي لا يحرك ساكنًا، كما لو أن كلمة كانت على طرف لسانه لم يتمكن من أن يفصح بها. لقد أطبق شفتيه، أما عيناه فكانتا تغصان بالدموع وتتلألآن. نظر إليّ واجمًا للحظات، ثم قال: «إن سيدي شخص رائع جدًا، له عليّ أفضال عظيمة، عليّ أنا وكثيرين غيري أيضًا.»

فهززت رأسي وقلت: «بالفعل.»

أشار أكبر بعينه إلى الصندوق، وقال: «اقرأها.»

فقلت: «حسنًا.»

ثم أدار ظهره إليّ واتجه متمهلًا إلى باب الغرفة. ولما أن وصل إلى

إطار الباب، استدار، والتفت إلينا قائلًا: «لا يحق لي أن أستفسر عن شيء، يجب أن أنفذ ما أؤمر به، ولكني... ولكني الآن اتصلت بسيدي، فأجابني رجل آخر. قال إن إحدى يديّ سيدي قد شُلت ذراعها أيضًا... إن كان بمقدوركم فعل شيئًا، فعجّلوا.»

الفصل الخامس

أما مدرسة رشدية فكانت بناية صغيرة من طابقين، لها دهليز طويل ينفتح من إحدى جهتيه على أحد أزقة شارع لاله زار ذلك عن طريق باب خشبي صغير، ويُفضي من جهته الأخرى بعد المرور بعدة غرف صغيرة وكبيرة إلى صحن ليس إلى الغاية كبيرًا، كان قد توسطه حوض مدور أخضر اللون. كان الدهليز معبى إلى آخره برائحة رطوبة الجص وطين القش الطري ذلك أنه كان حديث البناء. أما ما حول الحوض فكانت قد زينته بعض الأصص صغيرها وكبيرها. أما مياهه الصافية، فكانت في النهار رقراقة مع الشّمس إذا طلعت، وفي الليل تتلألأ في نور القمر. وفي منتهى الفناء مطبخ المدرسة الذي كان من المقرر أن تُعد فيه وجبات إطعام طلبة العلم بعد افتتاح المدرسة. أوكلت المهام في المبنى المدرسي من تنظيف وتنظيم إلى بيوك أغا خادم المدرسة الذي كان عجوزًا فردًا وصاحب سبع صنعات بحق.

كنت أول طالب خطى برجله مدرسة رشدية تلكم السنة. فلما كان أحدهم قد عمد أن يزهق روح الميرزا حسن، غادر هو إلى مدينة قُم لينأى بنفسه عن الخطر. وقبل سفره كان أوصى بيوك أغا بي، والحق أن بيوك أغا تلبية منه لإيصائه، كان يرعاني كمثل ولده، واعتنى بجميع أمري.

كانت محل نومي ومأكلي إحدى غرف المدرسة التي كان من المقرر أن تصير محل تحصيل الصبية للعلم. كان بيوك أغا قد كوّم بعض الطاولات والمقاعد فوق بعض، وفي المساحة الفارغة المتبقية،

بسط كليمًا، وبحشية رقيقة ووسادة هيأ لي مرقدًا. كنت أخلد إلى النوم على هذه الحشية ليلًا، وفي الصباح أجمعها، وأضعها على أحد المقاعد الدراسية. وكيفما اتفق أن يبدأ العام الدراسي في المدرسة عما قريب، كان الميرزا حسن خان قد أرسل مرسولًا من قُم يستحث على إتمام الخطوات التمهيدية كافة، لتبدأ بالمدرسة الدراسة فور وصوله. وعلى هذا كان بيوك أغا منهمكًا في تنظيف وتهيئة المبنى المدرسي، ونفض الغبار وإزالة فُضالة أعمال البناء من زوايا الغرف والدهليز والفناء.

في تلك الأيام راح آخرون يختلفون إلى البناية أيضًا، أحدهم كان الميرزا جواد(1) ناظم المدرسة، وكان فارع الطول ناحلًا يعتمر قبعة قائد سوداء، وقد أحاقت بوجهه لحية بيضاء مهذبة. كان يرتدي نظارة مدورة رقيقة كنادر. وكلما جاء تفقد الغرف كافة. ذات مرة رأيته يطلب من بيوك أغا أن يرقب بعين اليقظة أولاء الغرباء الذين يروحون حول المدرسة ويجيئون، ويتنبه إلى أنه ليس من امرئ يضمر السوء للمدرسة ومبناها المشيد حديثًا.

وفيمن سواه كان يختلف إلى المدرسة معلموها الذين كانوا ستة أفراد أو سبعًا. كان نفران منهما في طور الشباب، والآخرون شيوخًا وكبارًا. وراح هؤلاء القوم أيضًا يقصدون المدرسة بين فينة وفينة يجلسون يتباحثون في غرفة كبيرة في مدخل البناية أعدت خصيصًا للمعلمين والأساتذة. كنت أسمعهم في بعض الأوقات وإنهم يتحدثون عن مسائل غريبة على مسمعي غير مألوفة، وذلك ما كان حينًا حرضًا على أن أخشى المدرسة وما يدور فيها، وأفكر في عاقبة أمري في هذا الوسط. وحينًا آخر إغراء لأرتجي بلوغ مقام أولئك

المعلمين معرفة فأحيط بمغزى منطوقهم فهمًا.

بعد ثلاثة أيام من إقامتي في مدرسة رشدية، قدم إلى المدرسة صبيان آخران. أحدهما اسمه أصغر وكان يكبرني ببضع سنين، كان أصلًا من مدينة شهميرزاد، والآخر اسمه إبراهيم وكان في مثل سني تقريبًا وتكويني، ومن أبناء مدينة ورامين. أخبرني بيوك أغا أن نفرين من ثِقات الميرزا في طهران قَدماهُما إليه، فتقبلهما الميرزا على أن يأتيا هما أيضًا إلى المدرسة ويقيما بها ويدرسا. ولقد زادني مجيء هذين الاثنين إلى المدرسة راحة بال، لأن وجودهما أماط عني وحشتي، فبت أرقد في فراشي آمنًا مطمئنًا، وبالطبع كان من شأن وجودهما أن يحط عني بعض المهام المكلف بإنجازها في المدرسة. منذ بدء سكنتي في مدرسة رشدية وحتى مضي ثلاثة أيام، لم تطأ قدمي عتبة بابها، ولم أر أحدًا خارجها، اللهم إلا نادرًا الذي جاءني في اليوم الثاني زائرًا وتفقد حالي، ثم ما لبث أن مضى. وبهذا كنت راضيًا أيما رضا وقانعًا أيما قنوع، لأني كنت لا أزال خائفًا من الأجواء خارج المدرسة، وقلقًا من ذلك الهاجس أني متى وطئت قدمي عتبة باب المدرسة، يتهافت عليّ فرُوخ وراضي وآخرون من رجال نُويان خان، وما أدراني ربما صبيان أيّاز ذي العيون الأربع تارة أخرى فيوقعوني في أحابيلهم. لذلك فإني ما أفسحت لواردة الخروج من المدرسة مسلكًا إلى خُلدي. وكنت مُستحليًا أن أقطع أيامي بين جنبات تلك البناية البسيطة وسط ساكنيها أبدًا. ولكن ربي شاء غير مشيئتي. ففي اليوم الرابع من إقامتي، دعاني بيوك أغا، فوضع بعض المسكوكات الصغيرة في كفي، وأمرني بالذهاب إلى شارع علاء الدين، وشراء الزاج الأسود(2) من دكان العِطارة لمطبخ

المدرسة ثم العود سريعًا. ووصف لي عنوان دكان العِطارة أيضًا، وأوصاني أن أقول له إن بيوك أغا يقرئك السلام، ويقول لك إني أبتغي صنفًا فائق الجودة. أما أنا فيبست من ساعتي، وجهلت كيف أتصرف. فمن جهة كنت فزعًا من الخروج، ومن جهة أخرى لم أكن أعرف كيف لي أن أخبر بيوك أغا، الذي كان لا علم له بما كان قد وقع لي في الأشهر الغابرة بأني أتوجس خيفة من الخروج. وبينا كنت أنبش عن تعلة أتعلل بها، وعذرًا لعدم ذهابي، إذ ببيوك أغا يلهدني في كتفي، ويقول: «أذهب سريعًا وعد، لدينا ما نقوم به .... ها، باركك الله تِزول (3).»

ومشى هو متجهًا إلى الفناء. قبضت على العملات، وخطوت على مكث نحو باب المدرسة. لم يكن باليد حيلة. كان عليّ أن أجازف بالخروج، فذهبت.

وخارج المدرسة أخذت تفوح نوافج الخريف، وجعلت تتنسم ريح عليلة لطيفة تبدل حال المرء إلى خير حال. كانت الشوارع قد اكتظت بالناس، وكأنما انقشع الوباء. كانت المحال مُفتّحة، والناس بين راجلين وراكبين يتنقلون ساعيين خلف أعمالهم ومكاسبهم. كان جو الخريف العليل يهون من هلعي، حتى وددت أني لا أفكر في أمور رديّة، وددت أن أفكر في أني قد خلصت، وأني الآن في يد الميرزا حسن خان الأمينة، الذي وإن لم يكن حاضرًا بشخصه، كان بمقدوره أن يكلؤني عن بُعد، ويوصي بيوك أغا وآخرين بي ليحفظوني. وددت أن أفكر في الدراسة، وفي اليوم الذي أصبح فيه ميرزا، فيكبر مقامي، ويعلو شأني حتى أناطح بهامتي هامات العِظام. ومرورًا بأحد الأزقة، أفضيت إلى شارع رحيب، يقطع جانبًا منه جدول

ماء واسع المجرى، كان لفيف من النسوة جلسنَ على ضفته يغسلن الملابس. ولقد جردت بعضهن صغارهن من ثيابهم، فجعلن يغسّلنهم بمياه الجدول. مررت في طريقي بالجدول، وبينما كنت أهم لأعبر إلى ناحية الشارع الأخرى، إذ بإحدى العربات تمرق بجانبي فُجاءة بأقصى سرعة، حتى رن في أذني وأربكني وقع سنابك الخيل وجلجلة أجراسها، وأزيز عجلها الخشبي، وصراخ الحوذي ذاك الذي قال: «يا ولد! أعَمِيٌ أنت؟!» مفزوعًا نكصت على عاقبي، حتى كدت أواقع الجدول. لبدت في مكاني لحظات، فأخذ الصقيع يصقع قلبي، وكانت قد تسارعت أنفاسي، والتزق لساني اليبس بحنكي. كان عليّ أن أعبر الشارع، لأصل إلى دكان العِطارة. نظرت حولي، فلم أر أحدًا غير النسوة الغاسلات، والمُشاة الذين كانوا في جيئة وذهاب، فعبرت الشارع على مكث وحذر، حتى بلغت دكان العطارة وابتعت مطلب بيوك أغا، ثم خرجت.

كان الخوف قد استبد بي مرة أخرى. أحكمت قبضتي على المُغلف الذي كان حاويًا للزاج الأسود، وسرت مُسرعًا في انحدار، إذ كان عليّ أن أعود إلى ناحية الشارع الأخرى. فما وضعت قدمي في الطريق، وتقدمت نحو ثلاث خطوات، إلا واسترعى سمعي عجيج وضجيج. توقفت من فوري، ونظرت في كلا الاتجاهين إذ كان الصوت من أول الشارع عن يساري، وكأنما بعض نفر يصرخون. تنعمت النظر إلى أعلى منحدر الشارع، فرأيت قومًا يصرخون ويركضون، وكلما اقتربوا مني، يستعر صراخهم. وإذا بي رأيت ثلاثة أنفار انشقوا عن الجمع مارقين مرقًا، وقد تقدموا صوبي. وقفت في مكاني ألقي إليهم النظر. كان أمرهم عجبًا عُجابًا، وي كأنهم طائرون سِراعًا

يتقدمون أولاء الذين بهم يلحقون. وكانوا قد تقوسوا، وأخذت أرجلهم، التي ارتفعت قدر بضع بوصات عن وجه الأرض، تعلو فتنخفض. ولما أن اقتربوا أكثر، ألفيت وي كأنهم امتطوا قُضبانًا رفيعة. وأخذ المدى بينهم وبين أولاء الذين كانوا في أعقابهم يتسع ويشسع، حتى لم يعد بوسع واحد منهم أن يدركهم. وإلى الأمام حيث وسط الطريق، راح أكثر الذين كانوا يلحقونهم بأعينهم يصيحون، وخلفهم يتراكضون. كنت وقفت في مكاني مبهوتًا أرقبهم. اقتربت المخلوقات الثلاثة الغريبة أكثر وأكثر. والآن كنت أراهم بوضوح إذ كانوا قد لبسوا أقبية قصيرة مغضنة، ويمتطون قضبانًا كلًا منها ذات عجلتين دقيقتين وكبيرتين من الأمام والخلف مثبتتين إليها. جعلت أرجلهم تتبدل هكذا علوًا وانخفاضًا، وإنهم يدنون مني سراعًا طائرين. أما أنا فكنت قد وقفت في مكاني كالصخرة الصماء لا أبدي حراكًا. حتى وصل هؤلاء الذين يمطون عَجَلًا دقيقًا، ومروا بي منطلقين، أما الذي كان أدناهم مني ووجهه مستدير أملس، فقد هتف بي ضاحكًا: «أتريد الركوب؟!»

ثم مرق ماضيًا في طريقه. لقد سقط مُغلف الزاج الأسود من يدي. وقد انثنيت من ساعتي أرقب أولئك الذين أخذوا يبينون عني. على تلكم الحال بقيت لابدًا بمكاني لا أبرحه، حتى أقبل هؤلاء الناس الذين كانوا يركضون خلفهم. بعضهم كان لا يزال يركض جاهدًا للحاق بذي المخلوقات العجيبة. وبعضهم الآخر كان قد لقى من ركضه هذا نصبًا، فتوقف وأخذ وإنه يتلقط أنفاسه يتتبعهم بعينه. قال أحدهم وكان رجلًا كهلًا سمينًا قصيرًا ذلك بعد أن تبلع ريقه: «هؤلاء هم بنو الجن.»

فأجابه الذي كان أصغر سنًا: «أي بني جن؟! أنا أعرفهم، إنهم يملكون دكانًا في آخر شارع لاله زار»

قال الرجل السمين: « يملكون ما يملكون، ليس لآدمي أن يمتطي الريح كذا.»

فقال الشاب: «أي ريح؟! لقد كانوا على العَجَل، أوما رأيت؟!»

حينئذٍ قال رجلٌ آخر طويل القامة، وكان قد عصب رأسه الأصلع بمنديل أبيض: «وهل لامرئ أن يستوي فوق عجلة؟! عجلة لا يمكن أن تثبت من تلقاء نفسها في موضع، كيف لها أن تُبقي انسانًا في ثبات؟ لا ريب أن ذلك من عمل الجن، فإما أنهم هم أنفسهم بنو الجن، وإلا فالجن مسخر لهم.»

ثم تقدموا ثلاثتهم ماشين متمهلين، حتى تناءوا. وجعل الآخرون يتكالمون بكلام أشبه بما قد قيل. لقد تناوبت على أذني كلمات الجن وامتطاء الريح غير مرة. وفجأة انتبهت إلى مغلف الزاج، فانثنيت وتناولته، وعبرت الطريق بخطى سريعة، ثم عدوت، حتى مررت بالأزقة خائفًا، ووصلت إلى المدرسة. كان باب المدرسة مواربًا، فكدت ألقي بنفسي إلى دهليزها. تعثرت قدمي بالمهملات التي كان بيوك أغا خلفها أمام باب المدرسة، حتى يحملها إلى الخارج. وآنئذٍ تعالى صخب، و في الوقت ذاته خرج بيوك أغا من غرفة المعلمين، وقال: «أأنت رضا؟...»

فقلت لاهثًا: «نعم.»

فضحك بيوك أغا، وقال: «بُشراك قد رجع الميرزا حسن!»

الفصل السادس

هذا العبد يُدعى كافورًا، الاسم الذي أسمانيه سيدي. قدري هو العبودية، والرق، ولزوم الخدمة. ولأنه «ما كان للعبد اسم يتسقّى به(4).» فقد لقبوني بكافور «وأيما لقب نُبزنا فهو لقبنا.»

ولما كان الكافور نباتًا لونه أبيض، ولوني أسود، فإنهم ما لقبوني بذا اللقب إلا سخرية. «وخلافًا تسمى الزنجي بكافور(5).» كذلك كانت أسماء رفاقي وأقراني فواحدٌ اسمه ألماس، وواحد زَبَرْجَد، وآخر نُقرة(6). وأعيدها إن هي إلا أسماء سمّونا بها سخرية وهزوًا. يسخرون منا لأن بشرتنا ذات لون أسود، لأنّا جئنا من أرض كان عامة أهلها من السود، أرض لم يكن سواد اللون فيها خزيًا ومعرّة. لقد كان لي اسم آخر، اسم قد نسيته. وها قد صدقت أني كافور، وأسميث ولدي أيضًا بإيعاز من سيدي ياقوتًا...

كانت مخطوطات كافور قد دُونت على ورق رديء الجودة أوشك أن يتحول بمرور الزمان إلى لون بُني، وخامة هذا الورق تختلف عن خامة الورق الذي كان قد استعمله رضا قُلي ميرزا في تدوين مذكراته. كان ورق مذكرات رضا قُلي ميرزا سميكًا أملس، وحجمه متسقًا، ومع مرور الزمان اصفر لونه. والاصفرار بدا أكثره في حواف الصفحات، وأقله في وسطها. ومن لون أواسط الصفحات يمكن أن يُستشف اللون الأصلي للورقة. أما أوراق مخطوطات كافور فكانت رقيقة، وقد تحولت إلى لون بني بمضي الزمان. كانت حواف الصفحات قد تآكلت، وبضغطة واحدة من الإصبع، كانت تنفرك، وتتفتت، كانت أحجام الصفحات مختلفة أيضًا، توحي بأن كافورًا قد

تحصل عليها في ظروف متباينة. فبعضها كان صغيرًا، وبعضها الأخر كبيرًا. وبعض حواف الأوراق بدت وكأنها ممزقة منذ البداية وليس للزمان في ذلك يد.

أحيانًا ما كان كافور يكتب على وجه واحد من الورقة، وأحيانًا أخرى على وجهيها. كما كان القلم الذي كتب به مختلفًا، فحينًا ما كان يكتب بقلم حبر، وحينًا آخر بقلم رصاص. أما خطه فكان رائعًا، ويبدو كخط شكسته نستعليق(7) جميلًا واضحًا بديع المنظر. لكن الكلمات في بعض المواضع فقط في أواخر السطور قد خطت صغيرة متداخلة. كنت قد أحضرت معي العدسة المُكبرة، لتساعدني في قراءة أي كلمة غير واضحة. وقد جلسنا نحن الثلاثة أمام مجموعة من الأوراق. كان أبي يتناول ورقة إثر ورقة بحذر، ويقرأ سطورها الأولى القليلة. ولم يكن لدينا وقت كاف لقراءتها كلها، إذ علينا أن ننفذ مباشرة إلى لُبّ الموضوع في أسرع وقت. وهكذا وعلى هذا فإننا لم نتوقف كثيرًا عند الصفحات. في مستهل مخطوطاته كان كافور قد قدم نفسه، ثم دوّن خواطره عن طفولته ومجيئه إلى إيران، كذلك كانت بعض خواطره في شبابه الذي قضاه في بوشهر وطهران. في بعض الأحيان كانت قراءة سطور قليلة من مخطوطاته تلك تثير في نفس المرء شجنًا، فمن الصعب تصور شخص يُجلى على هذا النحو عن بيته، وحياته، وأرضه، ثم يُباع كسلعة، ويُجبر على أن يعمل لدى الآخرين طيلة حياته، دون أن أي مستقبل ينتظره مطلقًا.

لقد تصفحنا خمسين ورقة، حتى وصلنا إلى خاطرة عثوره على عشب الجونجادا:

«اليوم بحمد الله، اهتديت إلى كيس من عشب الجونجادا المجفف، أعطانيه أحد الملاحين السود الذين كانوا على متن السفينة القادمة من زنجبار. وقد صيّر عظيم فرحي بهذا الصيد الثمين وفائض سروري حرارة مدينة بوشهر في نفسي إلى روضة ورود، وشمس البندر اللاهبة إلى نسيم ربيعي ناعش. ماذا سأفعل بذي الغنيمة النفيسة، وأي أدوية سأصنع منها لأجل كل عاجز.»

ثم بيانه أمر عودته إلى طهران، وتقدمه إلى متجرة معين التجار، ووصفه مرض ألماس:

«إنه يشكو من ألم ناحية بطنه، عندما أجس بيدي ذاك الموضع، ألمس تكتلًا صلبًا بين أحشاء بطنه. كان ثمت نتوء قد تشكل في تلك المنطقة، في ظني أنه سوف يتضخم أكثر فأكثر، وقد يؤدي إلى وفاته مع تفاقم الألم»

وتدابيره لإيجاد طريقة ينقذ بها ألماس، وقراره في نهاية الأمر بإجراء عملية جراحية في بطنه، في حين كان يرى أن ألماس لن يوافق على مثل هذا الأمر.

«سوف أقوم بواجبي، والنتيجة بيد رب الكون.»

حديثه إلى ألماس، والموعد الذي كان قد حدده لإجراء هذه العملية الجراحية له. تمامًا مثلما كان قد أخبرني من قبل الرجل الأسود الذي التقيته في مضيفة الناصري بطهران. وأخيرًا الليلة التي قصده فيها ألماس وبغية إنقاذ «جماعة من الأطفال الأسرى» طلب منه المساعدة. ثم محاولاته لإعداد مسحوق التخدير من عشب

الجونجادا وتعبئته في المتفجرات.

«لقد جاءني في هزع من الليل كوكبة من الصحب والمعارف كنت التمست منهم العون. فجعلنا نفرغ معًا المسحوق في عبوات من الكبريت والبارود، ثم نلفها بورق، ونربطها بخيط رفيع. كان إلقاء أي واحدة منها بعزم موجبًا لانفجارها وانتثار المسحوق في أرجاء المكان. والآن فكان علينا، وفقًا لما تحدد، أن نذهب فنقف مع طلوع الشمس على الخندق، ونجاهد في إنجاء أولاء الأطفال الأبرياء.»

وبعد ذلك، روايته قصة هزيمة أيّاز ذي العيون الأربع:

«بفضل الله، وبأثر مسحوق الخدر الذي عن طريق حِزم المتفجرات انتشر بين الملأ، تقاتلت عصبة الأشرار تلك قتالًا ضاريًا وكأنهم أعداء ألدة منذ ألف سنة، فصرع أحدهم الآخر، ليخلص العالم من شر أولاء الأشرار المؤذيين. استغرق هذا القتال وذاك العِراك من الوقت مليًا، حد أن رئيسهم بشخصه، وأكثر أفراد هذه العصابة الخبيثة أيضًا، جروا أذيالهم الملطخة بالآثام من الحياة الدنيا، وجُزوا على شنيع أعماله الجزاء الأوفى، فشُيعوا إلى دار العقوبة الإلهية.»

ولقاء الأطفال الذين نجوا من محبس أيّاز:

«خرج جماعة من الأطفال المطلق سراحهم والخائفين من ضيق سجن الأشرار واحدًا واحدًا، كان مأمورو النظمية قد صفوا أحدهم خلف الآخر، وساروا بهم إلى إدارة النظمية حتى يُجرى التحقيق اللازم بشأنهم، ويعودوا إلى أكناف والديهم وأهليهم وذويهم. وحينئذٍ لزمت أعتاب الدعاء داعيًا الله ألا يقع أي طفل أسيرًا لمثل هؤلاء المتشيطنين بعد الآن، وألا تنهار آمال أي إنسان بأيدي أولئك

الأشرار.»

وأخيرًا رجوعه إلى بيته، وعلمه بأن ابنه ياقوت قد تجرع كأس عصارة الجونجادا المُبخرة، التي كان قد تركها سهوًا منه على المقعد:

«وقت سماعي هذا الخبر، انهارت الدنيا على رأسي. فلذة كبدي، نور عيني، ياقوتي، مضى إلى تلك الكأس بغير علم، فجرعه دفعة واحدة متصورًا أن ما تناوله ليس سوى شراب، وكان قد أخذ الكأس الفارغة إلى أمه وهو متبسم. لقد أنبأتني زوجي عندما عدت إلى المنزل بهذا الخبر، ثم سألتني هل تناول تلك العصارة مضر. وعلى الرغم من أني كنت أعلم أي أمر ينذر بالسوء قد وقع، لم أكن أريد أن أكدرها، وأجيش في نفسها قلقًا على مسألة لا حيلة لها في دفعها، فقلت لا يُرتجى وقوع أي ضرر من تناولها، فتلك العصارة لها أثر منشط على قلبه وجهازه الهضمي. ولما أن سمعت زوجي مني هذا، حمدت الله وانصرفت لشأنها. وبقيت أنا وحدي وفادح خوفي مما سيقع. كنت أعلم يقينًا أن هذه العصارة إن لم يكن اليوم، فربما بعد بضع سنين سوف تؤثر على فلذة كبدي، وقد يكون ذلك في طور شبابه، بل وحتى قد يمتد أثرها فيخضع أنساله من بعده. ثم إني في الحال صرفت همتي إلى البحث عن ترياق ودواء يمكن له إبطال أثر عصارة الجونجادا الضار.»

بحث كافور في كتب عديدة، ووفقًا لدراسته الأولية فطن إلى تصنيع دواء يمكن له إبطال عصارة الجونجادا: «ليس مستحيلًا وإن كان غاية في الصعوبة.»

وآملًا عكف كافور على خلط المواد الدوائية المختلفة. وفي أثناء

قيامه بذلك، فجأة تذكر صديقه ألماس ومرضه:

«كان يجب أن ألتقيه، وأفهم منه كيف يبلو. كنت أحسب أنه في المقدور تخديره بعقار آخر واستئصال الورم الخبيث من معدته، حتى إني فكرت أن أقصد مدرسة دار الفنون وأطلب من الأساتذة هناك عقارًا طبيًا يفقده الوعي، أو يحد من آلام الجراحة يمكنني من علاج ألماس، وإنقاذه من مصير كان يتربص به.»

بعد أيام قليلة من واقعة إنقاذ الأطفال من براثن أيّاز، وبينما كان كافور مكرسًا مسعاه لإيجاد ترياق لعشبة الجونجادا، ذهب ذات ليلة إلى مقهى قنبر، ليلتقي ألماس:

«مع غاية الأسف خبرت أن ألماس بعد يوم واحد من إنجاء الأطفال المحبوسين، ودع رفاقه، وترك المدينة بحجة زيارة العتبات المقدسة. أما قنبر فقال أنه قد شوهد في ينبوع عليّ جالسًا إلى الصخرة التي كانت زوجه عنبر قد أسلمت الروح عندها، يسفك الدموع. قيل أنه استقر مقامًا في تلك الناحية، ويقضي جل أيامه عند تلكم الصخرة. أما أنا فلأني كنت على دراية بحالته المرضية، فطنت أنه ما كان يرمي من ذهابه إلى ينبوع عليّ والجلوس عند تلك الصخرة شيئًا إلا أنه قنط من شفائه وخلاصه من مخالب المرض الجِداد، فذهب إلى ينبوع عليّ، ليموت مستأنسًا بذكرى معشوقته، ويقضي إلى جوار محل وفاتها.»

وقرر كافور أن يتجه في صبيحة اليوم التالي إلى ينبوع عليّ، وهناك يهتدي إلى ألماس، ويرده إلى طهران للعلاج. وبهذا المقصد هم ليغادر المقهى متجهًا إلى بيته، وراح في ظلام الليل يجتاز أزقة

طهران:

«طويت طريقي من مقهى قنبر حتى مخزن متجرة معين التجار راجلًا. لم يكن في حوزي من النقود ما يكفي لأستأجر عربة نقل بضائع، أو عربة ركاب، أو ترام خيل أركبه، فاستغرق ذلك المسير الطويل وقتًا مزيدًا. حتى إذا صرت على مقربة من الدار، كان أرباب الدكاكين قد طووا بسطهم، وأطفأوا الشرج المضاءة المعلقة فوق دكاكينهم، وغادروا. كانت الأزقة خلوًا، والذين يسيرون بين جنباتها أقل من قليل. أوجست الأرجاء الخالية من حولي في قلبي فزعًا، لم أكن أتبين لذلك سببًا، بيد أني كنت خائفًا من شيء لا أدري كنهه. فمن بعد النائبة التي كانت ألمت بقُرّة عيني ياقوت، كنت أخشى أن يقع بالبيت مكروه لزوجي أو لولدي. استحثثت خطاي، لأعود إلى بيتي عاجلًا. آخر زقاق جاوزته، أفضيت منه إلى شارع چراغ برق، حيث كانت إنارة المصابيح هناك التي كانت قد تولدت من محطة محمد حسن خان أمين الضرب(8) الكهربائية تنفث في روعي طمأنينة. شققت طريقي في الشارع المُضاء بالنور قليلًا، ثم ولجت الزقاق الذي يُفضي إلى مخزن معين التجار. لكني لم أتقدم بضع خطوات، حتى خرج عليّ رجل متين البنية من فرجة ما فقطع عليّ الطريق، وقال: «إلى أين تذهب أيها الزنجي؟!»

ظننته مُبتزًا وقاطع طريق، ويطالب بدفع الإتاوة، لكي يُخليني أذهب، لذا قلت: «بيتي هنالك، آخر الزقاق، إني رجل فقير إني غلام مملوك ولا أملك نقيرًا.»

أجابني الرجل المتين بابتسامة هازئة، ثم قال: «عجبًا! وكيف تجرؤ

على أن تسلك في الشارع ليلًا؟!»

فقلت وإني ضاجر: «كنت أعود مريضًا، طال بي طريق العود، حتى تأخر الوقت.»

أما الرجل فغير آبه بكلامي وضع يده في عِبِّ قبائه الطويل، فاستل منه خنجرًا، وتقدم مني. رجوته متوسلًا: «دعني أذهب إلى بيتي عسى أجد مالاً أو شيئًا، فأجيء به إليك.»

فقال الرجل المتين: «عبث، أتحسبني حمارًا؟!»

ودنا مني دنوة أخرى، حتى لامسني. ولما كان الآدمي لا ينفك عن التفكر في نجاته حتى في أردى الظروف والأحوال، استدرت، كيما ألوذ فرارًا، لكني ما كدت حتى رأيت رجلًا آخر أمامي قبيح الطلعة أخذ يتقدم مني بكيس أسود كبير. فغرت فاهي لأصرخ مستغيثًا، لكن وقبل أن يخرج صوتي من الحلقوم، ألبس الرجل رأسي بالكيس الأسود، ثم شعرت بضربة مسددة إلى قفاي، ولم أعد داريًا بشيء آخر من بعد.»

الفصل السابع

بمجيء الميرزا حسن خان دبت الحياة في المدرسة، وكأن كل شيء آل إلى أحسنه. هذي البِناية، وهاتيك الناس التي كانت تختلف إليها، كما لو أن حالها تبدل فتلونت بغير لونها. الجميع يَجِدُّون جدًا، الطلاب يتوافدون إلى المدرسة تبعاً، ويتساءلون عن موعد بدء الدراسة. وكان الميرزا يجيب في الخامس عشر من شعبان. ولقد سألته أي يوم هو الخامس عشر من شعبان، فقال بعد أسبوع من الآن. ولما كان بيوك أغا معنا ساعتئذٍ قال أرجو الله ألا يخربوا المدرسة هذي المرة أيضًا. فضحك الميرزا، فقال ولو خربوها، نشيد أخرى.

في تلك الأيام، عاود نادر المجيء إلى المدرسة، ومثلما كان الأمر قبلًا تفقد أحوالي وسألني هل يعوزني شيئًا. ثم إنه حادث الميرزا حسن، ومن بعدئذٍ كرّ عائدًا إليّ، وقال لي وعلى وجهه تلوح لوائح السرور وقتما تفتح المدرسة أبوابها، فإنه إلى جانب عمله في دار التلغراف، سوف يأتي إلى المدرسة أيام الاثنين من كل أسبوع، ويُدرِّس الطلبة علم الفلك ومعرفة أحوال الكواكب والنجوم.

كان كل شيء على أتم وجه. وقد كنست ريح الخريف العليلة كل لوث في المدينة ودنس فذرته. وفي تلكم الأيام فطنت أن محبة الخريف قد حلت في قلبي أبد الدهر، وأن روحي تنتعش مع هبات رياح الخريف.

أما الميرزا حسن خان فإلى جانب كل مشاغله، لم أفارق عين عنايته. وفي تلكم الأيام دأب أولًا على أن يسألني عن منامي

ومأكولي، يسألني هل فراشي وثير؟ هل أتناول ما يكفيني من الطعام؟ ثم يستفسر مني عن حال الوالد والوالدة وشقيقتيّ. كانت كلماته وعنايته بي تردني إلى خير حال. وطفقت شيئًا فشيئًا أحس أن الحياة أسفرت لي عن وجهها المليح. كان ذلك حتى دهمت تلك الليلة النكباء، الليلة التي ستكون مفتتحًا لما سيجد عليّ من البلواء، الليلة التي لم تذر حلاوة الحياة تستكن في حنكي. مرت ليلتان على الموعدة التي وعدها الميزرا بعد سبعة أيام، وبت أعلم أن المدرسة سوف تشرع في العمل في غضون خمسة أيام. وكنت كما في سالف الليالي أرقد وأصغر وإبراهيم في إحدى غرف المدرسة على حَشِيّة رقيقة بجوار طاولات الدراسة ومقاعدها التي كان بعضها قد نضد فوق بعض. كان بيوك أغا قد أعد لنا عشاء خفيفًا، فقدمه لنا. وبعد إذ تعشينا، وكأن مشقة الجهد والمجهود اليومي كانت لها الغلبة علينا، وسرعان ما خلدنا نحن الثلاثة إلى النوم مبكرين. كان الليل قد انتصف عندما تنبهت على مرور شيء ما على وجهي بدا أنه لَذن هش. بداية ودون أن أفتح عيني مرشت وجهي وأنفي، واستنمت مرة ثانية، لكن تلك الحركة تكررت، وفي الوقت عينه توجست أذني همهمات مبهمة لأحد كان واقفًا علي رأسي. فتحت جفنيّ ببطء، ونظرت فوقي، عدا أني ما أبصرت إلا عوارض السقف التي كانت نتأت من الجص الأبيض. تخايل لي أني رأيت حلمًا، فما أسدلت جفني مرة بعد، إلا وتوجست خشخشة جهة باب الغرفة. التفت نحو الباب، فلمحت لوهلة خيالًا وقد حاد عنه. نهضت مفزّعًا، وجلست على الحشية وقد تلظيت على جمر التوتر، وطفق قلبي يدق. من بعدئذٍ نظرت حواليّ حيث كانت المقاعد المنضودة بعضها فوق

بعض تتراءى في ظلمة الغرفة مخيفة. كان أصغر وإبراهيم كلاهما نائمين ويتردد صدى أنفاسهما في سكون الغرفة. كرت على مسمعي خشخشة، غير أنها كانت هذه المرة من دهليز البناية. في المدة القصيرة التي مضت لي في المدرسة، لم يسبق أن دخل أحد غرفتنا حتى ولو ليتفقدها أو ليمضي في طريقه إلى دهليز المدرسة. قمت من مكاني، ومشيت إلى باب الغرفة.

لم تطاوعني قدمي، فمن جهة كان الفضول يحرضني لمعرفة ما يجري، ومن جهة أخرى كان الخوف يقعدني، وقد تعذر عليّ الخروج. لكني ورغم ذاك أوصلت نفسي إلى إطار الباب. وتفقدت جهتي دهليز المدرسة الممدود الذي كان خاليًا مظلمًا. كان آخر الدهليز، حيث باب البناية الصغير، غارقًا في ظلام مطلق لا يكاد يبين. أما الجهة الأخرى التي تفضي إلى فناء المدرسة فكانت أضوء. وفي ذلك الضوء مرة أخرى لمحت الخيال الذي تحرك هذه المرة وولج الفناء. مشيت إلى الفناء، واجتزت ببضع خطوات الدهليز المرطوب ممره الذي يفوح برائحة الجص الطري، إلى غاية أن أدركت عتبة فناء المدرسة. كان الجو غائمًا وأقتم، والأشجار في الفناء تتهادى مع نفحة ريح من هنا وهناك، وقد أجرى جريان الريح بين أوراقها صوتًا مهيبًا. وقفت على أول سلمة تفضي إلى الفناء، وتقصيت النظر فيما حولي، فما أبصرت إلا حوضًا صغيرًا يتوسط الفناء، ومن حوله أشجار مهفهفات الأغصان، وبعض مقاعد محطمة مركونة إلى جانب الجدار. كانت السماء مركومة الغيم فما من نجم يُبصر فيها.

ساعتئذٍ عزمت على أن أعود، وأنام. استدرت عائدًا جهة الدهليز، فما خطت قدمي، حتى دعاني برفق من داخل الفناء قرب المطبخ

داع: «رضا!»

التفت من فوري نحو الصوت، وقلبت بصري في نواحي المكان مرة أخرى. لم يكن هناك من أحد! هبط السلالم من أمامي متئدًا، حتى وطِئت أرضية الفناء. ودون أن أنظر إلى موضع بعينه، فهمست قائلًا: «من هناك؟ وما تريد؟!»

لم يجبني أحد. وبدلًا من ذلك، سمعت خرخرة قط هائج أعلى الجدار، صوتًا أشبه ما يكون بنحيب مِزَاجه ألم. تريثت هنيهة، ثم عدت قائلًا: «من هناك؟»

ومجددًا لم أسمع جوابًا. مشيت متريثًا، ومررت بالحوض، فعاود القط الخرخرة بصوت أجش. مشيت حتى منتهى الفناء وجست بنظري خلال الأشجار التي كانت تتهزهز مع الريح، فلم أجد أحدًا هناك. أردت أن أنقلب إلى البناية، فإذ بي ارتطم بجسم بارد صلد منتن الرائحة، فصرخت، فتقهقرت. كان قبالتي هيكل بشري، ولما أن تقهقرت، صاح فقال: «اصمت!»

مرتعبًا نظرت إليه، كان راضيًا. شخص لي بوجهه الذي غيضت منه الدماء، حتى صار لونه في الظلماء شاحبًا كالجص أبيض، وبعينيه البادي احمرارهما في حلكة الظلام. اعتقل لساني خوفًا، وارتج عليّ، وكانت أنفاسي قد ارتقت صعدًا، حتى إني وبشق الأنفس أطلقت من حنجرتي صرخة. أما راضي فرفع يده وأمسك بذراعي، كانت كفه باردة قاسية، وقد غرس أظفاره المخلبية كسفود في ذراعي. فقلت من فوري: «أَخ!»

فنظر إليّ، وقال: «لم تكن تتصور أن آتيك هنا سعيًا، أليس كذا؟!»

عندما كان يتكلم كان فمه يخلف ريحًا كريهًا. لم أكن أعرف بم أجيبه. أطبقت شافتي، وتلفت يمنة ويسرة. فما كان منه إلا أن نظر إليّ بعينيه المتجمدتين في مجريهما، فقال: «أنت تعرف من أنا، أليس كذا؟!»

دون أن ألفظ كلمة أو أبدى حركة نظرت إليه. ولما أن رآني لا أتكلم، شد براثنه الحديد على ذراعي ورجني رجًا، ثم قال: «أليس كذا؟... أتدري من أنا؟!»

شعرت الآن وكأنه ينهش من لحم ذراعي مضغة، فتأوهت ثانية، وأومأت له رأسي بالموافقة. فقال راضي: «حسنًا... الآن تيسر الأمر عليّ.»

ثم إنه غرز كفه الأخرى في ذراعي الأخرى، وقال: «أنا أعرفك أيضًا، أعرف أين تروح وأين تغدو، أعلم مُستقر صاحبك شكور.»

عاودت إيماءة رأسي بالموافقة من دون داع، فأردف راضي: «تلكم الليلة، ساعة خرجت من الحوض أبصرتك. استدبرتك، استدبرتك أنت وصاحبك الأسود ذاك... تبينت أنك خضت الحوض لدى شكور، كي يُملي عليك ما تفعل. كنت أعلم أنك مول وجهتك شطر أيّاز ذي العيون الأربع، لكي تحتال. يوم أن ذهبت برفقة صاحبك ذاك إلى الخندق، وأمسك به، كنث أنا هناك. أبصرتك وأنت تلوذ فرارًا. وكنث أيضًا من أنبأ أيّاز بما أنت عازم عليه.»

ثم شدني إليه بكلتا يديه. تعورت في أنفي ريح جسده الخبيثة، فلما فتح فمه ليتكلم ازدادت ريحه الخبيثة خبثًا: «أفرأيت الآن أني

بكل شيء عليم؟!»

حدقت إلى راضي مبهوتًا غير مصدق ما سمعت، ولم أنبس بذات شفة. أردف راضي قائلًا: «إني لأحيط بتمام أمرك. غداة الليلة التي أفلت فيها من قبضة أيّاز، تعقبتك. وأبصرتك وقد ذهبت إلى دار التلغراف، ثم المدرسة من بعد. بداية هجس في خاطري أن أقبض عليك، وأسلمك إلى ثويان خان، ثم من بعد ذلك راودتني فكرة أفضل.»

فسألته: «ما... ما الفكرة؟!»

مرة أخرى نشر راضي رائحته المنتنة في وجهي، وقال: «ذلك أن تفعل لي شيئًا...»

ثم أطبق على ذراعي حتى إن قبضته جعلتني أود لو أصرخ توجعًا، ثم قال: «إن أردت ألا أنزل بك نائبة....»

فقلت مذعورًا: «ماذا... ماذا أفعل؟!»

أجاب راضي: «سأقول لك... ليس هنا... لنذهب خارجًا.»

سألته: «أ...أين؟!»

«حيثما أقل.»

«حس... حسنًا.»

أفلتني من براثنه، ثم قال: « ولكن ألن تهرب؟!»

«نعم.. نعم.»

فقال: «أتعلم لمَ جئت في أثرك إلى هنا؟»

تبلعت ريقي، وقلت: «لمَ؟!»

أجابني: «إنما جئتك في أثرك لتعلم أنك أينما تكن، فأنت في قبضتي. إن أعدت الكرّة وهربت، فويلك وعولك.»

ثم أطبق على ذراعي. فغمرت حدة الألم جسدي كله. فقلت غصبًا: «آه...»

فقال: «مه.»

أرخى قبضته قليلًا، فقلّ ألمي، ونشقت نفسًا. قال راضي: «سنخرج من هنا معًا.»

فقلت: «ولكن...»

فقال: «اخرس، نفذ ما آمرك.»

فقلت: «حسنًا.»

ثم دفعني إلى الأمام، وسار هو من دوني. سرنا على امتداد الفناء، حتى بلغنا السلم قبالة الدهليز، فدرجناه. تخطينا أبواب الغرف كافة، حتى أدركنا باب المدرسة الخشبي الصغير، فتح راضي الباب، ودفعني، وقال: «اخرج.»

ذهبت، وأردفني هو. اصطك الباب الخشبي من خلفنا اصطكاكة لها صرير. ثم مشينا معًا في زقاق خال تكتنفه الظلماء.

الفصل الثامن

مضت المسافة التي قُطعت بي وأنا حبيس الكيس مضت كلها وإني لفي خدر وتغيب عن الوعي. كانت الضربة التي سددها الرجل القوي البنية إلى قفاي أشد من أن يحتملها جسدي النحيل. لا أعلم كم لبثت وقد اقتدت محمولًا على أكتاف هؤلاء الأجلاف في الكيس. ما كنت أعلمه هو أن الطريق لم تكن قصيرة، فلقد مضينا شأوًا بعيدًا حتى وصلنا إلى مكان مجهول لي. شعرت بباب فُتح، وأنّا درجنا كذا درجة. ثم توجست صوت باب آخر، وقد طرحني الرجل الذي كان يحملني على كتفه أرضًا طرحة شديدة، وتضجّر من بُعد المسافة، ولقيته من حِملي نصبًا.

دبّ الكِلال في عظامي إثر ارتطامي بالأرض، فتأوهت بلا إرادة. ويكأن هذا الألم و هذي الرطمة الحادة، ردت إليّ وعيي، وتلك الآهة حلت عقدة لساني. فطفقت من فوري أطلق أنّاتي وتأوهاتي تترًا، وتوسلت أن يخرجاني من الكيس. رحت أتوسل ألا يؤذياني لأن لي زوجًا وولدًا في انتظاري، وإذا ما عدما وجودي في الحياة، فما لهما بعدي من معول. ولكنما الرجلان لم يقنعا بعدم إجابتي بل إنهما عوضًا عن أن يظهرا لي رحمة ورأفة، همى عليّ كل منهما بالركلات، وأمطراني بفاحش الكلام، ثم ما لبثا أن انصرفا.

ساد المكان برمته السكون فور إذ انصرفا. كان الظلام في الكيس والسكون في الخارج مخيفًا مرعبًا. لم أكن أدري أي مصير ينتظرني. ذانك اللصان لا علم لي بهما، ولمّا أدر ما دافعهما لخطفي. لهجت نفسي أدعو ربي، وأسأله المدد وأن يلهمني سبيلًا أنجو به من شَرَك

ذينك الرجلين.

ربما لبثت ساعة في ذلك الوضع البئيس، حتى سمعت صرير باب يُفتح، ووطء أقدام بعض نفر منه يلجون. ثم من بعد ذلك سمعت رجلًا يقول: «ها هو ذا، في الكيس.»

ثم صوت امرأة وإنها تقول: «ألم أقل اذبحاه، ثم ائتيانى به مذبوحًا، فما لكما أتيتما به حيًا؟»

أجاب الرجل: «ولكنكم كنتم قلتم أن...»

فقاطعته المرأة قائلة: «اخرس، لا تنطق بكلمة، أتروم الآن قتله هاهنا لتُسفح دماؤه في كل مكان؟!»

فقال الرجل: «إنما...»

تارة أخرى لم تدعه المرأة يتكلم، وقالت: «افتحه، واخرجه منه كيما أراه.»

تقدم صوبي أحدهم، ونازع قليلًا الكيس، حتى فك فمه، وانبثقت قدمي خارجه. وعندما تعرضت قدمي المكشوفة للهواء في الخارج، ردت فيّ الروح، وقلت: «رحماكم... رحماكم إني لذو ولد وزوج.»

ثم إني سمعت المرأة تقول: «لا بد أنه توسل بمثل هذا، فأبقيتماه حيًا.»

شد الرجل الكيس بقوة، ونزعه عن رأسي. فتحت عيني، حيث كان قد وقف على رأسي رجل يحمل سراج زيت بالفتيل، وآخر ذو قباء أسود وقبعة فراء يقف إلى جواره، ينظرني في نور سراج الزيت.

كررت قولي: «رحماكم.»

فنظر هو في عيني، وقال: «أيها الزنجي ابن المحروق أنَّى أرحمك؟! لأقرعنك بقارعة، تنصب لها في بلاد الحبشة وزنجبار جميعًا المآتم وتقرأ فيها المراثي.»

الآن تبينت أن الصوت النسوي الرفيع الذي كنت سمعته كان صوته هو، كان لرجل أملس لا شارب فيه ولا لحية قد وقف عند رأسي يتهددني. قلت: «ولمَ ذاك كله؟! ما عساني فعلت؟! خلني أذهب إلى بيتي، ولأجلبن لك كل ما أملك، وأيم الله لأجلبنه... وحياة زوجي وولدي لأجلبنه.»

تبسم الرجل الأملس بسمة تنم عن سخرية، فالتفت إلى الرجلين اللذين كانا بجانبه، وقال: «أيسألني ماذا فعلت؟ أفيقاه قليلًا، لأخبره ماذا فعل.»

ثم تناوبني الرجل الذي كان نزع عني الكيس، والرجل الذي كان يحمل سراج الزيت ركلًا. هوت ركلاتهما على بطني وخاصرتي ورأسي ووجهي، فجعل الألم المضني يحيق مع كل ضربة منهما بجسدي. وتحت وطأة ضرباتهما القاسية ضججت، وتوسلت أن يذراني. وفي نهاية الأمر عندما أصيبت بطني وخاصرتي من شدة ضرباتهما بالخدر، وغطت الدماء الحارة وجهي، أمرهما الرجل الكوسج أن يذراني. ومن فرط ما استشرى الألم في أنحاء جسدي، كنت تشوشت. أما فمي فقد فار بالدماء، وترددت خلال خثرات الدم أنفاسي بعناء. ثم ما لبث أن جاءني الرجل الأملس، فقال: «حسنًا، خبرني الآن لم جئت بك إلى هنا؟»

هززت رأسي الموجوع بما يعني أني لا أعرف. فقال الرجل الأملس: «ألا تعلم؟! ألا تعلم أيها الرجيل الأحمق أي إثم اقترفت؟! أتراها أمي التي كانت على رأس خندق بوابة غار تلكم الليلة تستعرض ألاعيبها فتثير العجب؟! أتخايل لك أن تضرب ضربتك وتفلت؟... جئت بحفنة من الزنوج وأطلقت المتفرقعات، فقتلت أيّاز ذا العيون الأربع الذي ليس من أحد في طهران إلا ويخشاه، ثم وليت دبرك. أولم تظن أن يُقص أثرك؟ أن يُقتص منك ويُثأر؟!»

أننت أنّة من فمي الطافح بالدم ومن بين كسير أسناني، كان ذاك جوابي الذي استطعت أن أجيب به ذاك الرجل المتحجر القلب لا غير. أردف الرجل: «هب أنك قتلت أيّاز ذا العيون الأربع، هب أنك جعلت الرجال بكل ما أوتيت من سحر وحيلة يتقاتلون. ألم تسل نفسك ألأيّاز شريك؟ شريك أكبر منه له أن يسحقك بقبضة منه أنت وكل قومك وذويك كذبابة متى شاء؟!»

هززت رأسي، وأخذت أئن ثانية. فقال الرجل: «نعم لم تكن تعلم، لأن اسم نُويان خان لم يصطك بمسامعك. لو قيل لك من هو نُويان خان، لكنت كلما سمعت اسمه بلت على نفسك، لما كنت تجترئ على إطلاق مفرقعاتك النارية، لما كنت تجترئ على إهدار رأس ماله. أتعلم ثمن أولاء الأطفال الذين تركتهم يذهبون سُدى؟ أتعلم قدر ما ألحقت به من ضرر وخسران؟!»

بينما كانت الدموع تنهمر من عيني مدرارًا، لم أفعل شيئًا سوى أن هززت رأسي وتوجعت. تمشى الرجل الأملس قليلًا في الغرفة، وأردف: «أسوأ من الضرر الذي ألحقته بمال نُويان خان، ذاك الذي

ألحقت بسمعته. لقد وعد الخان أن يسلم هؤلاء الأطفال في الميقات المحدد إلى التاجر الروسي. وإذا تأخر، فسوف تُثلم سمعته. أنت زنجي وضيع لا تعرف ما تعنيه السمعة في التجارة، أما نُويان خان فيعرف، ولهذا أمر بأن يُجمع العدد نفسه من الأطفال أينما كانوا، يُشترون أو يُخطفون… يجب أن يكون العدد نفسه من الأطفال في الطريق إلى الحدود. وسوف يُعوض التأخير في هذه الأيام القليلات، لأنهم سيقطعون الطريق واصلين الليل بالنهار، ليصلوا في أسرع وقت. قال يجب أن يُساق مزيد من الأطفال، حتى إذا أعيت مشقة الطريق بعضهم فماتوا في خلاله، لا يكون رغم ذاك فُقد شيء يُذكر»

ثم تقدم مني، وأدنى رأسه، فقال: «أوترى أنه ليس بمقدورك اجتراح جرم واحد. كل شيء يمضي كما قُدر له، ونويان خان لا يزال كالطود راسخًا في موضعه، أنت الذي وقفت في مهب الريح وسعيت إلى حتفك لا سواك.»

ثم أشار إلى الرجل الذي كان واقفًا إلى جواره، وقال: «اجهز عليه.»

وفي الغرفة شبه المظلمة، وخلف أستار الدموع التي كانت ملأت عينيّ، رأيت الرجل القوي وقد سل خنجره من طرف شاله، وتقدم به صوبي. وساعة أن رأيت تصرفه ذاك تمكن الخوف من نفسي تمامًا، فجهدت غاية جهدي لأقوم. كم من مرة توسلت الرحمة ولكن الرجل متجاهلًا أناتي وتوسلاتي، وضع إحدى يديه تحت ذقني، ورفع رأسي، ثم بيده الأخرى وضع خنجره على ودجي، فتوسلت مرة بعد. كان الرجل الأملس قد وقف إليّ، وراح يتفرسني. وفي تلك اللحظة التي كنت أحسب أن شفير الخنجر سيقطع الحلقوم، رفع يده فقال:

«مهلًا.»

أنزل الرجل يده بالخنجر، وتقدم الرجل الأملس مني، فقال: «سمعت أنك تبتغي أن أرحمك. أليس كذلك؟»

أومأت رأسي له بالموافقة، وبكيت. كان جسدي كله من شدة الخوف يرعد. قال الرجل الأملس: «ولكن ليس بوسعي أن أرحم، فالذي ينبغي أن يرحم هو نُويان خان.»

ثم انثنى عليّ، وأقبل بوجهه إليّ، وقال: «ليس سوى سبيل واحدة ليرحمك، أو تعرف كيف؟»

هززت رأسي من جانب إلى آخر. فقال الرجل الأملس: «إن كان بمقدورك جبر بعض ما جلبت من خراب، فلعله حينئذٍ يرحمك.»

ثم إنه رفع صوته، وقال: «هل ستجبره؟»

هززت رأسي إلى أسفل مرة بعد مرة. فقال الرجل: «حسنًا، الآن ربما يمكنك البقاء حيًا، ربما فقط...»

ثم قام والتفت إلى الرجلين قائلًا: «اغسلا وجهه، ورداه إلى الكيس، سنسوقه إلى القصر.»

فقال الذي كان ممسكًا بالخنجر: «أمركم فرُوخ خان.»

الفصل التاسع

كانت لا تزال رائحة البيت تُروِّح بريح الحريق، لو أني تبينت فيما بعد أنه قد احترق قبل سبع سنوات. هذا ما قاله راضي، في ثنايا بوحه عن ماضيه. لقد بدل المجيء إلى هذا البيت خلقه ومزاجه. كان راضي يحاول أن يظل مثلما كان، لكنه عجز. كان كسيرًا متحنيًا، وكأن عبئًا ثقيلًا على كاهليه محمول. وفي بهمة الليل، ومع نباح وعواء منكر لقطيع من الكلاب صار من نكيره وكأنها تنبح وتعوي خلف آذاننا، جاوزنا بعض الأزقة والشوارع، إلى أن وصلنا إلى البيت المحروق. كانت أطرافي قد تصلبت من فرط الخوف، وأرجفت الريح الباردة في الليل البهيم جسدي. ومن إطار باب البيت الخشبي المكسور دفعني راضي نحو الداخل، ثم دخل عقبي. كان المكان برمته مظلمًا. وبقدومنا تحركت من موضعها كثير من الأشياء في المنزل، وعلا مواء بضع قطط وجلبة تنقلها بين الطوب والآجر المبعثر، وصرير رقيق ربما كان لفئران. كانت ثمت رائحة تراب، ورائحة خشب محروق. دفعني راضي مجددًا، فجعلت قدماي تعلقان بتل من التراب، والطوب، والرماد، ومضيت بصعوبة قُدمًا، حتى كدت على حين غفلة أرتطم بالأرض، لكني تماسكت بمشقة. فما تقدمت خطوتين إلا ودفعني راضي قائلًا: «هيا.»

مررنا بردهة ضيقة، فأفضينا منها إلى غرفة فسيحة. والآن بعد أن كانت عيناي قد اعتادتا الظلماء، أمسى بوسعي أن أرى قرابة نصف سقفها وهو متداع، ويتدلى من أعلاه خشب محروق و بوص. وداخل الغرفة ضرب راضي على كتفي، وقال: «اقعد.»

انثنت ركبتاي غصبًا، فجلست على كومة تراب كانت قد تهاوت من السقف. إذ ذاك تقدم راضي، ووقف حذائي. كان بنيانه النحيل العظمي في القميص الأبيض الكتاني شبيهًا بالموتى الذين كنت رأيتهم خارج بوابة المدينة. كان وجهه باهتًا غير بائن في ظلمة الغرفة الدمساء، وحمرة عينيه في صفحة وجهه الباهت تبدو مخوفة أكثر. جلس بهدوء على عارضة خشبية محروقة كانت ملقاة على التراب. رفع إحدى ركبتيه وأسند إليها مرفقه، وقال: «هذا بيتي أنا... جميل؟...هل يبدو مثل قصر نؤيان خان؟»

لقد أربكني سؤاله، فما عرفت بم أجيب، فقلت: «هذا بيتك؟!»

فقال: «نعم، من أريد قتله، أجئ به إلى هنا.»

عندئذٍ صار لون حزني الذي كان قد بهت فاقعًا تارة أخرى. ويبست شفاهي، وارتعشت يداي. أردف راضي: «كأين من ليلة جئت فيها هاهنا! جئت هاهنا تلكم الليلة التي هربت أنت فيها من قصر نُويان خان، وإلا فما كنت لتفلت من يدي.»

نظرت إليه في صمت، ولم ألفظ بكلمة. سلك راضي يده في جيب قميصه العلوي، وأخرج دشنة(9) قصيرة، صوب سنانها نحوي: «أما الآن فأنت في قبضتي.»

فتحت فمي بصعوبة، وقلت: «رحماك، أيمن الله لأرجعنّ، لأرجعنّ إلى عملي.»

فقال راضي: «الآن لا تغني رجعتك شيئًا. ليس من ضربة ما كان يجب أن أتلقاها إلا وتلقيت، ليس من قِذع إلا وسمعت، أزدريت

وأمتهنت، ومن الجوع تلعلعت...»

وثارت حفيظته فُجاءة، فألقى بالدشنة أرضًا، والتقط حجرًا من الحجارة، فرجمني به قائلًا: «أيها الجحش!»

أصاب الحجر المُلقى صدري مقتلًا. ولما أوجعني، قلت: «أخ!» وانحدرت دموعي. أما راضي فقد قبض يده التي كانت رجمتني بالحجر، وأطرق رأسه. ساد الصمت لحظات. جعلت أتأمل مرتعبًا الدشنة الملقاة على الأرض، ثم ما لبث راضي أن رفع رأسه، فقال: «عليك أن تفعل لي أمرًا.»

ثم تناول الدشنة، فقال: «ذلك إن أردت ألا أقتلك.»

ازدردت دموعي، فقلت: «ماذا؟ ماذا أفعل؟»

حدق راضي إليّ بعينيه الحمراوين، ثم قال: «عليك أن تذهب إلى صاحبك المقبور ذاك.»

فقلت: «في الحوض؟»

فقال: «نعم، لدى الموتى.»

فقلت: «ولكني... لا أستطيع...»

قاطعني، وقال: «تستطيع، سيأتيك صاحبك، ويأخذك معه.»

وإذ به يرفع رأسه ناظرًا إلى سقف البيت المنهار، ويصيح عاليًا: «أليس كذلك؟ ستأتيه لتأخذه؟»

ثم رفع دشنته وأردف: «ذلك إن كنت تريد ألا ينزل به سخطي، إن كنت تريد ألا يلحق بك في القريب العاجل.»

ثم نظر إليّ، وهمس: «سمعت... إنه يسمع على الدوام، يرى على الدوام، أجد أنكما قد بلغتما من صحبتكما مبلغًا، يجعله لا يرتضي أن أحل عليك غضبي.»

كل ما فعلته هو أني حددت النظر إليه، فما قلت شيئًا، فأردف: «ستنفذ إلى الموتى إذن.»

فقلت: «أنفذ... أنفذ حتى... ما عساي أن أفعل؟»

- «تلتقى هنالك بأحد.»

- «بمن؟»

- «أبتي.»

- «بأبيك.»

- «نعم.»

- «ماذا أقول له؟!»

- «تسأله عن شيء.»

- «عم أسأله؟»

- «قل له أين مسكوكات معتمد الدولة؟»

ولما لم أفهم مغزى قوله الأخير، سألته: «أين ماذا؟»

فقال: «مسكوكات... مسكوكات معتمد الدولة، ستسأله عن مكانها، ثم تأتيني، فتنبئني.»

فسألته: «معتمد الدولة من؟!»

فقال راضي: « لا يعنيك، ليس عليك إلا أن تذهب، فتدرك أبتي، فتسأله أين المسكوكات.»

حاولت أن أستظهر كلامه، ولكن أشياء كانت تنغصني، أشياء كنت قد فكرت فيها منذ زمن طويل. كم من بينة وأمارة لأوقن أن راضيًا جاء من عالم الموتى أيضًا. فإذا كان ذلك كذلك، لماذا لم يذهب هو بنفسه إلى عالم الموتى؟ تجرأت، وقلت: «أنت... أنت نفسك... أنت نفسك مثل شكور، أليس كذلك؟»

نظر إلى عينيّ شزرًا، ثم قال: « وما شأنك أنت بمثل من أكون؟»

ازددت جرأة، فقلت: «لقد جئت أنت أيضًا من لدنٍ الموتى.»

فقال راضي: «إن كنت تعلم، لمَ تسل؟!»

فقلت: «مادامت الحال كذا، لمَ لا تذهب وتلقى أباك بنفسك؟»

نظر قليلًا إلى الدشنة في يده، ثم رفع رأسه، وقال: «هذا لا يعنيك، افعل ما آمرك.»

فسألته: «إن سأل أبوك لماذا لم يأت هو بنفسه، ماذا أقول؟!»

فقال: «قل له هذا لا يعنيك.»

فقلت: «وقتئذٍ سيقول كذلك وأنت لا يعنيك أين المسكوكات.»

قلّب راضي الدشنة في يده، وقال: «هلا انتهيت؟!»

فقلت: «إني لا أفتري قولًا، سيسألني لا ريب.»

فقال راضي: «هو يعرف لماذا لا أذهب إليه.»

فسألته: «ولماذا لا تذهب إليه؟»

قال مغاضبًا: « قلت هذا ليس من شأنك. ما عليك سوى أن تلج الحوض، تذهب فتدرك أبتي، فتقول له إن راضيًا، ذاك الذي أوديت به إلى التهلكة، ذاك الصبي الذي خلفته ورحلت، يسألك اين مسكوكات معتمد الدولة.»

فسألته: «وهل خلفك أبوك، ورحل؟»

فكسف رأسه، وقال: «نعم.»

فقلت: «كيف ذاك؟»

فقال: «أوَما كفاك فضول؟!»

فقلت: «احك لي، أتبين.»

خفض راضي رأسه، ومرر سنان دشنته على الأرض، ثم إنه قال: «سرق مسكوكات معتمد الدولة، ورحل مع أولاده.»

فقلت: «أولاده؟... لا بأس إنك ولده أيضًا.»

فقال: «ولده، ولكن من امرأة أخرى، كانت أمي قد توفيت. عندما كان أبي يعمل في البازار، تزوج الوالدة. فما قدمت أنا إلى الدنيا، إلا وتوفيت هي. وقتذاك كان أبي يختلف إلى بيت معتمد الدولة، يشتري له متاعه، وينجز له صغير المهام، حتى شيئًا فشيئًا صار مباشر معتمد الدولة، وكانت زوجه الثانية تعمل في بيت معتمد الدولة أيضًا. فما تزوجا، حتى ازدرتني عين أبتي.. كانت زوجه تزعم

أني قضّاف أعمار إذ ماتت الوالدة بولادتي، وتزعم أن مقدمي مقدم نحس، فصدّق أبتي الذي كان قد وقع تمامًا في شراك هوى زوجه الجديدة زعمها. مذ أن كبرت وعقلت، وأنا أجدهما لا يقيمان لي وزنًا. في البداية لم أكن أعرف أني ولده أيضًا. توهمت أني خادمهما، حسبي من ذلك أنهما لم يتوانيا عن إصدار الأوامر. كان لأبتي ثلاث غرف في الطابق الشفلي من قصر معتمد الدولة له ولزوجه وأولاده فيها يسكنون، أما أنا فكنت أرقد مجاورًا الخُدّام والجواري. كنت قد بلغت اثني عشر عامًا، عندما أدركت أني ابن أبتي. لطالما كنت أود لو يهتم بي، ويلين من عريكته. كذا أدركت أن زوجه ليست والدتي، لكني مع ذلك كنت أحبها من قلبي. كانت زوج أبي تعاملني معاملة لم يلقها كلب أجرب، وتحط مني بما أوتيت حظًا، لكني كنت لها خانعًا، مطواعًا لأمرها منصاعًا، لا أجيب لها مطلبًا بالرفض مهما كان. فعلت لها ولأولادها كل ما يُفعل، دأبت على حمل أكلهم ومطعمهم من المطبخ لأقدمه لأولادها... صبيين، وبنت واحدة... لثلاثتهم.

كنت أقدمه لهم، وما ذقت منه لُقمة. ولمَ ذاك؟ ليصرفوا إليّ أنظارهم، ليولوني محبتهم، ليسمحوا لي بأن أعيش معهم، وآتيهم ليلًا فأرقد بجوارهم. ولكن ذلك لم يغن عني شيئًا. كانوا لا يرعون عن ضربي وقذعي، فلا أفتأ أعلل نفسي بانصلاح الحال. أعللها بأني سأنتقل للعيش معهم ذات ليلة، وأنعم بوالدين لي أيضًا... إلى أن كان يومًا والس فيه أبتي ودالس معتمد الدولة، إذ إنه قبل مدة كان قد اهتدى إلى مخبأ نقود معتمد الدولة ومسكوكاته. وفي الليل سرق كيسًا ملؤه مسكوكات ذهبية، وليرات إنجليزية تعدل في قيمتها عدة كرورات(10)، حتى ما إن شقشق الصباح، ولىّ مدبرًا وزوجه

وأولاده. فما خبرني بشيء وكأني لم أكن أنا الآخر ولدًا له، وخلفني في قبضة معتمد الدولة. أما معتمد الدولة فساعة أن فطن إلى ما صار، جاش جأشه، ونبش عنه في كل مكان ونبث، بيد أنه لم يجد له أثرًا. ساعتئذٍ صرف إليّ انتباهه، كان يعلم أني ابن لأبتي، لكنه لم يفكر في قرارة نفسه أن أبي لو كان يريدني قدر سَمِّ الخِيَاط، لاستمسك بيدي، وصحبني معه. لذا ومن أجل أن يسلل سخيمة قلبه، أمسك بي، وأسلمني إلى فراشيه(11) يضربونني بتمام قوتهم ويلحقون بي من صنوف الأذى ما شاء لهم أن يلحقوا. اشتد الخناق عليّ اشتدادًا، ثلاثة أيام ألقى عذابًا، حتى أدمت الجراح جسدي. ثم من بعد ذلك دسوني في كيس من الخيش، وألقوا عليّ حجرين أيضًا، ونبذوني في حوض القصر، حتى قرّ الكيس في قاع الحوض، فاختنقت، وإلى الموتى انتقلت.»

إلى هنا، لزم راضي صمتًا، ومثله لزمت. وما هي إلا أن قال بصوت مرتعش: «الآن برد قلبك؟ قم، وامض إلى حيث كنت، ثم هلم غدًا إلى القصر، وافعل ما أمرتك.»

فقلت: «حسنا، سأذهب، ولكن قل لي كيف انتهى بك المقام إلى هنا؟»

فقال راضي الذي بدا أنه بقص قصة حياته أمسى أهدأ: «كان أبي قد جاء إلى هنا، أو عندما هرب جاء إلى هنا. كان يعلم أنه إذا غادر طهران عاجلًا، فسوف يهتدي معتمد الدولة إلى طريقه، لذا فإنه كان جاء إلى هذا المكان. وهذا بيت والد زوجه الأولى أي والدتي، والدتي المتوفاة. لم يكن معتمد الدولة يعلم أن جدي أبا أمي كان غادر إلى

مدينة أردبيل منذ زمن. كان هذا المكان مهجورًا، فجاء أبي وزوجه وأولاده إلى هنا، ليتواروا عن الأنظار، ثم بعد بضعة أيام وقتما يخمد الضجيج ويخبو يخرجون، فينصرفون إلى البندر، أو إلى البحرين، أو إلى الهند، أو إلى حيث كان. لقد رأيت هذا من العالم الآخر وفهمت، ذلك عندما كنت عالقًا في الحوض وسط جماعة آخرين لمّا يصدقوا أنهم ميتون. لم أكن أعلو ولا أرسب، حيث استطعت رؤية كل شيء. وما كانت كل تلك الآلام التي جرعت من نكال فراشي معتمد الدولة بي لتؤذيني بقدر ما تأذيت إذ رأيت خسة أبتي ونذالته، وإذ ذاك أثخنت بالآلام بالكلية. عندما رأيته يجلس في هذا البيت برفقة زوجه وأولاده فرحين فاكهين تأججت في صدري النيران، حتى أضحى جسدي جمرة نار مشتعلة، وفاض قلبي حقدًا، حتى كدت أنفجر، وأميز من الغيظ.

أغمضت عيني، وعقدت يدي على صدري، وعضضت على شفتي، وجرعت غصتي، حتى صرخت من حشاشة قلبي، وصحت، وأجهشت في البكاء. ووسط البكاء، وودت لو أن تطول يداي أبتي أي مرة بعد، ووددت لو أنفذ إلى عالم الأحياء، أعود كيما أنتقم لنفسي. صرخت، وراح كل جسدي ينتفض، ارتعدت ودوى صراخي عاليًا. ثم شعرت بغتة أني أرتقي، شققت الحوض كما تُشق خرقة قماش ومنه ارتقيت. مضيت صُعدًا ومضيت، حتى فجأة انبثق رأسي من الحوض، فخرجت من الماء، ومضيت في إثر أبتي وزوجه وأولاده. حتى إذ جئت إلى هنا، كان الليل قد جن بظلامه، وباب الدار مواربًا. ولجت، ووددت أن أدرك أبتي، ووددت أن أسأله لمَ فعل بي ما فعل، ووددت... ها قد أبصرتهم، كانوا في هذا المكان قد قعدوا، في ذي

الغرفة. أبصرتهم من شق الباب. كانوا قد بسطوا المائدة ويتعشون، معًا، كانوا معًا مجتمعين. لا أدرى أي طرفة قد قيلت إذ كانوا يضحكون.»

ارتجف صوت راضي، واتقدت عيناه احمرارًا. نظر إليّ، وقال: «أمدرك أنت؟ كانوا مسرورين، مجتمعين معًا، يتعشون، أصلًا لم يكن يعنيهم أين كنت، وما وقع بي. اضطرمت داخلي النيران من رؤية كل أولاء الأخساء. قلت ما ضركم أيها الملاعين لو كنتم أفسحتم لي مطرحًا على مائدتكم تلك؟ أنا الذي كنت أفعل من أجلكم كل ما يُفعل، أنا الذي كنت خادكم، كنت مُسخرًا لقضاء حاجاتكم....»

ازداد صوت راضي ارتجافًا، حتى لقد استعصى عليه الكلام. كسف رأسه، ولزم صمتًا. كان قلبي يشفق عليه، فقلت يتوجب عليّ أن أتكلم، فسألته: «هل قلت لهم؟ هل قلت لهم هذا؟!»

رفع راضي رأسه هونًا، ونظر إليّ، ثم قال: «لا... ما قلت. كنت غاضبًا غضبًا أعجزني عن قول شيء. بدلًا من ذلك، توجهت صوب المطبخ، حيث كان موقدهم لا يزال مشتعلًا، تناولت جذوة من نار، كان زيت المصباح هناك أيضًا فأخذته وسكبته في مقدمة الغرفة، سكبته في الردهة، ثم أشعلت في البيت النيران، وخرجت.»

ثم سكت مرة ثانية، ونكس رأسه أشد من ذي قبل. وهز منكبيه، كان جسده ينتفض. ما كنت لأصدق أن يبكي، فسألته بداهة: «أوَتبكي؟!»

رفع رأسه، وأزلقني ببصره. لم يكن من أثر للدموع على وجهه. قال بنبرة استهجان: «ماذا؟ أوحسبت أن الموتى لا يبكون؟ الموتى لا

يألمون؟ كلا بل إنهم ليألمون مثلما أنهم يبكون. إن كانوا لا يذرفون الدموع، فأفئدتهم تنفطر... إنهم ليبكون بلا دموع، وإن البكاء بلا دموع لأشد إيلامًا... أتفهم عني ما أقول؟»

ولما لم أجد ما أقول، قلت: «نعم...»

فأردف راضي: «لا يهم... إنك لن تفهم الآن، أيان رمت البكاء، فألفيت عينك غير ذات دمع، تدرك حينها... تدرك أنك قد مت.»

لم أفهم كنه كلامه. ما كان جليًا هو أنه كان يعاني الأمرّين.

سألته: «لماذا لم ترجع؟ لماذا ترجع إلى...»

لم يدعني راضي أتم كلمتي، فأجاب قائلًا: «لم أستطع، ولن يكون بعد الآن ممكنًا. في تلك الليلة بعد إشعال النيران هنا، عدت إلى القصر، وأردت أن أنقلب إلى الحوض، وأنتقل إلى عالم الموتى، فأقفو أثر والدتي. كنت قد أنهيت مهمتي، ولم يعد لديّ هنا ما أفعله. ولكن فجأة عابثتني ذاكراتي بفعلتي التي فعلت، لقد أضرمت النيران في خمسة أنفار، فإذا نفذت إلى عالم الموتى عائدًا، سيحل بي عذاب عظيم. من قبل ذلك كنت آدميًا بلا ذنب قد قُتل، كنت مظلومًا أما الآن فالوضع بات مختلفًا، الآن في ذمتي دماء خمسة أنفار، لذا خشيت النزول، فيممت شطر سرداب القصر كإنسان طبيعي. فوقتما كنت في الحوض، كان بوسعي مشاهدة أشياء جمة، ومعرفة أشياء جمة، أما خارج الحوض، فلا فرق واحد بيني وبين الآخرين. تواريت في السرداب حتى الصباح. وإذ الصبح أسفر، خرجت، وجعلت البازار وجهتي فتسكعت هناك، وما هي إلا أن شعرت بالجوع. كنت ميتًا غير أني جائع، فسرقت رغيف خبز، والتقمته. كان بلا طعم، كنت

أجوع غير أني لا أدرك لمطعمي طعمًا قط. فلا حالتي حالة موتى، ولا حاستي حاسة أحياء. ولما جن الليل تقدمت إلى البيت الذي كنت أحرقت. كانت رائحة اللحم المحروق لا تزال منه تفوح، ولا يزال الدخان في بعض مطارحه يتصاعد. ولما لم يكن بالبيت من أحد، ولجته، فولجت تلك الغرفة التي كان أبي وزوجه وأولاده فيها قد قعدوا، وهناك انفجرت في البكاء، لم أذرف دموعًا، لكني بكيت من حشاشة قلبي، بكيت منتحبًا، حتى غالبني النوم. كان قد نما إلى مسامع الجيران نحيبي وبكائي، لكن أحدًا لم يكن ليجرؤ على المجيء. ولما أصبح الصباح، يممت شطر البازار، فجست خلاله، فسرقت الخبز، وسرقت النقود، وأصبح هذا دأبي كل يوم.

ذات مرة، بينا كنت أسرق مسروقي من أحد الدكاكين الصغيرة، أمسك بي صبي الدكان، نطحت وجهه برأسي، وجدعت أنفه. لم يكن وحده، بل كثِراً من الناس ضربت، كثِراً آذيت. كان هذا دأبي اليومي نهارًا، ثم أنقلب ليلًا إلى ذاك البيت المحروق، فأبكي بحرقة. كان الناس قد آمنوا بأن شبحًا يبكي في ذاك البيت ليلًا، فبعد ما أصاب أبتي وزوجه وأولاده، كان سماع نحيبي وبكائي يثير في نفوسهم رعبًا. كانوا كلهم يخافون ذاك البيت، فلم يقربه منهم أحد. كذا جدي لأمي الذي كان قد آب من أردبيل، عندما سمع بما صار، لم يتجاسر على أن يتقدم إليه.

وعلى تلكم الحال أصبح البيت ملكًا لي وقد انتزعته من قبضة أبتي. كنت أعود إلى ذاك المكان ليلًا ولا أفتأ أبكي، ثم وكأنما أنا جالس إلى مائدة أبي، أتربع على الأرض، وأتظاهر بتناول الطعام. مضت لي عدة أشهر على تلك الحال، حتى سمعت أن معتمد الدولة

فارق القصر، وجاء نُويان خان ليسكنه بدلًا، وفُجاءة ملت بهواي إلى أن أصير إلى هناك، إذ رمت انسلاخًا من حياة التشرد. قصدت القصر الذي كان كل رجاله تبدلوا. زعمت أني ابن عامل سابق في ذاك القصر، وأني خبير بكل موضع فيه كظهر كفي، وقلت ذروني أجيء إلى هنا لأعمل، ودبروا لي مطرحًا لأرقد، ولقمة أقيم بها لبي، ولا يلزمني ما سوى ذلك. فأجازوا لي الدخول، وصرت من رجال قصر نويان خان. لم يعرف أحد من أكون، من أين انقلبت، وإلا لما أجازوا لي مكوثًا. لقد توجست خيفة يوم خرج صاحبك من الحوض، خلت أنه يعلم أني خرجت من الحوض مثله، وسوف يخبر الجميع بأمري، لكن وكأن طالعي كان مقبلًا، ولمّا يتبين الأمر.»

بدا لي أن راضيًا قد تخفف، هذا ما تبينته من قسمات وجهه، ومن كتفيه اللتين لم تعودا تهتزان. عندما أنهي حديثه، نظر فيّ محدقًا، فقال: «ويحك أيها الولد القروي إن كنت عليّ شفيقًا.»

فقلت مرتبكًا: «كلا... كلا... كلا!»

فقال راضي: «إني لأدهسن مئة نفر مثلك تحت رجلي، من تكون أنت أيها البائس المائث كي تشفق عليّ؟! لقد شرعت في أمر، وإني به إلى أن يُقضى قمن. ليس عليك إلا أن تطيع أمري، فتتبعه.»

فقلت مذعورًا: «ماذا؟ أتبع ماذا؟»

فقال راضي: «أنسيت؟ قلت إنك ستنفذ إلى عالم الموتى، فتدرك أبتي و....»

قاطعته، فقلت: «آها... أجل... أعرف، ولكن ماذا إن لم يخبرني

بمكان النقود؟»

فقال راضي: «ما عاد الأمر منوطًا بي، يلزمك أن تعرف أنت وصاحبك أين تكون، وإن لم تستطع معرفة، فيا حبذا لو بقيت هناك، لأنك لو عدت بخفي حنين، فإني لاحقك بصاحبك إلى آخر الأبد.»

الفصل العاشر

مثل المرة التي قبل طوينا المسافة بالعربة. كنت داخل الكيس مستلقيًا على ظهر العربة، وأتلوى ألمًا. كانوا ألقوا عليّ بضع أكياس أخرى ما قدرت لها ثقلًا، وحسبي من وطأة كهذي أنها كانت تؤلم جسدي المكدود من صنوف الضرب. عدا أني لم أجرؤ على أن أزفر بالأنين، لأنهم سابقوني متوعدين بالقتل فور ما انبجس مني صوت. أصبحت أعرف من الأصوات التي حولي أن أحد الرجلين اللذين كانا قد خطفاني أول مرة يجلس في مقدمة العربة ويقودها، أما الآخر فيجلس في مؤخرة العربة مع الرجل الأملس الذي كنت قد علمت أن اسمه فرُوخ، وأحيانًا ما كان يكتفي بأن يحدثه بجمل إلى حد ما قِصار، ما فقهت منها كلمة. وفي موضع ما، كأنما قطع العسعس الطريق على العربة، إذ توقفت العربة عن المسير، وسمعت صوت غريبين يتحدثان إلى الرجل الأملس. تحركت الأكياس الملقاة عليّ مرة بعد مرة، ثم من بعدئذٍ واصلت العربة طريقها. جزنا من الطريق شأوًا، حتى توقفت بنا العربة أخيرًا. فسمعت حينها نقرات على الباب.

ثم تناهى إلى مسمعي صرير باب يُفتح. أنزلوني من العربة، وساقوني معهم إلى داخل قصر، فهمت بعدًا أنه ذاك القصر الذي كانوا قد تكلموا عنه، قصر الرجل الذي يُدعى نُويان خان. قطعت مسافة طويلة إلي حد ما داخل الكيس وإني على كتف أحد الرجلين محمول. وبينا كنا ماضين، سمعت تردد أنفاسهما، وأنشأت صيحة مفجعة تصك أذني عن بُعدٍ، وكأن أحدًا في ذاك القصر يُعذّب. راح

ذاك الصوت المفطر القلب يرج قلبي، ويربي في جوانحي الخوف ضعفًا مما سألاقي. لم يمض من الوقت شيء يذكر، حتى فتحا باب الغرفة، وخلفاني على أرضيتها الباردة الصلدة. أوصد الباب ثانية، وقد تغشاني النعاس في سكون تلك الغرفة، وضيق ذاك الكيس من فرط ما ألمّ بي من نصب وكلوم.

لا أدري كم لبثت نائمًا، حتى صحوت على صرير الباب وهو يُفتح. حلا وثاق الكيس، وأخرجاني. كان الجو مضيئًا، وأنشأ نور الشمس المنسرب من شق الباب يسطع على عيني. كان جفناي مطبقين، إذ أدركت للتو أن انتفاخًا تكون حول عيني يؤلمني. فتحت إحدى عيني بالكاد، فظلت الدموع تجري منها مدرارًا. أقامني الرجلان نفسهما اللذان كانا قد خطفاني ليلة أمس، وساقاني إلى خارج الغرفة. كان صخب وضجيج جمع من الصبية يدوي في فضاء القصر. وفي فناء القصر الوسيع، مررنا بحوض كبير كانت مياهه دكنة آسنة، ومضينا حتى إذ بلغنا مرقى مراقيه رفيعة تعرج إلى أعلى أسندني أحد الرجلين، وأعانني أرتقيه. ثم إناً ولجنا في إيوان على امتداده تتوزع عدة غرف، كانت الغرف مُغلقة الأبواب، ولكن من خلفها كان بالإمكان سماع أصوات أطفال يتكالمون، أو يتصارخون بين الحين والحين. مررنا ببضع غرف، حتى في الختام وقفنا بباب مغلق. فتح أحد الرجلين باب الغرفة، وزجّ بي فيها قائلًا: «ادخل.»

عندما دخلت الغرفة، كان أول ما وقعت عليه عيني هو الرجل الأملس بشخصه وقبائه الأسود، وقبعته الصوف وهو واقف قبالتي مباشرة. وقفت بصعوبة على رجليّ المرتعشتين الواهنتين، وألقيت إلى أوامره سمعي. ألقى الرجل الأملس نظرة خاطفة إلى وجهي،

ثم اتخذ جانبًا، وبينما كان يشير برأسه إلى جانب من الغرفة، قال: «تقدم، اذهب لتعاينه.»

فتحت كلتا عينيّ بصعوبة، وفي الغرفة التي تسرب إليها بعض ظلام لمحت جهة الجدار سريرًا، يقف إلى جواره رجل يرتدى عباءة بنية اللون، ويقرأ شيئًا من كُتيب كان ممسكًا به. كرر عليّ الرجل الأملس قوله: «تقدم... اذهب لتعاينه.»

تقدمت بضع خطوات، وآنئذٍ رأيت على السرير شابًا كانت يداه موثوقتين إلى جانبي السرير. وقفت قليلًا أنظره عن بُعد، فما هممت لأخطو إليه خطوة أخرى، حتى أطلق الشاب نعرة نكراء يتصدع منها الكبد، سمرتني في مكاني تسميرًا. ولشدة ما بي من خوف وهيجاء نفدت طاقتي، فجثوت على الأرض لا حول لي ولا قوة. قال الرجل الأملس من دوني: «ليهال على رأسك التراب، لا تخف، قم، قم واذهب لرؤيته، لتنظر ما قدمت يداك.»

قمت وإني لا أملك حيلة، وتقدمت بضع خطوات أُخر. كان الرجل الطريح الفراش ذا شارب طويل متهدل، مُعرقًا وجهه مُندى، وطافحًا بالجروح ولُطخ الدماء. كان يلهث، ويزيغ بصره على غير هدى إلى كل جهة. وإلى جانب السرير، فجأة رماني بنظره ذاك الرجل الذي كانت عليه عباءة، وعلى رأسه طاقية بنية، وقد نبت في ذقنه عثنون(12) أبيض، ثم عاد يدس رأسه في كتابه، وبصوت متذبذب بين علو وانخفاض شرع في تلاوة تعاويذ مطلسمة، مبهمة المغزى. كان حينئذٍ يتلوها وفي إحدى يديه سكين طويلة يديريها حول رأس المريض، وأحيانًا ما كان يثبت شفرتها على جبهته. تقدمت زلفى، ثم

توقفت. وما هي إلا أن تقدم الرجل الأملس أيضًا، فضرب على ظهر الرجل ذي العباءة، وقال: «كفاك، امض لشأنك.»

توقف الرجل ذو العباءة عن إلقاء تعاويذه، وقال: «سوف انتهي الآن، فإني إذا شرّطت جبهته مرة بعد، أُخرج منه الجني.»

قال الرجل الأملس غير آبه بكلامه: «لا حاجة لذلك، لو كنت تقدر على فعل شيئًا، لفعلته من قبل.»

أنزل الراقي كتابه متأففًا، وقال: «ولكن الأمر عاد بنفع، لقد كشف الجني عن نفسه.»

فقال الرجل الأملس: «اذهب لئلا أجعلهم يدحرونك.»

هذه المرة مشى الراقي مغتاظًا إلى جانب السرير، فما ابتعد بضع خطوات، حتى قال من وراء: «كم ستكون أجرة العبد لله؟!»

فقال الرجل الأملس دون أن يلتفت إليه: «بل أحمد ربك لأني لم أجعلهم يجدعون أذنيك، اذهب وافرش بساط دَجلك في مكان آخر.
»

ثم التفت إليّ قائلًا: «لم توقفت؟ اذهب إليه، تفحصه. »

عاودت السير قُدمًا، حتى وقفت مباشرة إلى جانب السرير. كان الرجل ينظر إليّ بعينين حمراوين مُدمتين، ويلهث لُهاثًا. وكان المكان من حوله مكتظًا بأقمشة ملونة، وقد عُلقت بملابسه وسريره أقفال صغيرة وكبيرة، وخرزات لطرد الأرواح والجن، ودرء العين اللامة. كانت يداه وقدماه قد رُبطت جميعًا إلى جوانب السرير الأربع بحبل، فما عاد يستطيع حراكًا. ولحظة أن وصلت، صاح صيحة أخرى. وإني

وإن كنت اقشعررت من دوي صيحته، فإني خلافًا للمرة الفائتة، ملكت زمام نفسي، ووقفت في مكاني. قال الرجل الأملس: «ليلة ألقيت تلك المفرقعات من شاهق في قلب الخندق، كان ذا هناك، إذ جاء ليتسلم الأطفال، ويأخذهم معه. إنه ابن شقيق نُويان خان،... تيمور. لقد قدم من عشق آباد، ليلقى ما لقى. وعلى خلاف الآخرين الذين كانوا يسددون إلى غيرهم الضربات، قاتل هو نفسه، فأصاب رأسه بالدشنة. ومن حسن الطالع أن اثنين من رجالات نُويان خان كانا خارج الخندق جاءاه، فأخرجاه منه. مذ تلك الليلة لم يبرأ، وقد حُم جسده، فلا يستطيع الكلام، كل ما يفعله هو أن يصرخ. فإذا حُل وثاق يده، يهم ليقتل نفسه.»

فغرت بغسر فاهي الجاف الذي أجد فيه مرارة، وقلت: «إن ما استعملت تلك الليلة كان مسحوق الخَدر، مسحوق الخدر غير ساري الأثر، ينتهي أثره بعد نصف يوم على الأكثر.»

فقال الرجل الأملس: «فلم مكث على حاله تلك؟»

فقلت: «لا أعلم.»

وهنا عاجلني الرجل بصفعة على مؤخرة عنقي، وقال: « لقد جئت شيئًا إمرًا بقولك أنك لا تعلم، يجب أن تعلم. ألم تجلب عليه هذه الغائلة؟ قل لي لم هو على هاته الحال؟ كيف السبيل ليبرأ؟»

فقلت: «وأيمن الله لا أعرف، ربما بأثر من شيء آخر تردت حاله على هذا النحو، إن مسحوق الخدر يزول أثره سريعًا.»

فقال الرجل الأملس: «حسنًا، ها قد عدنا إلى حيث بدأنا.»

ثم استدار، وقال لأحد الرجال الذين كانوا خلفه: «خذه خارجًا، واجهز عليه.»

أسرع أحد الرجال متقدمًا، وأمسك بذراعي، واجتذبني، ليأخذني معه. فقلت من ساعتي: «مهلًا... عليّ أن أعاينه، نظفوا وجهه أتفحصه، فأرى ما خطبه.»

أومأ الرجل الأملس إلى الرجل الآخر برأسه. تقدم الرجل، فتناول الطست الأزرق الذي كان إلى جانب السرير، وبمنديل كان فيه أنشأ يمسح عن وجه الشاب الموحش لُطخ الدماء، ثم ما لبث أن قال: « لقد نُظف.»

ضرب الرجل الأملس على ظهر كتفي، وقال: «الآن عاينه، لترى ما دهاه.»

تقدمت، ووضعت يدي على جبهة المريض، كانت حرارته مرتفعة. تأملت عينيه، كانت حالة العينين تشير إلى نوع من الغيبة والخدر، وقد يحدث ذلك نتيجة تناول أو استنشاق عقار ما. تفحصت ما تحت جفنيه، فكانت البقع الحمراء التي رأيت في هذا الموضع تنبئ عن أن تشخيصي صحيح. أفغرت فاه بصعوبة، ورأيت لسانه الذي كان قد ارتكمت عليه طبقة بيضاء. ومن بعد ذلك التفت إلى الرجل الأملس، فقلت: «غير بعيد أن يكون ما قلته أنت صحيحًا.»

قال: «بل إن ما قلته لصحيح، قل لي ماذا ستفعل ليصح من مرضه.»

فقلت: «لا أعلم، يجب أن أفكر.»

فقال: «لقد جئت شيئًا فريًا بقولك أنك لا تعلم، إما أن تعلم أو تموت، إن كنت ترجو البقاء حيًا، فعليك أن تعلم.»

فقلت: «حتى هذي الساعة لم أصنع ترياقًا لمسحوق الخدر، لا بد أن أذهب لأطالع في الكتب، يجب أن أفكر لأرى هل بوسعي أن أصنع ترياقًا يبطل أثر المسحوق. لا بُدّ من أن ذا الرجل يفرق عن الآخرين، حتى جرى أثر المسحوق عليه إلى ذا الحد.»

فقال الرجل الأملس: «أتعني أنك تريد أن تغاد هذا المكان إلى سواه؟»

فقلت: «نعم، يجب أن أذهب إلى بيتي، هناك كتبي وأدواتي، يجب أن أعمل هناك، يجب أن أغلي غير نوع من الأعشاب، ثم أجري عملية التقطير، إن الأمر ليس بيسير.»

قال: «هل تعلم أنه لم يفلت حتى الآن أحد من قبضة تُويان خان؟»

فقلت: «لا أقصد فراراً، كل ما في الأمر أني بحاجة إلى الذهاب إلى مكان، لأتمكن من العمل.»

فقال فزُوخ: «كم من الوقت يلزمك؟»

فقلت: «لا أعلم...»

فقاطعني، وقال: «لا تقل لا أعلم... تُويان خان يريد إجابة واضحة، يجب أن أخبره متى على وجه التحديد، قل لي متى تنتهي؟»

قلت: «ربما بعد ثلاثة أيام، ربما أكثر.»

فقال: «ثلاثة أيام، لا أكثر... ثم بعد ثلاثة أيام يجب أن يتلقى

تيمور خان العلاج، حتى تنهض به همته إلى أخذ الأطفال معه، وإلا ينتهى أمرك أنت وزوجك وولدك.»

لم أجد ردًا، فآثرت الصمت، ونكست رأسي. قال الرجل الأملس: «لتسرعن في الذهاب... لا يمضين ثلاثة أيام إلا وألفيتك هنا تداويه.»

ثم أشار برأسه إلى الرجلين، فتقدما وأمسكا بذراعيّ عن اليمين وعن الشمال، وساقاني إلى خارج الغرفة، كان صوت الصبية الذين يقرأون خطة التصميم قد دوى في آفاق الإيوان. كان لا يخفى أن الأطفال الذين يقطنون في القصر، ينسجون السجاد. سرنا على طول الإيوان، ووصلنا إلى عتبة المرقى الذي كان يفضي إلى الفناء. كان قبالتنا صبي صغير ربما يبلغ ست سنوات متشبث بالسياج وإنه يرتقي المرقى. كان قد بدا عليه الاندهاش لرؤية هيئة كمثل هيئتي الكليمة المكدودة تلك، والرجلين الذين كانا عن جانبي. على هذا راح يحملق إلينا وإنه يرتقي على مهل. تأملته، إذ كان نحيفًا كالعود، ورأسه الأجرد كان يبدو أكبر من الحجم الطبيعي، وعيناه الشاحبتان من فرط ما عانى من الجوع كانتا قد غارتا في تجويفين عظميين مدورين، ووجنتاه بارزتين، وشفتاه شاحبتين قد غيضت دماؤهما. كان يلبس قميصًا متسخًا ممزقًا فضفاضًا يصل إلى أسفل ركبتيه. لما أن رآنا وقف إلى جنب السياج، وأفسح لنا الطريق، فمررنا بجانبه. فما هبطنا بضعة مراقي، حتى استدرت، ونظرت إليه. كان هو الآخر مستندًا إلى السياج، ويلقي إليّ النظر.

الفصل الحادي عشر

وكأنما كان كل شيء حُلمًا، حُلمًا مُفزعًا. عندما فتحت عينيّ وقد انكشف الوجود منوّرًا، توهمت أن كل ما شهدته ليلة أمس لا يعدو كونه حلمًا مخوفًا، لكن هيهات! كان حقيقة. كان صوت راضي وهو يتهددني بأنه سيزهق روحي إن لم أذعن لمطلبه لا يزال يتردد في أذني. كانت رائحة تراب ذياك البيت المحروق ورماده لا تزال نافذة في أنفي، ومقلتا راضي الحمراوان الجاحظتان لا تزالان تمثلان أمام ناظري. ليلة أمس كان راضي قد طرأ عليّ، فأخذني معه إلى مختلاه الليلي، ثم ما لبث أن ردني إلى المدرسة التي كان بابها نصف مفتوح لا يزال، وخلا تردد أنفاس إبراهيم وأكبر العالية ما كان يتردد بين جنباتها صوت.

لبثت في مطرحي قليلًا بعينين مغلقتين أفكر فيما قد لاقيت. وبينما كنت في شأني ذاك، سمعت بيوك أغا من أمام الباب يناديني: «انهض يا رضا، انهض لقد غدونا ظهرًا، لقد نمت اليوم مليّا.»

فتحت عيني، فتنبهت من فوري أن أصغر وإبراهيم ليسا بجانبي، كذلك فراشاهما. قمت من حيني، فلملمت فراشي، وتوجهت إلى الفناء، فغسلت وجهي بماء الحوض. ثم ذهبت إلى بيوك أغا في المطبخ. قال بيوك أغا: «عجبًا لثقل نومك يا صبي! كم من مرة دعوتك وما استيقظت! لا أدري ما حدث حتى فتحت عينيك في الأخيرة.»

وطلب مني أن أرجع إلى المطبخ بعد تناول وجبة إفطاري من الخبز والجبن، لأعينه في بعض الأمور. ففي ذاك اليوم كان سيأتي

آصف علي كبير الطهاة، ليتولى أمر مطبخ المدرسة، فيبدأ طلاب العلم بتناول وجباتهم المدرسية بحلول اليوم الخامس عشر من شهر شعبان. كان بيوك أغا قد أرسل أصغر وإبراهيم إلى البازار لشراء بعض لوازم المطبخ وجلبها. وقد عادا معًا إبان الظهيرة أصفار الأيدي، إذ لم تكن الأوضاع في المدينة تبشر بعد لتوفير ما يلزم من غذاء يُطهى لوفد من الطلاب. فتقرر أن يذهب بعد الظهيرة بيوك أغا إلى الميرزا حسن خان ليذهبا معًا إلى البازار، علهما بمزيد من السعي، وإكرامًا لحضور الميرزا حسن خان بذاته، يتمكنا من إيجاد ما يشبع أجواف طلاب المدرسة.

ذلك اليوم، كنت قد أعنت بيوك أغا على القيام ببعض المهام في المدرسة إلى ما بعد الظهيرة. وعندما اعتزم الذهاب إلى الميرزا بعد الظهيرة، استأذنت أن أذهب إلى دار التلغراف فأزور نادر ميرزا، أذن بيوك أغا لي على أن أعود مع حلول المغيب. قال إني أمانة أودعها والديّ لديهم، ولا يجوز لي أصلًا أن أبقى في الخارج والجو مظلم. كذا وعدته وعدًا مؤكدًا أن أكون في المدرسة قبل غروب الشمس. ثم سرت متجهًا إلى دار التلغراف.

لما أن غادرت المدرسة، عرض لي نسيم الخريف مرة بعد. كان منظر أوراق أشجار الدلب والتوت اليابسة الملونة التي قد افترشت أرضية الأزقة والشوارع، واحمرار الرمان الفج المتدلي من أفانين الاشجار وهو يبين من فوق أسوار الديار، كان إلى هذا الحد بديعًا فما من عين تشبع من تملّي بهاء مشهده ورونقه. قلت يا لهف نفسي لو أن الدهر لم يصبني بالرزايا. لوما وعيد راضي، لكنت الآن سائرًا كسائر الناس بين هشيم الشجر لا خوف ولا وجل، وأهش لسماع

صوت تهشمه تحت قدمي وأستلذ. ثم تذكرت أني ما كنت اليوم لأنعم بقرب الميرزا لولا حوادث الدهر تلك. ويكأن المحن أخذت بي إلى خير مأوى. والأفكار تنازعني شحذت خطوي إلى دار التلغراف. وفي أثناء الطريق بعد شارع لاله زار بشيء يسير، اجتذب انتباهي ملأ من الناس إزاء جدار عالٍ. من باب الفضول تقدمت. ولما كنت ضئيل البنية شققت طريقي بين الجمع المحتشد، فأبصرت من الصف الأمامي رجلًا يكتسي بقباء مُبرقش مطرز، ويعتمر قبعة عالية لبدية كان قد وقف أمام لوحة كبيرة من قماش سميك منسدلة، وكان ممسكًا بعصا طويلة يشير بها إلى اللوحة، ويتحدث إلى الناس.

كانت رؤية ذاك الرجل بحلته المهيبة المُبرقشة وبجانبه لوحة من قماش أمرًا مبهجًا. كنت منغمسًا في تأمله و تأمل لوحته الزاخرة بصور لرجال بألبسة عِجاب شاهرين سيوفهم، ممطين ظهور الخيل وإنهم يتبارزون. في جانب من اللوحة، كان ثمة رجل ذو لحية مرسلة ذات شعبتين قد رفع حيوانًا ضخمًا بكلتا بيديه، ويهم ليطرحه أرضًا. في جانب آخر كان رجل قوي البنية يتقاتل مع امرأة ارتدت لباسًا رجاليًا، وقد انسابت خصال شعرها الطويل من تحت القلنسوة. وفي جانب آخر امرأة كانت تجلس إلى بئر كبيرة كانت فوهتها قد شدت بحجر، وتبكي. أشار الرجل ذو الثوب الملون بعصاه إلى صورة البئر، وجعل يتحدث عن رجل كان قد علق في غيابة بئر بعيدة الغور بذنب خطيئة اقترفها، فلا يستطيع إلى الخروج منها سبيلًا، لأن فوهة البئر مسدودة بحجر، ويتحدث أيضًا عن امرأة تعشق ذاك الرجل الحبيس في البئر، لكنها أوهن قوة من أن تزيح الحجر عن فوهته، فتجلس في ذاك المكان منذ الصباح حتى الليل

ولا تفتأ باكية.

جعل الناس من الخلف يتدافعون ليتقدموا، وكان تزاحمهم يثقل عليّ. لو أني كنت متلذذًا برؤية الصور على اللوحة القماش وسماع صوت الحكاء. كنت فنيت في سحر كلامه ذهولًا، وتحرّق قلبي على الرجل العالق في ظلمة الجُب. كم كنت أتوق لمعرفة إلام سيفضي أمره، غير أني تذكرت لأي غاية خرجت من المدرسة، ومتى يتوجب أن أعود. فمرقت من بين الحشود رُغمًا، وتقدمت في طريقي مرة أخرى إلى دار التلغراف.

وجريًا على العادة كان يقف أمام مبنى دار التلغراف جمع من الناس يصطفون خلف بعضهم، وعلى السلالم القليلة التي تُفضي إلى باب المبنى كان الرئيس قد جلس على مقعد خشبي بلا ظهر، ويسمح لهم بالدخول واحدًا واحدًا. عبرت الشارع، وتوجهت مباشرة إلى باب دار التلغراف الخشبي. ومذ أول درجة سلم، لمست ثقل نظرات الرئيس لي. وإني ارتقي آخر درجة رفعت رأسي ،وألقيت على الرئيس السلام. كان وجه الرئيس مُتوردًا، كما لو أنه قد قدم توًا من حمام عمومي. وكان قد أعلى قبعة القائد التي يعتمر، فانبثق طرف ذؤابته السوداء اللون الملساء. كان شاربه المبروم يلمع، وتبدو شفتاه من تحت شاربه حمراوين أكثر مما كانتا عليه. ودون أن يجيب سلامي، قال: «إلى أين؟!»

أجبته: «سأذهب إلى الميرزا، أريد أن ألقاه.»

ضرب الرجل بيده على صدري، وقال: «أوهكذا؟ أوتظنها خِلط مِلط؟!»

فقلت: «أنا رضا، أنا الذي كنت هنا قبل بضعة أيام مع الميرزا نادر. أشار الرئيس برأسه إلى آخر الصف، وقال: «فلتكن ما تكون، اذهب إلى آخر الصف، وقف.»

فقلت: «وما شأني وهؤلاء؟! أريد أن ألقى الميرزا نادر، ناظم دار التلغراف.»

أطبق الرئيس جفنيه، وقال: «آخر الصف... كل شيء هنا بنظام وحساب.»

كنت مدرك أني إذما انتظمت في الصف، أتأخر، ولن يعود في مقدوري الرجوع إلى المدرسة قبل غروب الشمس، فقلت: « أناشدك بالله سيدي الرئيس، دعني أذهب، أريده في حاجة.»

وعند سماع الرئيس هذا مني، فتح جفنيه، وسألني: «أولست أنت الذي كنت قد جئت مع الميرزا هنا قبل أيام؟!»

فقلت متلهفًا: «أجل، أجل إنه أنا!»

فقال: «ما اسمك؟»

فقلت: «رضا.»

فقال: «أجل، رضا، بالفعل كان اسمك رضا.»

فقلت: «الآن ستدعني أدخل؟!»

رفع رأسه، فزمجر زمجرة هادرة، ثم قال: «لا... آخر الصف، لا لشيء إلا... متى أمكن لكل واحد الذهاب والمجيء وفق هواه، يعم هرج ومرج.»

وددت لو أقول شيئًا آخر، حين زجرني الرئيس نحو منتهى السلم. تراجعت مرغمًا. هبطت الدرج، ومررت مقابل بعض ممن كانوا قد انتظموا في الصف، فوقفت في منتهاه. وفي أثناء مروري، اتخذني نفرين أو ثلاثًا ممن كانوا في الصف سخرية وهزوًا، إذ سعيت أن أتحاذق، فخاب مسعاي. الآن من موقعي بالآخر حيثما كنت وقفت كان يعسر عليّ رؤية أول الصف والرئيس ومقعده، فقلقت، واضطرب قلبي، فجعلت أتلكأ، وأدور حول نفسي هكذا، حتى فجأة سمعت الرئيس يهتف: «ذاك الذي في آخر الصف... ليتقدم ذاك الذي يقف آخر الصف.»

استدرت، ونظرت خلفي، فلم يكن هنالك أحد. مشيت بسرعة، فمررت بالصف، ومن منتهى الدرج، قلت للرئيس: «أنا؟!»

فقال الرئيس: «هل أنت آخر نفر؟»

فقلت: «نعم.»

فقال: «اصعد.»

درجت السلم، ووقفت أمامه. وكأنما كان يراني لأول مرة، قلب فيّ طرفه من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، ثم ما لبث أن قال: «ماذا تريد؟»

قلت: «أريد أن ألقى الميرزا نادر.»

فقال: «الميرزا نادر من؟»

فقلت: «ناظم دار التلغراف.»

فقال: «ألا تريد أن تبرق برقية؟»

فقلت: « لا أريد، أريد أن ألقاه هو بنفسه.»

فتح بيده مصراع الباب الخشبي إلى منتصفه، وقال: «لا تتأخر.»

فقلت: «حسنًا.»

وسرعان ما عبرت من شق الباب الخشبي. كانت أجواء دار التلغراف محببة إلى النفس لطيفة بتلك الجدران الخشبية والأكسية المخمل بلونها القرمزي، وصوت الطقطقات تتردد داخلها. كنت أعرف غرفة نادر، فمررت بعدة أبوب مغلقة، حتى وصلت إلى غرفته. فتحت الباب، كان نادر يجلس إلى طاولته منكفئًا على صحيفة كبيرة يتأملها. عندما فتحت الباب، رفع رأسه، فأبصرني. ألقيت عليه التحية، فأجابني: «مرحبًا، أأنت رضا؟»

ثم أردف: «هل تعلم أنه قبل أن تدخل أي غرفة، ينبغي أن تطرق بابها أولًا؟»

ثم رفع يده، وحرك كفه المقبوضة غير مرة أمامًا، ثم قال: «هكذا، طق طق طق... ثم إذ يُقال ادخل، تدخل.»

فقلت: «حسنًا.»

ثم كفأ رأسه مرة ثانية على الورقة، وقال: «ادخل... هيا... أغلق الباب.»

دخلت، وأغلقت الباب ورائي. قال نادر وإنه ينظر إلى الورقة على الطاولة: «هيا تقدم، تعال انظر.»

تقدمت، حتى وقفت أمام الطاولة. أشار نادر إلى الورقة على الطاولة، وقال: «هذا مخطط، الميرزا رضا المهندس، مخطط إنشاء المنطاد.»

ثم رفع رأسه، ورمقني، وقال: «أتذكر؟ كنت هنا عندما جيء به إليّ.»

فقلت: «أجل، أذكر.»

أشار بيده إلى الخطوط المتعرجة على الورقة، وقال: «سوف أجري عليه بعض التغيير. سوف أقلص أبعاده. لقد تشاورت مع الميرزا حبيب الأستاذ في دار الفنون، وقال إن ذلك في الإمكان. فما صممه الميرزا رضا يسع أربعة أنفار ليصعدوا فيه، ولكنه لما كان كبيرًا وثقيلًا، كذلك فإن خطر سقوطه يزداد. أما أنا فأريد أن أنشيء منطادًا أصغر حجمًا وأخف حملًا، منطادًا لا يسع سواي أصعد فيه وحدي. ولقد وافقني الميرزا حبيب الرأي أيضًا، وقال إذا أردت أن تحلق في الجو عاليًا، حقيق عليك أن تتخفف. وها أنا ذا عاكف على تصغير حجمه، ليعرج بي وحدي صُعدًا.»

ثم مرر يده فوق المخطط، وقال متقدًا حماسة: «لقد جعلت حجم السلة صغيرًا نسبيًا، كما أني سأصغر قبة الهواء(13). فإذا ما صغر حجمها، تختلف خامتها أيضًا.»

ثم توقف عن الكلام، ورفع رأسه، وقال: «كيف خرجت من المدرسة؟ هل أذن لك؟»

فقلت: «نعم.»

فقال: «رائع، كيف حال الميرزا حسن خان؟»

فقلت: «لم أره أكثر من مرتين... بخير.»

كفأ رأسه على المخطط، وقال: «نهار أمس أردت أن آتي لرؤيتك، لرؤيتك أنت والميرزا إن تيسر ذاك أيضًا، ولكني شغلت، فلم أستطع. إن العمل في دار التلغراف مضن. كلما تخففت من مشاغلي قليلًا، أمضي إلى ذا؛ لا بد لي من إتمامه ليُصنع. هذا ما صرت عليه ليل نهار. لا أفكر في شيء عدا أن أطير به وأعلو. سوف أشرع في صنعه هذه الأيام. تحدثت إلى أحد أساتذة النجارة، كي يصنع سلة المنطاد من خشب متين...»

ثم أحجم عن تتمة حديثه مرة ثانية، فقال: «هل تطعم جيدًا؟... أيعوزك مال أو شيء؟!»

فقلت: «لا.»

فقال: «لكم أود زيارتك، أنت والميرزا حسن خان أيضًا، ولكني غارق في هذا منتهى الغرق. فور أن تنتهي السلة، سأمضي إلى قبة الهواء. وبمشورة من الميرزا حبيب، فإني أريد أن استعمل الكتان الثخين. سوف أغلف الكتان بطبقة من شمع العسل، حتى تُسد جميع فراغاته، فلا ينفذ منه الهواء الساخن خارجًا. ولكن نوع شمع العسل مهم أيضًا، فينبغي ألا ينصهر بالهواء الساخن فيتفتت، وحينئذٍ أصير إلى ما صار بذاك الهندي.»

ثم نظر إليّ مرة أخرى، وقال: «لمَ لا تجلس، اجلس، اجلس سوف أجلب لك الشاي.»

تولد داخلي إحساس أن نادرًا كان مشغولًا على نحو يفوق رغبتي في أن أطلعه على جديد أمري. كان عليّ أن أنبذ سابق أفكاري جميعًا، وأجد حلًا آخر. فقلت: «ليس بعد، عليّ أن أمضي، يحتم عليّ أن أعود قبل أن يداهم الغروب.»

فقال نادر: «بهذي السرعة؟ لكم من أمور كنت أريد أن أخبرك.»

فقلت: «سوف آتيك مرة ثانية، يومًا آخر.»

فقال نادر: «أجل، طبعًا ائتنى.»

ودعته، وقبل أن أخرج من الغرفة، دعاني نادر من وراء. استدرت، وقلت: «أجل.»

فقال: «أيما عرضت لك حاجة، هَلُمَّ إليّ في الحال، حسنًا؟»

فقلت: «حسنًا.»

وغادرت الغرفة.

مضيت طريقي من دار التلغراف إلى المدرسة جاريًا، إذ كانت الشمس آخذة في المغيب، وأمسيت أخشى الوصول متأخرًا، كذلك ما كنت أريد أن أبدو في نظر بيوك أغا حانثًا بوعدي، فيشكوني إلى الميرزا، كما كنت أخشى أن تنزل بي غائلة في ظلمة الجو، أو أقع في شرك رجال نويان خان أو صِبية أيّاز. كان اصفرار الشمس يصير إلى حمرة عندما وقفت أمام باب المدرسة. ولما أن دنوت، سكن جأشي. أبطأت قدميّ، ومضيت إلى المدرسة متصبب العرق لاهث الأنفاس. وفي عين الحال وقعت عيني على امرئ يقف على سطح المدرسة المُقبب مواجهًا للشمس التي كانت في أفول. وفي ضوء الشمس،

لم ألمح منه شيئًا غير ظله الأسود. لم يكن كبيرًا، كان صبيًا صغيرًا يماثلني على وجه التقريب. لم يكن يتوافق مع هيئته من الخلف أن يكون أصغر أو إبراهيم، وما كان من المقرر أن يزاد إلينا طالب جديد. وقفت على بعد خطوات قليلة من سور المدرسة، ونظرت إليه. كان بيوك أغا يقول أن هناك كثرًا من الأعداء يتربصون بالمدرسة، وحقيق علينا أن نأخذ من الغرباء الذين يقتربون من المدرسة حذرنا. تملكني فضول لأعرف من يكون، وما يفعل. وكما لو كان قد شعر بسهام نظراتي من الخلف، استدار، وصوب إليّ النظر. ساعتئذٍ هبت ريح صرّ طوقت أطرافي، فاقشعر بدني المتعرق. قلت بأعلى صوت: «من أنت؟ وما تفعل هناك بالأعلى؟!»

لم يجب الصبي الصغير، بل رنا إليّ في صمت. ارتقبت هنيهات ليجيب. فلما لم يجب، قلت: «ألم يُجعل لك لسان؟!»

ها هو ذا لم يجبني ثانية، فتوجست من سكوته خيفة. مشيت تجاه باب المدرسة الموارب، فلم أصل إلى الباب، حتى هتف من فوق: «الاصفرار استحال احمرارًا.»

وقفت في مكاني. رفعت هامتي، إذ تصعبت عليّ رؤيته من حيث كنت.

اتخذت بضع خطوات إلى الوراء، فأبصرت ظله في ضوء الشمس الأحمر، فقلت: «ماذا؟!»

فقال: «الاصفرار... الاصفرار استحال احمرارًا، أرأيت؟»

وأشار بيده إلى الشمس من خلفه. لم أفهم مراد قوله، فوقفت ألقي

إليه بنظري، فعاد قائلًا: «أرأيت؟ استحال احمرارًا... ما له استحال احمرارًا؟!»

وبعد أن مكث هنية، أردف: «اصعد، ورِ إن شئت»

فقلت: «لا... لا أريد أن آتي.»

وبغير سابق انذار قفز من سور المدرسة السامق إلى الأرض. شعرت بالخوف حينها، وقلت لا ريب أن قدمه قد كُسرت، لكنه قام على ركبتيه مثل الزنبرك، ووقف إزائي. كان صبيًا في نفس سني تقريبًا، غير أنه كان أبدن قليلًا، ووجهه مستديرًا ورأسه حليقًا أجرد. وكأنه يريد أن يتعرفني، راح ينعم فيّ النظر، ثم قال: «ليس عبثًا أن يستحيل الاصفرار احمرارًا.»

ثم أشار إلى الجدار المقابل، وقال: «انظر، إن الاحمرار يسقط على الجدار.»

نظرت ورائي تلقائيًا، وإلى الجدار الذي سقط عليه شعاع الغروب الأحمر. ولما كان لساني قد انعقد، وعييت عن الكلام، جعلت أنبش عن كلمة أقولها، لولا أن فُتح باب المدرسة، وأقبل الميرزا حسن خان بهيف قامته مكسوًا بقبائه المسكي اللون. وسرعان ما حييته، فأجاب الميرزا التحية. وتوجه إلى الصبي قبالتي بالحديث: «هذا رضا، فتى طيب، إنه حديث عهد بنا.»

ثم قال لي: «علي(14) ليس طالبًا هنا. إنه يدرس في المدرسة الفرنسية. ليس طهراني، بل من مازندران، من يوش.»

فقاطع الصبي الصغير الميرزا، وقال: «يوشيج(15).»

فتبسم الميرزا ضاحكًا، فقال: «بلى، يقال للواحد من أبناء يوش يوشيج. إن علي ينظم الشعر، إنه تلميذ لطف على خان نظام وفا(16).»

ثم أشار إليّ، وقال: «ادخل أنت. سأذهب أنا الآخر لأوصل علي إلى بيته، وأؤوب.»

اتجهت صوب باب المدرسة، فوقفت إزاء الميرزا حسن خان. أخذ الميرزا بيد علي، وسار الاثنان معًا في الزقاق الذي كانت جدرانه قد تلونت بالحمرة.

الفصل الثاني عشر

كان قد مضى على ملاقاتي براضي يوم، ولمّا أفعل شيئًا. ليلًا، بعد العشاء مشيت إلى فناء المدرسة، وقعدت على السلالم مدة أتفكر. ارتأيت أن لا حيلة لي سوى أن أنبري لهذا الأمر فردًا. ففي ظروف كتلك ما كان لي أن أصحب أحدًا معي. فكرت في أني وإن غضضت الطرف عن كون نادر في شغل، فهل يصح أن أركسه هو أو ألماس أو أي امرئ آخر في مخاطرة منوطة في الأصل بي؟ تذكرت كيف كان نادر قد أُلقي في التهلكة، وكيف كاد أن يُقتل أو تُقطع أذنيه ذلك في معمعة إنقاذ شقيقة رسول. كذلك الحال ألماس، إذ كان من الممكن أن يُقتل هو ذاته على يد أيّاز ورجاله، أو حتى سائر رفاقه أمثال كافور أو أي من الآخرين الذين كانوا جاءوا معه.

عدت إلى داخل البناية، فذهبت إلى الغرفة التي هي محل منامنا، حيث كان أصغر وإبراهيم نائمين، فألقيت فرشي إلى جوارهما، واستلقيت. لم يغمض لي جفنًا، ولم أفتأ أتقلب في فرشتي من جنب إلى جنب. فكرت في أني إن كنت سأفعل شيئًا، فخليق بي أن أباشره الآن. وما أعرفني أني سأمضي غدًا أو بعد غدٍ نافذًا في أمري. فحينذاك لم أكن على بصيرة من أمري ماذا سيفعل بي راضي الذي كان لا يعتورني شك في مدى غلظته. لذا قلت ليكن ما يكون، فانسلت من فراشي، وانسربت بخفة على رؤوس أصابعي من المدرسة. كان تمييز الأزقة والشوارع التي كنت أمزيها من محالها وبائعيها الجائلين في هدأة الليل المدلهم أمرًا عسير المطلب. فكأين من مرة سلكت طريق خطأ فارتددت على آثاري، وكأين من مرة اتقاء

داروغات الليل استترت خلف الجدران، وفي حِمى المصاطب التي أمام البيوت تواريت. تربصت إلى أن ينصرفوا، ثم واصلت طريقي. وعلى هذه الحال وقد مر من الليل هزيع بت قبالة قصر نُويان خان. انعرجت عن القصر، وفي الزقاق الذي هو جهته، عثرت على مجرى الماء الذي كنت ألج منه وأخرج، فرجوت ألا يكون مسدودًا. انثنيت وألقيت نظري إلى طرف الجدار. كان منفذ مجرى الماء مفتوحًا، فاستلقيت أرضًا، وولجت الفتحة زاحفًا. ومثل المرات التي قبل سقطت على وجهي الأرضات والنمل وأفواج من صنوف الحشرات، فذببتها عن وجهي، وتفلت تلك التي سارت إلى فمي. خرجت من الفتحة بشق الأنفس، وولجت فناء قصر نُويان خان. نفضت عن رأسي وثيابي الحشرات، ونظرت صوبي. كان القصر الساكن المظلم في منتهى الفناء يتراءى لي أعظم مخافة مما كان.

وما تقدمت حتى أنشأت يابسات الأشجار تخشخش تحت قدميّ. ومن خلال أشجار الفناء أبصرت الحوض الذي كانت مياهه الآسنة تموج مع أنسام الخريف، وترتد صورة القمر الضئيلة إلى سطوحه منكسرة. كنت أعلم أن شكورًا مطلع على أمري، أعلم أنه يخبر الآن أين أكون، وأعلم أنه إكرامًا لصداقتنا سوف يأتيني. كان يجدر بي أن أجد ملاذًا، أرتقب فيه قدوم شكور، فانقلبت بين الأشجار عائذًا، واستندت إلى الدوحة التي كانت في عقب الأشجار الأخريات. تساقط بعض هشيم الورق من علٍ على رأسي، فشُبِّه لي أن ورقات الشجر حشرات، فجذعت، وسرعان ما تحسست رأسي ووجهي. ولما أن تبين لي أن ما تساقط عليّ كانت ورقات خريفية هدأ روعي. ألقيت ظهري إلى جذع الشجرة، وأغمضت عيني، وتبلعت ريقي.

وبينما كنت أستلقط أنفاسي، إذ انغرزت في كتفي براثن لاذعة من حديد، فاعتصرني ألم انثت له ركبتي لا إراديًا، وجعلت أئن: «آه.»

وساعتئذٍ قال من دوني قائل: «اصمت، اخرس.»

كان ذلك راضيًا، ولمّا يخلص كتفي من براثنه، وفي عين الوقت كان يكفني لأصمت. فتحت عيني، وقلت وإني مذعورٌ: «هذا مؤلم ، إني أتألم... ذرني... بربك ذرني.»

فقال راضي: «ما ذاك إلا أول النذر، إن لم تقم بما كلفتك به، فإني فاعل بك ما هو أشد نكالًا.»

فاحت رائحة فيه المنتن في وجهي، فارتبكت لذلك، وطفق الألم في سائر جسدي يروح من كتفي حتى أخمص قدمي ويغدو. ارتعشت شفتاي، وغصت عيناي بالعبرة، فقلت على مشقة: «حسنا... حسنًا... جئت إلى هنا لأنجز أمرك... ذرني... بربك ذرني.»

وبينما كانت مخالب راضي لا تزال في كتفي مُنشبّة، استدار ووقف مواجهًا لي، ثم قال: «إنه ليحلو لي أن تذوق بعض الألم. لا ضير أن تعي ذاك الذي قاسيت أنا من بعد فرارك، خاصة تلك التارة الثانية. فقد حلّ هنا تارة أخرى ذياك الوغد فرُوخ، وعلقني ثُويان خان على الفلقة من وراء فرارك.»

تدفقت دموعي من فرط الألم دفقًا. أما جسدي فأصابه فلج فلم أعد أحرك ساكنًا. قلت: دعني...آه... دع...»

وفي تلك اللحظة قال صوت آخر: «دعه، ألا تسمع؟!»

كان شكور قد وقف دون راضي. استدار راضي ورمقه، وحينذاك

أفلت كتفي، والتفت إلى شكور قائلًا: «جيد، كنت أدري أنك متى رأيت صاحبك في ألم، فسوف تأتي في الحال، وأنا لم أعد أطيق انتظارًا.»

فقال شكور: «لم لا ترفع يدك عنه؟»

فقال راضي: «ولمَ أرفعها، أولم يؤذني ببعض أذى؟ أولم يشقني ببعض شقاء؟!»

فقال شكور: «أنت نفسك تعلم أن لا يد له في شقوتك...»

قاطع راضي شكورًا، فقال: «كفى، إني لأفعل ما أريد. والآن أريد أن أهتدي إلى مِخبأ نقود أبي، كي لا أقهر ثانية على البقاء هنا، وأظل أتلقى ضربًا كل حين.»

فقال شكور: «أوَ تدري ما يمكن أن يصيبه؟»

فقال راضي: «أجل.»

فقال شكور: «سيموت.»

فقال راضي: «أولست صاحبه؟ ساعده لكيلا يموت. إن لم يكن له أحد، فأنت على الأقل له ظهير، أمّا أنا...»

ثم توقف عن حديثه، والتفت إليّ قائلًا: «لا يغيبن عنك ما قلت، إذا كنت تبتغي ألا تذهب إلى رفقيك هذا في مثواه سرمدًا، افعل ما أمرتك به.»

فقال شكور: «ما هكذا يا راضي، أنت تعلم أني لا استطيع الذهاب معه إلى كل مكان.»

وكأن راضيًا لم يسمع شكورًا، التفت إليّ، وقال: «لا تماطل... إذا كنت تبتغي ألا تموت.»

ثم إنه مضى، وسار خلال الأشجار تجاه القصر المظلم. فناداه شكور من خلفه: «راضي... راضي!»

انثنى راضي، ونظر إلى شكور. فقال شكور: «مذ أن عرفت أنك لا تنتمي إلى هنا، وأنا لم ينقطع رجائي في رجعتك إلى مثواك عاجلًا غير آجل... هذا خير لك وأحسن.»

ودون أن يجيبه أدار راضي ظهره لنا ثانية وواصل طريقه. وما هي إلا أن التفت شكور إليّ، وقال: «ما كان عليك أن تقبل.»

فقلت: «ما كان بيدي، قال أنه سيقتلني.»

فهمس لي شكور: «هذا الأمر أيضًا كالموت سواء بسواء.»

فقلت: «والآن ما حيلتي؟!»

فقال شكور: «دعنا نذهب، لأنظر فيما يمكن فعله.»

ثم أمسك يدي، وسار بي. مررنا بالأشجار، واتجهنا صوب الحوض. ولما أن وصلنا إلى حافته، رمقني شكور، وقال: «كما في المرّات السالفات.... ألست خائفًا؟»

فتبلعت ريقي، وقلت: «نعم.»

وقف كلانا على حافة الحوض المُستدقة. تقدم شكور، فوقف على ماء الحوض، ثم التفت إليّ قائلًا: «هيا.»

وطئت مياه الحوض على مكث وحذر أولًا بقدمي اليمنى ثم

اليسرى. كانت المياه تحت قدمي كطوب أرضية فناء قصر نُويان خان المتلقلق، جامدة، وبالمثل ترتج. مشى شكور فتقدم، كذلك مضيت عقبه. فما خطينا بضع خطوات، إلا واغتمسنا في بطء، وسرعان ما شعرت بمياه الحوض السخينة الداكنة وهي تغشى رأسي. قال شكور: « تنفس.»

أطلقت أنفاسي الحبيسة. انغمرنا أكثر، ومررنا بالقوم المعلقين في عرض مياه الحوض. أخذ المكان من حولنا يشتد ظلامًا وظلمة، حتى بلغنا مكانًا لا يعود يُرى فيه أحد أو شيء، ثم إنَّا أدركنا النور تارة أخرى. آنذاك علقنا في المكان الذي تتبدى فيه من تحتنا جم من أشياء. استدار شكور، حتى واجهني، فقال: «إن الأمر الذي أُمرت مطلبه جدًا عسير، إن أبا راضي ليس هنا، بل في مكان يبعد عن هنا شأوًا ، مكان اسمه بئر الظلمات، مكان يفرق عن هنا.»

فسألته: «وما بئر الظلمات؟»

كان قد اكفهر شكور، وراح وجهه يتراءى من خلف أمواج الماء عابسًا قمطريرًا، وبكأن غمة شديدة أغمته أو قلق عظيم. قال: «لا علم لي، لقد سمعت باسمه فحسب، ما أعرفه أنه شر مثوى، ويجب ألا يُسار إليه. فمن دنا منه، لا يستطيع إيابًا. قد تتمكن أنت من الذهاب، ذلك أنك حيّ، ولكن عليك ألا تتقدم كثيرًا. ادن من بئر الظلمات، ثم نادِه.»

فقلت: «وإن دعوته، فهل يجيب داعيًا؟!»

فقال: «لا علم لي، على كل فإنك لا تستطيع إيجاده، ما لم يُرد هو، أي لا بد أن يأتيك سعيًا، لا أن تسعى إليه.»

فقلت: «وما الحيلة إن لم يأت؟»

فقال: «لا شيء، لن يمكنك فعل شيء.»

فقلت: «ولكن راضيًا سيقتلني.»

فما كان جوابه إلا أن قال: «لذا قلت ما كان يجب أن تقبل.»

وما قاله بعدئذٍ جعلني أعي أن الأوضاع أسوأ مما كنت أهجس: «إياك أن تطيل هناك بقاء. لا بد أن تخرج من الحوض قبل أن تقدح الشمس، وإلا ليسدنّ نور الشمس منفذ الحوض، وتقبع ههنا خالدًا مخلدًا.»

فقلت: «أنّى أعرف لذلك ميقاتًا معلومًا؟ أنّى أعرف أأشرقت الشمس أم لم تشرق؟»

فقال شكور: «سأعرف أنا، وأخبرك.»

فقلت: «كيف ذاك؟»

فقال: «سأقترب منك قدر ما أستطيع، وألقي إليك حجرًا.»

وعندئذٍ أخرج بضع حجارة صغيرة براقة من جيبه، وأرانيها: «سأرمي ثلاثة من ذي، أول حجر يعني أن تأخذ الأهبة، فالشمس دنت من الشروق، وثاني حجر يعني أن الشمس تطلع، وثالث حجر يعني أنك إذا لم تخرج الساعة، فأنك ستخلد لديك ولا ريب.»

ثم شققنا معًا الماء، وسبرنا غوره، حتى أدركنا منحدرًا مظلمًا. هنالك توقف شكور، وقال: «لن أستطيع المضي معك لأبعد من هذا. فالعود من هنا عسير، سواء عليّ كان أم عليك...»

ثم أطرق هنيهة، وقال: «وإنه لأشد عليّ وأعسر.»

فسألته: «لماذا؟»

طاف حولي، حتى صار قبالتي، فقال: «إنما تجتذب بئر الظلمات كل الأنام إليها جذبًا، كلما تقدمت، يكون عودك أعسر.»

ثم إنه استدار ونظر إلى مسار المنحدر المظلم، وقال: «أرجو من الله ألا يتقدم أبو راضي كثيرًا. وإن كنت أعلم أنه لا يجرؤ على التقدم، إذ مضى إلى مثوى رجوعه منه محال. كان في أول أمره في تلك الأنحاء، أما الآن فقد مضى إلى ما هو أقصى، إذ يُدلى إلى قعر البئر رويدًا رويدًا.»

نظرت إلى المنحدر، وقلت: «إن ذاك المكان لمعتم.»

فقال شكور: «ما يميز الظلماء أن عينيك ما تلبثا أن تألفاها، حتى تسهو عن أن ذلك المكان مظلم.»

سألته: «سترتقبني هنا؟»

فقال شكور: «أجل، لكن سارع بالعود، وتذكر أن ذاك ليس بمكانك.»

فقلت: «سأسارع بالعود.»

نظر إليّ شكور نظرة مشفق وجل. كان لا يزال في ذهني سؤال يتردد، فسألته إياه: «لماذا لم تخبرني أن راضيًا ميت؟!»

فأجاب شكور: «ما كنت أعرف. لقد أتى على مجيء راضي إلى عالم الأحياء حينًا من الدهر، وقد خضبته الدنيا بخضابها، حتى إنه لم يعد حيًا ولا ميتًا، فأضحى عصيًا على المرء أن يفرق بينه

وبين الأحياء. أما في عالم الموتى فالذين كانوا يعرفونه مأواهم بئر الظلمات، وإنها مأوى لم أردها من قبل.»

استدرت جهة المنحدر، وشرعت في المشي. وما ابتعدت عن شكور، إلا وهتف: «رضا!»

استدرت، ونظرت إليه. قال شكور: «إياك منه ثم إياك، أقصد مُسَيب أبا راضي... إنه لرجل محتال.»

هززت رأسي، وسرت خائفًا متوجسًا. فما تقدمت قليلًا، حتى ألفيتني غير معلق مثلما كان. كانت قدماي راكزتين على الأرض، وأنا أهبط منحدرًا لدنًا. كان الوجود المظلم المحيق بي قد توهج بنور أرجواني. وكأني في غار مظلم، غار مرتفع وذي انحدار، وتغشى جلامد الصخور كبيرها وصغيرها أرضه. كان الضوء الأرجواني قد ألقى بظلال مخيفة على كل شيء. وثمّ رائحة منتنة كانت تنبعث، تشبه تلك التي كانت غمرت أنفي في مقبرة حسن أباد من قبل، كذا كانت بعض روائح أخرى في المكان نافذة، لم يتسن لي أدراك ماهيتها. كان ثمّ صوت أيضًا، صوت جاف يشبه صرير منشار يمرر على خشبة صلداء، صوت كان يتردد ويتكرر في ذياك الغار المظلم المخوف، فيزيد خوفي خوفًا. لم يكن حواليّ أحد، فجهلت كيف لي أن أهتدى إلى أبي راضي. كان شكور ذكر أن ذاك الرجل يفطن أني أبحث عنه، وكيفما أراد، فسيبين. فلما أن مضيت قُدمًا في منحدر الغار المظلم قليلًا، شعرت وكأن إحدى جلامد الصخور السوداء أخذت تتحرك قبالة الجدار. فتوقفت، ونظرت. تحركت كتلة متكورة من تحت الجلمد، ثم ما لبثت أن ارتفعت، وأنا خلال ذاك، أبصرت

بياض عينين تحدقان إلى وجهي، ثم انفرج رديفي أسنان بين شفتين سوداوين مفغورتين، وإذ بصوت أجش ينملس منهما قائلًا: «ما عساك تفعل هنا؟»

لقد فطنت توًا أن ما كنت أتوهمه جلمدًا أسود بجانب الجدار، ما هو إلا جسم بشري متكردس، وعظام ناتئة قد تكومت على نفسها بجانب الجدار. فطنت أن كثيرًا من تلك الكتل المتكورة أو الصلدة على أرض المنحدر بجانب الجدران ليست صخورًا بل بشرًا. فزعت لمرأى رجل كان قد رفع رأسه، فنكصت عن خطوة على عقبيّ، وقلت مرتبكًا: «عن... عن مُسيب أبي راضي أبحث.»

كان هو نفسه الرجل الذي رفع رأسه، والآن صار يمكنني أن أُميز رجلًا مدورًا وجهه متغضنًا بتجاعيد داكنة، كان ذا شعر أشعث يغطي جبهته، رمقني بنظرة نافرة، ثم قال: «اخسأ عنّي...»

لم أقل شيئًا ومشيت من فوري. الآن كنت حريصًا على ألا أصطدم بتلك الأبدان المدمجة التي كانت تتنقل. لما أن أنعمت النظر قليلًا، رأيت تلك الكتل الشبيهة بالجلامد تنزلق في بطء شديد، وتتقدم. وإذ أرهفت أذني، يمكنني فيما بين صرير المنشار الجاف سماع أنين مجمجم من بعض الأجسام المتكردسة على أديم الأرض. وطئت بقدمي المرتعشتين متريثًا أرض الغار المنحدرة، وتقدمت. كان من الواضح أن الغار كلما تقدمت، ازداد انحدارًا، حتى تسرعت خطواتي رغمًا عني، إلى حد أني كنت لا أملك إمساك نفسي بسهولة، ورحت أفكر كيف سيكون الأوب بسرعة من هذا المنحدر عسيرًا. وبينما كنت ساريًا، رفع بعض البشر المتكردسين رؤوسهم، فزلقوني بأبصارهم،

فهمهموا بكلام وغمغموا. ثم وكأنهم خلدوا إلي رقاد راحوا ينكسون رؤوسهم تارة أخرى، وعلى أنفسهم يتكومون. وما مشيت بضع خطوات أخر، إلا وباغتني من ورائي صوت نافذ صارخ كأنه صوت امرأة، إذ قالت: «أي طيب ريح تلك التي تنشر!»

استدرت ونظرت خلفي. كانت ثمت امرأة وجهها ملآن بقاتم البقع، وشعرها الطويل الأشعث على كتفيها كان قد انسدر، جالسة على الأرض وإنها ضامة ركبتيها إلى صدرها وتنظر إليّ. وقتما ألفتني إليها أنظر، أطلقت ضحكة، وكانت تكشر عن أسنان سوداء قبيحة المنظر. قلت بداهة: «كنت أبحث عن مُسيب، أبي راضي.»

ودون أن تحفل بكلامي، قالت: «إنك لثروح خبيث الريح... ابق هاهنا قليلًا.»

تملكني خوف مما قالت، فقلت: «سأذهب... سأذهب من هنا في الحال.»

فافتعلت المرأة ضحكة شنعاء، وقالت: «ليس لك أن تذهب، ستقبع هنا، وتصير فردًا منا.»

حاولت ألا أعيرها اهتمامًا، فغيبت وجهي عنها، ومشيت. لكن المرأة صرخت من وراء: «لقد شيعك راضي وراء سراب يحسبه الظمآن ماء، إني لأخبر آكل اللقمة الحرام ذاك.»

عاودت النظر إليها قائلًا: «أوتعرفين راضيًا؟!»

نظرت إليّ لحظات، ثم إنها شمرت كميّ قميصها الأسود، ومدت يديها إليّ. كانت يداها كمثل قطعتي فحم محروقتين وسوداوين،

وقطع لحم من يديها كانت قد تساقطت، فتغورت في مواضع تساقط اللحم تجاويف شنيعة المنظر. لقد استقبحت رؤية يديّ المرأة. قالت المرأة: «ذاك الذي قال لك، ألم يقل؟!»

قلت: «أنتِ... أنتِ زوج أبيه؟!»

فأطلقت المرأة ضحكة، وقالت: «ستقبع هنا، وتذهب بنتن الريح أيضًا.»

فقلت: «لا... إني عائد... إني عائد.»

وفجأة نزعت عن إيجاد أبي راضي، وتوخيت أوبة. كان طريق العودة مُرتقى صعودًا، فما ارتقيت بضعة أقدام، إلا وانزلقت، فوقعت. نهضت من عثرتي، وحاولت الصعود مرة أخرى، غير أني ما لبثت أن ارتطمت بالأرض تارة أخرى فور ما ارتقيت خطوات قليلات. تصاعدت ضحكات المرأة من خلفي، وكان شعر جسمي يقفو لهول ضحكاتها. نهضت غير عابئ بها، وسرت خطوات أُخر، وقد حاولت أن أتثبت لئلا أتعثر. وحينئذٍ وعلى حين غرة علا جُؤار منكر، ثم ما لبث أن خرج عليّ من فجوة الغار جثة حيوان ضخم يشبه ذئبًا، فوثب عليّ، فما كان مني إلا أن صرخت خوفًا، وانطرحت أرضًا. تدحرجت من فوري على الأرض، وانحدرت هبوطًا. وفي عين الوقت رحت أفكر أن عودي من هذا الجرف بات محالًا. تدحرجت، وتحدّرت، ثم في آخر المطاف ارتطمت بصخرة في جانب من الغار ارتطامة شديدة، فتوقفت عن الهبوط. أمضني الوجع في خاصرتي من أثر ارتطامي بالصخرة، فتأوهت، وتوسدت الأرض. كانت الأرض زلقة، وكان لازبًا بها شيء كحمأ مسنون.

وكم تقززت من ملامسة وجهي لذلك المنتن، فرفعت رأسي عن الأرض، ومسحت بيدي وجهي. قمت، وجست بنظري المكان فرأيته قد بات أعتم، وكان وهج الضوء الأرجواني قد خبا، ومقابل ذاك باتت الريح الخبيثة أخبث، حتى إن أنفاسي تصعدت من زفرها. زادت الأرض تحدرًا، وصار الغار بئرًا غويطة قعرها تغور في غياهب الظلماء. لينت جنبي، ورجليّ قليلًا، ثم جهدت لاعتلاء ذاك الجرف الزلق. انزلقت، ووقعت على الأرض مرتكزًا على كفيّ، فغاصت يداي في الطين الزلق اللازب. قمت تارة أخرى بصعوبة، ومسحت على قميصي بكفيّ، وجاهدت صعودًا. لكنني تعثرت مرة بعد، وكدت أن أقع لولا أني تشبثت بجلمد حتى وقفت. حينئذٍ سمعت صوتًا يقول: «لن تقوى، لن تستطيع صعودًا.»

التفت إلى مصدر الصوت، فرأيت عجوزًا نحيلًا أجعد كان جلس إلى جانب الجدار وقد طأطأ رأسه ويرقبني. غير آبه بما قال، جهدت كَرَّةً أخرى لأرتقي. هذه المرة لم أستطع فعل أي شيء أيضًا، وعاودت الانزلاق، والانحدار. ضحك العجوز لتحدري، وقال: «لست راغبًا في البقاء كيف وقد اقترفت فادحة بجيئتك إلى هنا!»

فقلت: «أبحث عن أحد ما.»

سألني العجوز: «عمن تبحث؟»

فقلت: «مُسيب... مُسيب أبي راضي.»

فزم العجوز شفتيه، وبصق بصقة غليظة على الأرض، ثم قال: «الجحش، العاق.»

فسألت: «من تقصد؟»

فقال: «ذاك المجحوم راضي.»

فقلت: «أوَ تعرفه؟»

فقال: «ألا تشم رائحة اللحم المحروق؟!»

فقلت: «أنت مُسيب؟!»

فقال: «كنتُ، الآن لم أعد شيئًا.»

فقلت مغتبطًا: «راضي يريد...»

قاطعني، وقال: «لقد أثم راضي في جنبك.»

سكت قليلًا، ثم قلت: «قل لي أين تلك المسكوكات، وإلا فإن راضيًا قاتلي.»

لوي العجوز فاه، وقال بنبرة هازئة: «لا تحسبن أن قلبي عليك تحرّق... لقد مت بالفعل أنت الآخر يا ولد، ولا عدت تستطيع النفاذ من هنا.»

فقلت: «قل لي ربما تمكنت من المغادرة.»

فقال: «أو تذهب وتخبر ذياك الجرو بمكان النقود كيما يغنم بها متاعًا؟!»

فقلت: «أولست أباه؟!»

فقال العجوز: «أوَ ما خبرت بفعلته بي وبزوجي وبنيّ؟»

لم يكد العجوز يتم كلمته، حتى لاحت بقيعة مضيئة بيضاء من

فوق الجرف، مضت حتى جاوزتنا. كان الضوء الأبيض يشعشع من الحجر عينه الذي سبق أن أرانيه شكور. كان نذيرًا من شكور ويعني أن الشمس توشك أن تطلع، وعليّ أن أرجع. ولما أن رأيت الحجر المضوي زيد خوفي أن أعلق في ذلك المكان. ودون أن أنتظر من العجوز جوابًا، جهدت لأرتقي زحفًا على يديّ وجليّ. ضحك العجوز مقهقهًا وقال: «عبثًا تجاهد وتجهد، أنت ضيفي، ولسوف نهوى معًا إلى درك أسفل.»

حاولت ألا أنتبه لما قال. ضربت بيديّ ورجليّ مرة بعد، ومضيت مُصعدًا. بصعوبة صعدت قليلًا، لكني ما لبثت أن زلقت في الطين، وهويت هويًا. قهقه العجوز عاليًا: «إنك باخع نفسك، لن تستطيع، لن تستطيع، إن الذي أرسلك إلى هنا كان يعلم أن لا كرّة لك ولا مرّد.»

مرة أخرى شحذت يديّ ورجليّ، وصعدت. لكن هيهات هيهات؛ كبوت مرة بعد، حتى إني في نهاية المطاف أحسست أني لم يعد فيّ رمق لأعزق. كانت يداي وقدماي ترتجف، ونفسي ينكتم، ورائحة الجيف قد أربكتني. استمسكت بصخرة لئلا أنزلق أكثر، فما كان من العجوز إلا أن دوى ضحكه عاليًا فأعلى، وأنشأ ذي المرة يسخر مني بطريقة أخرى: «قم ، هيا قم... اصعد، هيا اصعد، تقدم...»

نفذت بقعة أخرى من الضوء الأبيض ومضت حتى جاوزتني، هكذا كان قد بلغني من شكور ثاني النذر. وفي مخيلتي رحت أبصر الشمس وإنها ترقى أفق القصر وتذرف سناها في الحوض وأنا حبيس ذلك الغار المعتم أبدًا. ارتخيت على الأرض، كان جسدي يتألم ونفسي يضيق، ومن شدة اليأس لم أملك دموعي. تلاشت ضحكات

الرجل، وشيئًا فشيئًا أناخ الصمت في المكان بأسره. كان هذا الصمت لي خاتمة كل شيء. لم يكن من الموت بُد، فجعلت الحوادث التي جاوزتها في الأشهر المنصرمة تمضي أمام عيني مثل صور السينما توجراف. خلت أني لن أبلغ بعد الآن أمانيّ، وارتأيت أن قدري ما هو إلا ابتلاء فسقوط في غياهب ذلك الجب. وكأن العجوز كان يفكر في الأمر ذاته، إذ تحدث إليّ قائلًا: «لهف نفسي على أمانيّ التي كانت... كنت أتمنى لو أرتحل إلى البحرين، وأزاول الاتجار في اللؤلؤ. كنت أريد أن أجعل لنفسي شأنًا، ولكن ذلك العاق لم يذرني، يا ليته كان قد نفق مع أمه المجحومة. لقد حسبت لكل شيء حسابه وعددت له عدته، كنت يقظًا لئلا أهفو هفوة توقعني في قبضة سيدي، كانت خطتي سالكة لا يشق لها غبار. حتى جاء ذاك الجحش يومئذٍ، فجعل عاليها سافلها... وها قد أرسلك الآن ليسأل أين أخفيت المسكوكات.»

ولزم الصمت ثانية. كنت ارتميت على ظهري ألهث من الإعياء لُهاثًا. كانت فكرة أني لن أبرح هذا الغار مطلقًا قد أفلجتني عن الحركة. أغمضت عيني، وانقدت لمصيري. وما مضى من الوقت شيء حتى فض العجوز صمت الغار قائلًا: «أتتحرق لمعرفة مخبأ المسكوكات، ها؟ ماذا لو عرفت مخبأ المسكوكات وها قد أحتجزت هنا، ولن تسطيع فكاكًا، ها؟... أنا ما حملت النقود خارج القصر. لقد وضعتها في غرفة سرية، في باسطة سلم الإيوان، جهته الأخرى ذات السلالم غير المكتملة، حيث تفترش أرضية باسطة السلم طوبة كبيرة. متى أقتلعت، يُفتح لك ما يشبه بابًا دونه غرفة سرية فيها النقود. هناك ليرات خمر، لكل منها قيمة وأيما قيمة، واحدة منها فقط تسد كلفة معاش معدم مثلك أنت وأهليك سنوات مديدة. لكن يدك لن تطالها، لا

أنت ولا ذياك الجحش العاق...»

ثم إنه عاود الضحك، كان دوي ضحكاته لا ينفك يرتفع، بيد أن ضحكه ذي المرة لم يعد يخيفني. وكأن الحياة بُعثت فيّ، ذلك بعدما فطنت إلى مخبأ العملات وقد استيقظ في صدري ما كان غافيًا، وآنست من غور قلبي شعورًا عارمًا أني أريد الخروج من ذلك المكان. شعرت أن البقاء في ذلك المكان ليس من العدل و الانصاف، ذلك أني لا أنتمي لتلك البئر الحالكة المعتمة. تُذوكرت حينها عليّ عبارة شكور التي ألقى على مسامعي قبل المجيء: «ذاك ليس بمكانك...»

رددت هذا مناجيًا نفسي: «هذا ليس بمكاني.»

أغمضت عيني، ولم أعد أشغل بالي بسوى الخروج من المهلَكة المعتمة تلك. جعلت أردد في نفسي أن هذا المكان ليس بمكاني، وإذ ذاك شعرت أن جسدي ينتفض. أطبقت جفني، وعقدت يدي على صدري، وصرخت من أعماق قلبي: «لا بد أن أخرج.»

انخلعت عن مكاني فجأة، وطرت في الجو كتحليق طير. وبينما كنت منطلقًا سمعت الرجل العجوز وإنه يزعق: «أين؟... أين ذاهب؟»

طرت، وسرعان ما انفلت من العتمة. كانت الأنات من حولي قد انقلبت إلى صرخات حسيرات، ما كان يراني راء وإني منطلق إلا ويود أني آخذه معي. حينذاك استبانت قبالتي بقعة ضوء أبيض، ومضت حتى جاوزتني. تلك كانت آخر نذر شكور. لم أعر الصرخات المتصاعدة حوالي انتباهًا، ولا الأيدي الممدودة نحوي للخروج، إذ كان فكري منصبًا على الإفلات والخروج من بئر الظلمات لا غير. مضيت ومضيت حتى أحسست أني تباعدت عن الظلام، ولما فتحت

عيني ألفيت أني في فضاء منير واقفًا إلى شكور. قال شكور وإنه مغتبط: «عدت والعود أحمد... أسرع، الآن ستشرق الشمس.»

اجتذب يدي، فأبعدني عن فوهة البئر المعتمة. حتى إذ صرت على مبعدة قليلًا، وضع يده تحت منكبي كمثل الدفعات السوابق، وسرعان ما أطلقني إلى علٍ. مرقت في الماء مروق السهم من الرمية. كان الفضاء حولي مدلهمًا، فعاد منيرًا، ثم انبثق رأسي من الحوض. التقطت نفسًا عميقًا، وتطلعت إلى السماء، كان خيط الفجر الأبيض في الأفق قد بان. جررت نفسي إلى حافة الحوض، وإذ ذاك أخذت يد بتلابيبي، فرفعتني. نظرت، فإذ به راضي. رفعت يدي وقلت: «هلم خذ بيدي، أخرجني.»

أخذ راضي بيدي، وأعانني على الخروج من الحوض. كنت مرهقًا، وألهث. ألقيت نفسي على الأرض طريحًا، سألني راضي متعجلًا: «ماذا فعلت؟»

فقلت بصعوبة: «رأيته... »

فسألني: «وما قال؟!»

فأشرت بيدي ليدعني ألتقط أنفاسي، لكن راضيًا سألني مُتلهفًا: «هل أخبرك؟»

أومأت رأسي أي نعم، فضحك راضي، وقال: «كنت أعلم أنك ستبلى في هذا الأمر عظيم البلاء.»

ثم أمسك يدي، وأقامني، وقال: «هيا.. دعنا ندخل.»

لم نكد نسير، حتى ارتفع في القصر صوت. نظر راضي أولًا تجاه

الباب، ثم إليّ وقال: «ربما يكون نُويان خان، كان قد قال أنه سيبكر في العود... اذهب أنت، وتوار بين الأشجار، وعندما يدخل القصر، آتيك.»

وليت بين الأشجار مدبرًا، فتواريت. ذهب راضي إلى الدهليز آخر الفناء. ثم بعد ذلك بقليل سمعت صرير باب يُفتح، وحوارًا دائرًا بين بضعة أشخاص، ثم إن الباب أغلق، وعقبه سمعت وطء أقدام تدنو مني. استرقت إليهم النظر، إذ كان هناك ثلاثة رجال عدا راضي، أحدهم كان فزْوخًا الذي راح يعرج كعادته وهو يسير، ومعه رجلين آخرين كانا قويي البنية، لم أكن قد رأيتهما من قبل. وبينما كانوا يمرون من أمامي، قال فزْوخ: «ألم تخلق مشكلة ليلة أن غبت؟»

فأجاب راضي: «نعم، كل شيء مُستتب.»

الفصل الثالث عشر

وقتما مرّ راضي برفقة فرّوخ والرجلين الآخرين أمام أشجار فناء القصر، اهتبلت طيف ظلماء الفناء، فانطلقت خارج القصر قبل أن يأتيني أحد. اندفعت أعدو طول الطريق إلى المدرسة لا ألوي على شيء. كانت الشمس تبسط ثوب ضيائها على المدينة رويدًا رويدًا، فأغدو مع انبساط كل طية من طياته في اضطراب مبين، ذلك أني كنت خائفًا أن يخبر بيوك أغا وقاطنو المدرسة الآخرون بأمر غيابي، ويستبينوا أني خرجت من المدرسة ليلًا، فيستجوبوني حينها أين كنت. وقد كنت على بينة من أمري أني كيفما أخبرت الآخرين أين كنت وما فعلت، يرموني جميعهم بالجنون، ويتخذوني هزوًا لأني أهذي ، وأنسج الأساطير.

كانت الشمس قد بزغت وعلى وجه البسيطة انبسطت ساعة أن صرت أمام باب المدرسة وجلًا متسارع الأنفاس. وعلى غير انتظار فجأني أن الباب كان موصدًا. عندما غادرت إلى قصر نُويان خان عند انتصاف الليل، كنت قد ضممت مصراعي الباب، والآن إذ بات موصدًا، ازددت مخافة. ماذا لو أن بيوك أغا هو من أغلق الباب، ماذا لو تبين أني خرجت في منتصف الليل... استندت إلى السور، والتقطت بعض أنفاسي. فكرت في أن أتسلق السور، فأستكن، وكذا أنكر المغادرة وترك الباب مفتوحًا. لكني خفت أن أُرى فوق السور، فيزداد الطين بلة. في نهاية الأمر أمسكت غير محتزز مطرقة الباب وطرقت الباب مرات متتاليات. كان قلبي يدق دقًا، وكنت قد تعرقت وجسدي يرجف من رشح العرق البارد. وما مضى شيء، حتى فُتح

الباب. وخلافًا لما تنبأت، لم يكن بيوك أغا من فتح لي، بل إبراهيم. سألني: «أين كنت؟ ولمَ وليت خارجًا؟!»

فقلت: «قض الأرق مضجعي، فخرجت أنشق هواءً طلقًا.»

فقال: «أما خشيت الظلماء؟!»

فقلت: «كانت الشمس قد طلعت إذ غادرت.»

ثم سألته: «أين بيوك أغا؟»

فقال: «لست أدري... عله ذهب يشتري خبزًا.»

تبدد خوفي قليلًا، ورجوت ألا يكون بيوك أغا قد جاء إلى غرفتنا قبيل ذهابه فأبصر مطرحي شاغرًا. وقد كان ، ذلك أن بيوك أغا جاء بعد قليل ودخل حاملًا عدة أرغفة، وبينا كان يتوجه إلى المطبخ، قال: «الحمد لله أن انقضت تلك المجاعة هي الأخرى، فالمخابز كانت جميعها مفتحة وتحوي خبزًا.»

ثم أمر إبراهيم بأن يذهب ليسبط المائدة فنفطر. رحت أرتقب منه أن يتكلم عن فتح الباب، حتى تكلم. ففي أثناء تناول الفطور قال: «وكأني ليلة أمس كنت نسيت إغلاق باب المدرسة. لقد ألفيته في الصباح مُشرعًا!»

وانتهت القصة على خير. تناولنا الإفطار، ودعاني بيوك أغا، فأدلني على عنوان وطلب أن أذهب إلى شارع علاء الدولة، إلى محل الأسطى كاظم النجار، فأسأله عن ثلاث سبورات يلزم أن يصنعها للمدرسة. قال: «قل له إن الميرزا قال... لا، بل قل له إن بيوك أغا قال متى تسلم السبورات؟ إنما تتحصل المنفعة من السبورة إذ غلقت

على الجدار منذ أول يوم دراسة، فأي فائدة إن أرجئ ذلك حتى حين.»

وأمرني أن لا أتأخر، لأن هناك عملًا كثيرًا وإنه بمفرده دون معين. أجبت مطلبه، وانطلقت خارجًا من المدرسة. كان ما قد وقع لي ليلة أمس متصورًا أمامي لا يغيب. وكنت في حال عجيبة، ويكأن شيئًا من غيهب هذا الجُب لم يبرحني. كنت مشوش الفكر، ولم أدر كيف أفطرت، وحتى لم أدر ما قاله بيوك أغا على وجه الدقة. توقفت خارج المدرسة قليلًا، وفكرت. استذكرت اسم الأُسطى كاظم النجار، وشارع علاء الدولة، والسبورة. سرت قاصدًا شارع علاء الدولة. وفي سيري تفكرت فيما كان ليلة أمس. كنت أعلم أن راضيًا سيبرز عما قريب يُسائلني عن مخبأ النقود. كنت أعلم أن المسكوكات ذات قيمة عالية علوًا كبيرًا، وأن راضيًا سوف يفعل ما يفعل، ليهتدي إلى مكانها. فكرت في قيمة النقود، وفي الثروة التي يمكن أن يحوزها باكتسابها. شرد فكري حتى رأيتني ضللت الطريق. عدت أدراجي، ولم أزل أستدل من ذا وذاك حتى وصلت في النهاية إلى شارع علاء الدولة ببناياته البيضاء البهية، وغرسات الأشجار تحاذيه عن جهتيه. كانت معظم المحال لا تزال مغلقة، وها قد أقبل التجار واحدًا تلو الآخر، وطفقوا يفتحون مغاليق محالهم. استدللت من بعض المارة عن عنوان دكان النجار الأسطى كاظم، حتى في النهاية ولجت زقاقًا فسيحًا كانت المتاجر كبيرها وصغيرها تتاخم عن جانبيه. وخلافًا لما كان عليه محلان أو ثلاثة كانت سائر المحال مغلقة. إلى الأمام قليلًا لدى آخر الزقاق، لفت انتباهي جمعًا غفيرًا أمام أحد الدكاكين. لما ازدلفت بعض الشيء، سمعت رجلًا كان يقف أمام الدكان ويصيح

هائجًا: «هذه الفعلة فعلة ولد المحروق، فعلة عديم الشرف، فعلة ذاك الذي لا يعرف الله.»

فقال نفر آخر من بين ذاك الملأ المحتشد: « الآن لا تجزعن، فسوف يُنظف.»

فقال الرجل الذي كان وقف قدام الدكان: «سوف ينظف؟! لقد نجس ذياك الرجيل المقرف المكان برمته، أنى لي أن أجيء بالماء إلى هنا؟!»

تقدمت، ورأيت صاحب الصوت، كان رجلًا سمينًا يلبس قميصًا أبيض لونه وقباء أرخالق(17) بلا أكمام، وقبعة من اللباد على رأسه. كان وجهه قد احمر من فرط الغضب، وشفتاه ترتجفان. وبينا كان يتحدث أشار بيده إلى ما خلفه، فقال: «كيف لي في الصبح أن أفتح ذاك الدكان اللعين مرة أخرى ؟! هب أني بدلت القفل، ماذا تراني أفعل في الباب؟!»

حينئذٍ قال نفر من بين الملأ: «إنه فأل حسن لك، ستثمر تجارك وتزهر.»

فضحكت حشود الناس على إيقاع واحد. أما صاحب الدكان فتميز من الغيظ، وصاح قائلًا: «خذه، وألقه على قبر أبيك، عساه يجلب لكما أنتما الفأل الحسن.»

بدا أن الرجل الذي كان يقف بين الحشد أراد أن يهجم على صاحب الدكان إلا أن الآخرين أمسكوه. ودوى صخب عجاب، فراح كل واحد يرغو ويزبد، وصاحب المحل والناس الآخرون يتصارخون

ويتسابون مردفين. آنئذٍ أجتذب انتباهي إلى باب الدكان، حيثما كان صاحب الدكان قد أشار. إذ كانت على الأرض، لدى موضع قفل باب المحل، كانت أُلقيت كومة كبيرة من تغوط إنسان، حتى إنك لا تستطيع أن تلمح أثرًا للقفل. لم يكن سوى كم مفرط من البراز قد ارتفع فغطي الباب من جهة، ومن الجهة الأخرى ملأ قدر شبر من الأرض أيضًا. لدى رؤية ذاك المشهد، أدركت زفر الرائحة التي كانت أوغلت في أنفي من قبل غير أني لم أتنبه. الآن فقط طفقت أفهم علة هياج صاحب الدكان، فغضضت الطرف عن منظر باب المحل وقفله المُلوّط بالتغوط تلويطًا، ونظرت حواليّ وإلى الناس الذين كانوا يتجادلون. وإذ ذاك صرف توجه الجميع رجل كان يفوق الآخرين صياحًا: «أسطى كاظم... أسطى كاظم... انصت وانظر ما أقول!»

فقال آخر: «لقد جاء... إنه هو... قوقو ريغو(18).»

سكت الجميع، ويمم صاحب الدكان، الذي كنت قد فطنت الآن أنه هو الأسطى كاظم النجار، نظره جهة الصوت. فأردف الرجل الذي كان صاح: «لا تقم الدنيا وتقعدها على لا شيء... أعطني تومانين اثنين، أنظف لك المكان... ولتنظر... لقد اجتلبت الماء أيضًا.»

استدرت ونظرت ورائي، كان ثمت رجل نحيل مديد القامة يلبس قميصًا قديمًا بلون الرماد. وكان ضامر الوجه، وقد نبتت أسفل ذقنه كذا شعرة. كان قد رفع بكلتا يديه إبريقًا كبيرًا من النحاس وراح يريه الأسطى كاظم. و لدى رؤية الأسطى كاظم الرجل صرخ من جوف حلقه: «أتضحك مني بدل أن تبكي على قبر أبيك... هذا التغوط من

عملك أنت، أيها الهزيل المحروق أبوه، اغرب من هنا لتقبر في قبر أبيك، اغرب إلى قبر أسلافك وأجدادك يا عديم الشرف...»

ثم هجم الأسطى على الرجل المديد القامة الهزيل الذي كان قد وقف من دوني، وعند هجوم الأسطى كاظم، تبلبل جمع الناس تارة أخرى واختلط. قربت أسقط، غير أني انزويت جانبًا، مثلما نكص الرجل الطويل الهزيل على عقبيه، فمضى ليتشبث بالجانب الآخر من جدار الزقاق، وعاود رفع إبريقه إلى غاية صدره، وقال: «قلت سأنظفها بنفسي... فما شأنك هائجًا؟!»

وفي حين كان نحو ثلاثة رجال يستمسكون بذراعي الأسطى كاظم، ويمسكونه عن التقدم، صاح قائلًا: «لقد أثمت أيها الشقي الهزيل... لماذا قبحك الله فعلت قبيح فعلتك من قبل لتريد الآن أن تنظف؟ ما من أحد إلا ويعرف ما هو عملك، إنك لمتبطل معدم.»

ثم التفت إلى الآخرين، وقال: « لقد جاءني المحل ليلة أمس، فأخذ يلح ويلج، لأدفع له تومانًا واحدًا، فقلت لن أشكم فاك بالإتاوة، وها قد جاء قبحه الله ملقيًا تلك النجاسة على القفل.»

وكأن قوقو ريغو لم يسمع ما قال الأسطى كاظم، صاح مرة أخرى: «دعني أنظفه، سأشطفه بالماء، وأرده نظيفًا كما كان.»

فأجاب الأسطى كاظم: «أيها العاطل الزجيل المتبطل الوضيع.»

وهذي المرة هز قوقو كتفيه غير مبالٍ، وقال: «خيرًا تفعل شرًا تلقى، ألا تريديني أذهب.»

ثم مشى الهوينى إيذانًا بالمضي. لما أن رأى الأسطى كاظم قوقو

وهو مغادر صاح: «أين؟... إلى أي قبر سارب أيها اللقيط؟ تعال ونظف قذارتك التي فعلت.»

استدار قوقو، ونظر إلى الأسطى كاظم، وقال: «ادفع تومانين، أنظفه.»

استعر غضب الأسطى كاظم تارة أخرى، فقال: «بأي حق؟! أنت نفسك قلت ليلة أمس ادفع تومانًا واحدًا.»

رفع قوقو رأسه، فزمجر وغذمر، ثم قال: «سآخذ تومانين، فإن كنت لا تريد أذهب... لقد كلفني مأكولي وحده نحو تومانين لأحسو حساء الآش(19) فأنجز العمل.»

قال الأسطى كاظم بنبرة ألطف: «تعال ونظف هذا العار قبل أن يجتمع مزيد من القوم هنا... تعال أيها المحروق أبوه.»

فقال قوقو: «تومانين!»

فعض الأسطى كاظم على ناجذه، وقال: «تعال، يا آكل السحت، تعال نظفه من الغوط، ثم خذه واسكبه على قبر أهليك وذوي رحِمك أجمعين.»

وما هي إلا أن باشر قوقو الذي أخذ من الأسطى كاظم عملة ورقية قيمتها تومانان، ودسها في جيبه، ومعه الإبريق والمكنسة في تنظيف القذارات العالقة بقفل باب المحل. وسلك الناس واحدًا تلو الواحد سبلهم وانصرفوا. أما الأسطى كاظم فبينا كان لا يزال ينتفض غضبًا، جعل يتمشى أمام دكانه. وجعل رجل آخر كان جار الأسطى يتحدث إليه، ويحاول أن يلين عريكته. كنت أقف على مبعدة زهاء

ثلاثة أقدام، وأرقبهم. قال الرجل: «لقد أخطأت منذ البداية في أن تُشاجر ذياك الرجل يا أسطى، فكل من في البازار يحسبون ألف حساب لهذا الرجيل الفارع الذي ما زاده طوله إلا غباوة، على كلٍّ فإنه قائم بعمله. والآن اليوم في حينه، لا بعد أسبوع، أو بعد شهر، أو بعد سنة، وقتما يأتيك، دس شيئًا في كفه، تكف نفسك شره.»

جاش مرجل غضب الأُسطى كاظم، فقال: «ماذا تعني؟ إن لمملكتنا صاحب يحاسب ويجازي كل امرئ بفعله، أو يصح أن يأتي هكذا ويبتز منا أموالنا؟!»

فأجاب الرجل: «أي صاحب؟ وأي حساب وجزاء؟ لقد جُلد مائة مرة من قبل، وسيق إلى النظمية، وأُلقي في غيابة الحبس، فما نفع لاعوجاجه إصلاح وتقويم. كيف والجدار نفسه مشروخ؟! كن منه على حذر، لا ينقض عليك.»

وبينما كان الأُسطى كاظم يهم يقول شيئًا ليجيبه، وقعت عيناه عليّ وإني واقف أرقبه. حينئذٍ قطب جبينه، وقال: «ماذا تريد يا ولد؟ لمَ تقف هكذا وتنظر؟ اغرب عن هنا... اغرب.»

تقدمت خطوتين، وألقيت عليه السلام، ثم إني قلت: «جئتك برسالة.»

فقال: «ممن؟»

فقال: «من بيوك أغا.»

فقال: «ومن بيوك أغا ذاك؟»

فكرت قليلًا قبل أن أقول: «بيوك أغا من رجالات الميرزا حسن

خان... ذاك الذي يعمل في المدرسة. »

فقال الأسطى كاظم بلهجته الحادة السابقة: «ما رسالتك؟ قل، وانصرف لشأنك.»

فقلت: «بيوك أغا يسأل متى تكون تلك السبورات مهيأة للاستلام؟»

ضاق الأسطى كاظم ذرعًا وقال فور ذاك: «وقتما تزهر أعواد القصب اليابسة التي لا تزهر، بنظرك هل لكسير عنق مثلي بمصيبته التي حطت على رأسه تلك، هل له أن يفتح باب ذلك الدكان المُخرّب ليسأل ذاك عما يخصه؟! اذهب وقل له الأسطى كاظم قد مات، قل له إن باب المحل يُشطف إذ إنه بالبراز لطيخ فما بمقدور صاحبه أن يعمل.»

ثم إنه صاح قائلًا: «اذهب هيا... اذهب وأخبره.»

هالني علو صوت الأسطى كاظم. فمشيت غصبًا، لأعود من حيثما جئت. فما ابتعدت كذا خطوة، حتى صاح الأسطى كاظم من وراء: «انتظر يا ولد... على رُسلك.»

توقفت، فاستدرت ونظرت إليه. قال الأسطى كاظم: «إن السبورات مجهزة، ولكل واحدة منها إطار معدن يؤطرها، وحلقتان يلزم أن يصنعهما الصفّاح، انقلب إلى شارع علاء الدولة، وبعد زقاقين ابحث عن دكان الصفّاح، قل له حاجتنا معطلة لدى الأسطى كاظم، وحاجة الأسطى كاظم معطلة لديك. عجلّ بصنع تلك الأربعة، حتى تنتظم الأمور... اذهب.»

فقلت له من فوري حسنًا، ومشيت. سلكت طريقي على طول الزقاق، فانقلبت إلى شارع علاء الدولة، وهناك سألت عن دكان الصفّاح، وإلى الأمام قليلًا انعطفت إلى زقاق كان أضيق مما قبله، وغالب محاله مُشرّعة. تقدمت بخطى مسرعة، حتى شُد انتباهي إلى داخل أحد الدكاكين، إذ كان داخل الدكان في مساحة شاسعة منه شبه مظلمة، أشياء عِجاب كانت قد صفت إلى جانب بعضها، كان ثمت عَجَل كبير حجمه مرتكز إلى قوائم حديد سوداء، يستند إلى الجدار، أشياء أشبه ما تكون بتلك التي قد رأيتها قبلًا أول ذاك الشارع، تلك القوائم التي كان يستوي فوقها كذا نفر، وكأنهم يطيرون في اتجاه مستقيم، كانوا يصعدون أرجلهم ويهبطون، فينطلقون. توقفت فجأة، ونظرت إلى ذاك العَجل. ثم وقعت أنظاري على فتى كان قد وقف وسط الدكان ينظر إلى قائمة من القوائم كانت ذات عجلتين تتوسط الدكان. كانت تلك على عكس الأخريات، إذا كانت الساق الحديد مرتكزة على الأرض أما عجلتاها فمعلقتين في الجو غير مثبتتين. كانت ملابس الفتى مختلفة عن سائرهم وقد لبس بنطالًا أسود ضيقًا قصيرًا، وقميصًا أبيض يعلو ركبتيه بشبر. وضع الفتى يده على إحدى هذه العجلتين، ثم أدارها، فدارت العجلة دورًا، حتى إن قضبانها المعدنية الرفيعة التي تتوسطها لم تعد تتبدى للعين وتلاشت في دوامة الدوران. دارت ودارت، ثم أبطأت شيئًا فشيئا، وتوقفت عن الدوران، وإني لا أزال واقفًا أتفرج. وقعت عينا الفتى داخل الدكان عليّ. ولما أن رآني أرقبه، التفت إليّ برأسه قائلًا:
«ادخل... تعال...»

استدرت، ونظرت حولي، حيث لم يكن أحد بجانبي. سألت

مستغربًا: «أنا؟!»

فقال: «أجل... تعال... تعال وانظر.»

دخلت المحل متمهلًا، ثم وقفت على مبعدة خطوتين من الفتى والعجلتين المعلقتين في الجو. كان الفتى ذا شعر أسود كثيف، ووجه نحيل نبت فيه شارب أخضر قبل عهد قريب. أشار الفتى إلى العجلة وقال: «اسمها درّاجة، هيا ساعدني.»

ثم إنه عاود وضع يده على العجلة، وأدارها. دارت العجلة، حتى إن قضبانها لم تعد تبين، وتردد صوتها الذي كان يشبه أزيز نحلة. قال الفتى: «تعال... هيا أوقفها.»

وأشار إلى قائم الحديد الأسود، المثبت بالعجلة. تقدمت في بطء وتردد. فقال الصبي مرة أخرة: «لا تخف، هيا أوقفها.»

مددت يدي، وأمسكت بقائم الحديد البارد. فقال الصبي: «جيد، أوقفها بقوة.»

ثم إنه تناول عن الأرض حلقة حديدية سداسية، وفي متناول يدي حيث كنت ممسكًا بقائم الدراجة الحديد، ثبتها بقضيب ذي تروس صِغار كان قد انبثق عن قائم العجلة، وبأنملتيه أدارها، فجعلت تلك الحلقة تدور، وطلع منها القضيب ذو التروس الصِغار. دفع الفتى تلك الحلقة بأصابعه مرة بعد مرة، حتى وكأنها تصلبت، ولم تعد تتقدم. ثم إنه من بعد ذلك انحنى، فالتقط قطعة حديد قرناء رأسها ذو قرنين، وثبتها بالحلقة، فواقع قضيب الحديدة القرناء الحلقة السداسية من طرفيها، وهنا أدار الفتى ساق الحديدة القرناء بيده،

وحرك الحلقة السداسية بقرنيها. في المرة الأولى دارت الحلقة قليلًا، فرفع الفتى الحديدة القرناء، وثبتها مرة ثانية بالحلقة، وأدارها بضغط أشد. ولما أن دارت الحلقة مرة أخرى، أعاد الفتى الحديدة القرناء إلى سابق موضعها. بيد أن الحلقة السداسية لم تتحرك هاته المرة، فضرب الفتى علي الحديدة القرناء بتمام قوته ودفعها دفعًا، حتى فجأة انخلعت الحديدة القرناء عن الحلقة السداسية، فرشق طرفها الحاد في أصابعي رشقًا. شعرت بحرقة مؤلمة في يدي، فتأوهت عاليًا، وأفلت يدي عن قائم العجلة الحديد. فقال الفتى: «ما الخطب؟»

نظرت في يدي التي كانت قد جرى على بعض أصابعها خطوط من الدماء في آن واحد، وبيدي الأخرى قبضت على معصمي الجريح، ثم نكصت إلى الوراء. أما الفتي الذي كان قد ساوره قلق، فما لبث أن قال: «مهلك، دعني أتفقد جرحك.»

لكني تراجعت خطوة أخرى إلى الوراء متجاهلًا إياه، ثم إني استدرت، ووليته دبري مذعورًا من هول ما رأيت.

الفصل الرابع عشر

كانت كتابات كافور كتابات أليمة. كانت قراءتها عصية، وتُعنّينا. فصعوبة قراءة نص قديم مخطوط على أوراق بالية ممزقة هذا من جهة، وصعوبة تصور ما قد حلّ بكافور هذا من جهة أخرى كانا أمرين يُعنّيانا معًا. التفكير في ذاك الرجل العالِم الرقيق القلب وإنه يخوض كل تلك المِحن الشداد كان من شأنه أن يحزننا. وكان الاعتقاد بصحة ما نقرأه يبرز كل شيء مخيفًا. وكأن اضطراب كاتب هذه الكلمات، وجد مسلكه عبر الورق إلى قلوبنا. وكأنه من خط يده كان من الممكن أن يُفهم كيف كانت أنفاسه تتلاحق وقتما يكتب، وكيف ارتجفت يده وهربت الكلمات من تحت مداده عندما كان يصف الحوادث المروعة التي اجتازها. على هذا النحو جعلت أنفاسنا تتسارع في أثناء القراءة نحن أيضًا، وأجسادنا ترتجف، وكأننا نشاطر كافورًا كل تلك المِحن. لما أن تنحنح أكبر عند الظهيرة قائلًا: يا الله، ودخل الغرفة وبسط مائدة الطعام، وضعنا الأوراق جانبًا. لكنا بدلًا من أن نتناول الطعام، حدق أحدنا إلى الآخر في صمت ذلك للحظات. رص أكبر على المائدة ثلاثة أطباق، وثلاث ملاعق، وثلاث شوك، ثم وضع الرائب، والبَقل، والخبز، وفي آخر الأمر وضع في وسط السفرة صحن أرز كبيرًا للتقديم، وآنية من يخنة القيمة(20). سألنا هل نحتاج شيئًا آخر. نظرنا إليه لحظات، ثم تنبه أبي قبلي أنا وليلى قائلًا: «شكرًا لك.... إن احتجنا نخبركم عندئذٍ.»

ثم خرج أكبر من الغرفة بأدب جم دون أن يولي لنا ظهره. وما تحول عن باب الغرفة، إلا وقال أبي: «السيد....»

وكأنه كان يبحث عن اسم رجل ما، وعندما لم يعثر عليه كرر قوله: «هل لديك أخبار جديدة عن السيد؟!»

فقال أكبر بنبرة مشوبة بالحزن: «كلا، لا يمكنني الاتصال به إلا مرة واحدة في اليوم، الأخبار كما قلت.»

مكث أبي قليلًا، فقال: « سنبذل جميعًا قصارى جهدنا.»

فهز أكبر رأسه، وقال: «أعلم.»

وذهب. بقينا صامتين بعضًا من الوقت، حتى قال أبي: «تقدما، سوف يبرد الأكل.»

وتقدم هو بنفسه إلى المائدة. مضيت أنا وليلى، وتناولنا الطعام في صمت تام. عندما فرغنا من تناول الطعام، بدا أن لا أحد منا كان في مزاج ليعود إلى العمل، لذا استمر صمتنا على المائدة، حتى قال أبي: «ما رأيكما بأن نحرج نتمشى قليلًا ونعود؟ هكذا سنكون أفضل.»

فقالت ليلى: «لا أمانع، لكنّ لا يوجد متسع من الوقت.»

فقال أبي: «إذا نلنا قسط راحة، فسوف ننجز أسرع.»

حينئذٍ سلكنا طريقنا إلى خارج الغرفة. وقلنا لأكبر الذي كان واقفًا بجانب الباب إنا لن نتأخر، ففتح لنا على كُرهٍ الباب. في الخارج سرنا بين الأزقة القديمة الضيقة وتعاريجها. كانت الأزقة في هدأة الظهيرة ساكنة لا ضجيج ولا صخب، وكانت الجدران من الطين والقش على جانبيها تشعرنا بحال غريبة. قالت ليلى: «ما أعجب حال هذا المكان!»

فقال أبي: «هذه الأزقة هي آخر الآثار الباقية عن الأزمنة الماضية. سوف يهدمونها هي أيضًا بعد مدة من الزمان، وحينئذٍ لن يبقى لنا سوى الكتب لندرك شيئًا عن الماضي.»

كنت لا أزال متأثرًا بجو مخطوطات كافور، ورؤية تلك الأزقة الخالية والمباني القديمة على جانبيها عززت هذه الحالة المزاجية. قلت: «أتذكر أن رضا قُلي في ثنايا أحداث قصته كان قد أشار إلى شخص آخر بعض إشارات، شخص يبدو أنه كان شجن في القصر، ليس بعيدًا أبدًا أن يكون ذلك الرجل كافورًا. إن كان الأمر كذلك، فبمقارنة ما جاء في مخطوطات كافور بما جاء في مخطوطات رضا قُلي ربما تتضح أشياء، وحينها ننقذ ذلك السيد... ذلك الذي لا أعرف له اسمًا.»

فقال ليلى: «بالطبع إنك تتذكر ما قالته السيدة الفرنّية! قالت إن رضا قُلي قد قُتل.»

فكرت قليلًا، وقلت: «ثمت أشياء في ذلك الكلام غير منطقية. من المستبعد تمامًا أن يكون قد وقع لرضا قُلي مكروه.»

ربما كان من الأفضل لو قلت أني أرجو ألا يكون قد وقع لرضا قُلي مكروه. لقد كنت منغمسًا في عالم مذكرات رضا قُلي، حتى إني لم أعد أريد أصلًا أن تنكشف الحقيقة، فيتبدى لي العالم الذي كنت أعيش فيه وهمًا وخيالًا. لهذه الأسباب لم أستمر في الحديث، وآثرت تفقد المباني القديمة من حولي.

في أثناء عبورنا الأزقة، أدركنا مبنى كبيرًا كانت قد نصبت قبالته سقالة حديدية وعدد من الأنفار يعملون على واجهته الجصية. قال

أبي: «إنهم يرممونه.»

فقالت ليلى: «الحمد لله أنهم لا يهدمونه.»

فقال أبي: «سوف يحولون هذه البيوت إلى فنادق صغيرة، وهناك الكثير من المؤيدين لذلك، فكثير من الناس يأتون من آخر الدنيا إلى هنا، ليبيتوا ليلتهم في هذه البيوت.»

نظرنا جميعًا إلى ما كان العمال يقومون به على السقالة. كان أحد العمال يكشط طبقة من الجص عن أحد الأعمدة العريضة بواسطة آلة كهربائية صغيرة تصدر صوتًا حادًا للغاية. قال أبي: «ربما كان على العمود نقش قد ليط فيما بعد بالجص، والآن يكشطون الجص، حتى يبرز النقش مرة أخرى.»

فقالت ليلى دون مقدمات: «سقى الله أيام يَزْد....»

هزتنا كلماتها. كانت تلك الجملة القصيرة كافية لأن تسلمنا إلى ذكريات كنا نحاول نسيانها منذ زمن. كانت مدينة يزد تمثل لنا ذكرى آخر سفرة لنا مع أمنا. كانت رحلتنا التي استغرقت ثلاثة أيام إلى تلك المدينة، على كل ما فيها من عذوبة، تمثل ذكرى بداية مرض أمي. في اليوم الأخير من رحلتنا كنا نتنزه نحن الأربعة في أزقة حي فهادن القديم، ونتأمل جدران البيوت من القش والطين والأبواب الخشبية، والقيشاني الأزرق الذي يزين واجهتها. كان كل شيء في أفضل حالاته. ورحنا نتحدث معًا ونتضاحك.

كنا قد غادرنا للتو محل إقامتنا في نُزل الضيوف، وبطوننا متخمة من وجبة الإفطار الدسمة التي تناولنا. كنا في منتصف الأسبوع ولم

يعد كثيرٌ من المارة يترددون على أزقة فهادان الترابية. في منعطف أحد الأزقة لفتت أنظارنا صورًا ملونة على باب أحد إستوديوهات التصوير القديمة. كان على زجاج باب إستوديو التصوير صور فردية وجماعية لأناس بأزياء قديمة تذكر الواحد منا بالأفلام التاريخية. ووسط تلك الصور كان كتب على لافتة صغيرة: «صور بثياب تاريخية، صور عائلية بثياب ملكية.»

ضحكنا نحن الأربعة على عبارة: «ثياب ملكية» وتأملنا الصور. قالت ليلى: «ما أروعها من صور!»

قالت أمي: «لنأخذ نحن أيضًا صورة.»

ضحك أبي، وقال: «لا أجرؤ على أخذ صورة بهذه الثياب.»

فأصرت أمي: «إنه أمر طريف، دعنا نأخذ صورة.»

فوافق أبي، كذلك لم أمانع أنا وليلى. دخلنا أستوديو التصوير، وفي شبه ظلامه، لمحنا عرشًا خشبيًا عظيمًا مغطى ببسط ونمارق مزركشة كان من المفترض أن يكون منصة التصوير الرئيسية. عندما دخلنا، تقدم رجل هرم قصير القامة، وألقى علينا التحية، ورحب بنا بلهجته اليزدية الثقيلة المغلظة. قال بابا: «نريد أن نلتقط صورة لهذه العائلة الملكية.»

فضحك الرجل الهرم ، وقال: «أجنابكم قِبلة العالم(21)؟!»

فانفجر أبي فجأة من الضحك، وأجابه: «ألا يبدو من هيئتي؟»

فهز الرجل الهرم رأسه، وقال مازحًا: «طبعًا، طبعًا، اللعنة على من ينكر ذاك.»

ثم إنه أشار إلى أمي، وقال: «هذه هي الملكة، وزهرتا الشباب هذان الأميران. أليس كذلك؟»

فقال أبي: «هذا صحيح بالفعل»

أرانا الرجل الهرم بعض أطقم من الثياب جهة إستوديو التصوير الأخرى كانت معلقة على علاقة ثياب، وقال: «لقد كتبت على كل منها تخص من، تناولوها، وارتدوها واحدًا واحدًا، وتهيأوا حتى أجيء وألتقط لكم صورة. »

جهة جدار أستوديو التصوير، كان يوجد طاقمان من الثياب قد كتب عليهما: «قِبلة العَالم» و«الملكة.» وبعض أطقم أخرى ذات قياسات كبيرة وصغيرة، كُتب عليها: «الأمير.»

ضاحكين اتجهنا إلى الملابس. تناولت أمي وأبي ملابسهما بسهولة، أما أنا وليلى فقد أطلنا البحث كي نعثر على ثياب على مقاسينا. دخلت أمي أولًا إلى غرفة تبديل الملابس وارتدت ثوبها، وخرجت علينا. ذُهلنا جميعًا حين رأينا أمي، كانت جميلة حقًا. لقد جعلها الفستان الساتان الأزرق بحواشيه المزركشة بخيوط مُذهبة، والرداء الأخضر المُقصب والثويج الذهبي على الوشاح الأسود اللون ملكة بحق. لما أن رأي أبي أمي قال: «كم تبدين رائعة يا آذرا»

ولقد أكدت أنا وليلى كلام أبي، فابتسمت أمي مثل فتاة خجولة، وأحنت رأسها حياء، ثم قالت: «شكرًا.»

بعد ذلك لبست أنا وليلى ثيابنا واحدًا تلو الآخر، وخرجنا. وفي النهاية دخل أبي إلى غرفة تبديل الثياب، وأطل بثوب مُزركش،

ورداء أسود اللون على عاتقه، و على الكتف يضع وشاحًا ذهبًا. كان قد توج رأسه بتاج ذهبي كبير يغطي صلعته، ويبدي وجهه أكثر شبابًا وحيوية مما هو عليه. كذلك نظرنا نحن الأربعة بعضنا إلى بعض، وتحدثنا عن ملابسنا وضحكنا. تقدم المصور اليزدي منا، وتأملنا، وقال بلهجة أهل يزد إننا جميعًا نبدو رائعين للغاية. ثم وكأنه تذكر شيئًا لتوه، فقال: «انتظروا دقيقة واحدة.»

وذهب وأخرج شيئًا من درج مكتبه، وعاد إلى أبي. خلع عنه التاج، ومرر من رأسه شاربًا طويلًا معقوفًا له رباط مطاطي من خلفه، وثبته أعلى شفتيه. ثم قال: «لا يصح أن يكون قِبلة العالم بلا شارب.»

وأعاد وضع التاج على رأس أبي، وذهب يستعد لالتقاط الصورة. كان وجه أبي قد صار مضحكًا للغاية بهذا الشارب المستعار. ضحكنا جميعًا، أنا، ليلى، بابا، ماما التي كانت تضحك من أعماق قلبها. وعندما رآنا أبي نضحك من هيئته وضع يده على خصره، واتخذ وضعية ملوكية، ثم قال: أتضحكون من شاربنا الهمايوني(22)؟ بإشارة منا ليفعلنّ بكم ما...»

ولم يكد يتم جملته، حتى تمزق رباط شاربه المطاطي، وطار شاربه الهمايوني في الهواء. ذهل أبي لما تطاير شاربه وصمت هنيهة. أما نحن فذهلنا مثله أولًا ثم أما لبثنا أن ضحكنا أكثر من ذي قبل وأعلى. ضحكنا، حتى لقد دمعت عيوننا من فرط الضحك. ومن خلف ستار الدموع أبصرت أمي لا تضحك، إذ كانت قد وضعت يدها على صدرها، وجلست على الأرض. حينئذٍ توقفت ضحكاتنا، وذهب أبي

وجلس إلى أمي، فوضع يديه على كتفيها، وقال: «ما الخطب يا آذر؟!»

وسرعان ما تظاهرت أمي أنها بخير، وقالت: «لا شيء. قلبي يؤلمني قليلًا.»

وقامت بصعوبة. أعان أبي أمي لتجلس على العرش الذي قد وُضع ليكون ديكورًا في الإستوديو. أحضر المصور لأمي الماء. أخذ أبي يدلك ظهر كتف أمي. ولما تحسنت حال أمي، قامت فقالت: «لنأخذ صورتنا.»

عندئذٍ تذكرنا لتونا سبب وجودنا في ذلك المكان. بفتور اتخذنا مواضعنا على عجل ووقفنا تحت أضواء البروجيكترات الباهتة، والتقط المصور لنا صورة. لكنا لم نعلق تلك الصورة قط على جدار، ونؤطرها بإطار حولها. إنما وضعناها بين صور الألبوم في الدرج، الصورة التي كانت أمي بابتسامة ممزوجة بالألم تنظر محدقة إلى كاميرا التصوير، في حين كنت أنا وليلى وقفنا في حالة من الاضطراب، ووقف أبي دون شاربه المستعار متوجًا بتاج لم ينتبه أحد إلى أنه قد مال عن رأسه كملك مهزوم ضاع مُلكه، وكان قد شرد بنظره إلى أفق بعيد.

الفصل الخامس عشر

كنت قد جلست عند المغيب على سطوح المدرسة المقبب أتأمل أفول الشمس، ولا أزال أجد لجرح يدي لذعًا، فقد ثلت عليه منذ الصباح قدر ثلاث مرات وما انقطع لذعه. كان جرحًا مُستدقًا كخط قد تخطى ثلاثة أصابع من يدي اليمنى إلى ظهرها حتى شارف معصمي. لم يكن جرحًا عميقًا، بل خدشًا من أثر سقوط حديدة الفتى الدرّاج القرناء على يدي، بيد أنه كان يلذعني ويوجعني. أخفيت عن بيوك أغا جرحي، خشية أنه إذ رآه، ظن أني ذهبت إلى مكان ما وأثمت إثمًا. فأسررت أمر الجرح في نفسي، وتناسيته. كنت أجهد لأصرف نفسي عن الجرح إلى التفكير في أشياء أخر، فيما كنت عاينته في بئر الظلمات، في كنز راضي ودليله. كنت على وثوق من أن راضيًا سوف يلاحقني عما قريب، لأخبره بمخبأ النقود.

كنت على وثوق من أن يديّ لن تنالا من هذه النقود شيئًا، وأن مرّد هذي الثروة الطائلة إلى راضي وحده. كان راضي ميتًا، لا يدرك للأكل طعمًا، ولا يسعه بأي حال أن ينتفع بذاك المال وتلك الثروة انتفاع رجل حي يرزق. تساءلت لو كان هذا المال لي، كيف كنت لأتصرف. تذكرت شكورًا والمال الذي كان ادّخره، وقتما كنت أتوهم أن والديّ باعاني، فاتفقنا أن نرتحل معًا إلى مدينة غير هذي، إلى مكان قصي مرماه، نعتاش بهذا المال، المال الذي في آخر الأمر أصاب فرّوخ منه القدر الأوفر. والآن بت أتمنى أن أغنم المال، وأدبر معيشة هانئة لي ولوالديّ وشقيقتيّ. كان هذا المال قد أُخفي في مكان ما في قصر نُويان خان، لا يعلم به أحد.

كانت الشمس آخذة في الأفول، وقد ألقت أسقف البيوت المقببة بظلال بعضها على بعض، حينئذٍ أخذت تهب ريح صرّ من أفق بعيد اقشعر لها بدني. توكأت على سقف المدرسة الذي كان من القش والطين، فقمت. هبط مصعده، ثم صرت إلى الفناء الساكن، ومنه ولجت دهليز المدرسة الذي كانت الظلمة تسربت إليه، و يتراءى في منتهاه نور سراج في غرفة المعلمين. مررت بالغرف غرفة غرفة، حتى قربت من غرفة المعلمين، فآنست صوت الميرزا حسن خان، إذ لم أنتبه لجيئته، علّه كان قدم وإني على السطوح. سررت لجيئته، وهممت أن أذهب لرؤيته، لولا أن صوت رجل آخر كان يتحدث إليه جعلني رابضًا في مكاني. قال الرجل: «مهما أحسب حسبتي يا ميرزا للأمر وأُقدر، لا يتفق لي، إذا كنت لا تنوي غلق المدرسة شهرًا أو شهرين آخرين، فأولى بك أن تفكر منذ الآن. إن ثمن الأقوات في علو يناطح الأفلاك، والإيجار كذا مرتفع، كذلك فإن رواتب المعلمين غدت قاصمة للظهر وأنت على ذلك آخذ في استجلاب معلمين جُدد إلى المدرسة.»

ثم اعتراه صمت. تبينت صوت الرجل، كان الميرزا أجود ناظم المدرسة. كنت قد رأيته قبل عدة أيام وإنه يلقي على بيوك أغا بعض أسئلة، ويدون أشياء في دفتر معه. ثم من بعد ذلك سمعت الميرزا حسن الذي قال: «هب أن ما تقوله حقيقة، هب أن إعانة عبد الرحيم خان لنا لم توافنا في القريب العاجل، فما ينبغي لنا أن نفعل الآن؟!»

فأجاب الميرزا جواد فورئذ: «إجابة سؤالك سهلة يسيرة، إما أن تقلل خرجك، وإما أن تزيد دخلك. خذ من الناس مزيدًا من المال.»

فقال الميرزا حسن: «إن الناس وعلى هذا المبلغ الزهيد لا يجيئون ببنيهم إلى المدرسة، أأزيده فلا يأتي أحد بعد الآن؟!»

فقال الميرزا جواد: «إذن قلل نفقاتك.»

فقال الميرزا: «نفقات مثل ماذا؟»

فقال الميرزا جواد: «قُل لأولاء الصبية ذوي الخَصَاصَةِ الذين قيدت اسماءهم، أن يغادروا على أن يفدوا السنة القادمة.»

فقال الميرزا حسن خان: «لا يمكن للأمور أن تمضي هكذا، أن يدرس كل ذي مال أما غير ذي مال فلا يدرس، كان من المقرر أن ننفق المال الذي نجنيه من الموسرين على تعليم الصبية من الفقراء.»

فقال الميرزا جواد: «نفقة التعليم، لا نفقة المطعم والمشرب والمرقد، وغير ذلك من المصارف.»

فقال الميرزا: «لكنما الصبية الوافدون من مدن وقرى أخرى، لا ينبغي أن يناموا في الشارع!»

فقال الميرزا جواد: «الرأي في الآخر رأيك... ما علينا إلا البلاغ.»

اخترقت كلمات الميرزا جواد قلبي كطعنة خنجر. أصقع الصّقيع جسدي، وأخذت الرعدة رجليّ. واستعرت حرقة وجع يديّ. ويا لأضغاث الأفكار التي هجست في نفسي عندئذٍ دفعة واحدة. خنقتني العَبرة، واغرورقت عيناي. عندئذٍ قال أحد من وراء: «لمَ تقف هنا؟»

ارتجفت لسماع صوته، فاستدرت ورأيت بيوك أغا الذي كان ممسكًا

بحفنة من الأوراق وكأنه كان يهم بأن يدخل الغرفة عند الميرزا حسن. فقلت: «لا شيء... لا شيء جئت لأسألك تأمرني بشيء؟!»

فقال بيوك أغا: «لا شيء، لقد خرج أصغر وإبراهيم، ولمّا يعودا بعد، اذهب إلى المطبخ واحضر من هناك سراجًا فاسرجه واحمله إلى الغرفة. وعندما يأتي ذانك الاثنان، أجيء فأطعمكم جميعًا.»

فقلت: «أمرك.»

وسرت تجاه المطبخ. كانت رجلايّ مُثّاقلتين وكأني أصّعد مرتقى وعرًا. كنت أتقدم متوعر الخطى وفي نفس الوقت أفكر في القرار الفارق الذي اتخذت.

الفصل السادس عشر

كان الألم يفري جسدي. كانت ذراعي اليمنى متورمة، وفي ذاك الجانب أجد وخزًا في أضلعي، حتى إن التقاط النَفس كان قد أمسى شاقًا. فكلما نشقت نفسًا أتوجع، فما أزفره إلا وازددت وجعًا. كان هذا كله من أثر الرفسات التي تلقيتها في ذاك البيت الأسود من أولئك الجُناة الأوغاد. على أن كل هذا كله ما كان ليزعجني بمثل أضغاث أفكاري التي لم تنفك تصول في خلدي وتجول.

عندما خرجت من القصر المخوف، كان الألم قد هيمن عليّ جسمًا وروحًا. وقد تخثر الدم خلال أسناني، كذا أخذ فكي الشفلي يؤلمني كل الألم، حتى لقد حسبت أن لن أقدر بعد الآن أطعم طعامًا. كان رأسي لا يزال دائخًا من وقع الضربات، ولولا تكالب صنوف الألم عليّ، لحسبت أن أضغاث الأفكار التي وجدت إلى ذهني مسلكًا، ما هي إلا ذكرى كرّت من ذياك الكابوس المخوف الذي قد بليت به ليلة أمس في منامي. لكن الألم كان لا يزال يستشري في أوصالي، ويذكرني إن سهوت بأن ما رأيته كان حقًا وحقيقة.

كانت مهلتي التي أمليت ثلاثة أيام فقط، ذلك حتى أصنع ترياق مسحوق الخدر، وأنقذ المريض الذي كان يصيح على فراشه في قصر زقاق صاحب الديوان، الرجل الذي على قول المحيطين به كان عمله هو خطف الصغار، وبيعهم لتجار لم تتبق في قلوبهم مثقال ذرة رحمة ليرحموا بها طفلًا. وأنا الذي ما آذيت طفلًا في عمري قط، كان لزامًا عليّ أن أنقذ مجرمًا فاسدًا لا يُدرى كم من طفل قد أشقاه في حياته حتى ذلك الحين! وكنت أعلم أني إلاّ امتثلت للأمر، يحصد

أولاء المجرمين روحي أنا وزوجي وولدي بضربة من شفارهم الباترة.

كنت قد جلست مستندًا إلى الجدار، وأفكر. ومهما سألتني زوجي عما ألمَّ بي حتى أصبح وجهي على هذا النحو مكدومًا مرضوضًا، ما كنت أصدقها جوابًا. ولما أن أصرت إصرارًا، قلت أني تشاجرت مع مبتزي المال، واشتبكت، ثم من بعدئذٍ قمت بمشقة، وذهبت إلى غرفتي في ركن أنبار متجرة معين التجار التي كانت بفضل من حسن على خان مكتبة لي. هناك استرحت، وعاودت التفكير فيما أحلَّ بي. كان عصيًا عليَّ تقديم العون لذاك الرجل ذي القلب المتحجر، وأياديه، وأعوانه المتورطين معه. كنت راغبًا عن أن أطلق يديه ليباشر مفاسد أعماله القادمة بإنقاذي له. عندئذٍ قلت لنفسي أني كنت فكرت من قبل في صنع هذا الترياق من أجل إنجاء ولدي ياقوت. وسعيًا مني لإيجاده، وزّقت صفحات كتاب القانون لأبي علي بن سينا، وكتاب زاد المسافرين وكتاب الطب الأكبر وطالعت، إذن أستمر في عملي، وأصنع ترياقًا. بيد أن هذا لم يكن خاتمة أفكاري، إذ عادت صورة ذاك الرجل الطريح الفراش تتراءى لي. هل كنت أريد أن أنهضه عن فراش المرض، فيباشر عمله في بيع الأطفال المعصومين؟! ألن أكون بمثل هذا شريكًا له في مفاسده؟!

وتحت وطأة هواجسي المضطربات قمت، وبدأت أجول في المكان. لقد دفعت قدماي الواهنتان المرتعشتان ثمن ذهني المضطرب إذ كان عليهما أن تنوءا بحمل جسدي المترع بالكدمات والرضوض من جانب في أنبار بيت التجارة إلى الجانب الآخر. كنت أذرع الأنبار وأقلب فكري، حتى في آخر التطواف خطر لي أن

أجدادي جميعًا كانوا أطباء، وما من طبيب إذ يطبب مريضًا يستفسر عن أخلاقه ومسلكه. قلت لنفسي إذما كانت مشيئة الله أن يبقى المريض حيًا، فما يكون لطبيب أن ينكر التقدير الإلهي أو يخالفه. لم أزل هكذا حتى في النهاية هونت على نفسي التّعنّي من تقديم العون إلى ذاك الرجل المتحجر، وعكفت على تصنيع الترياق.

خلطت الأعشاب والمساحيق المتنوعة، وأضفت إلى كل منها قليلًا من فضلة عشبة الجونجادا، حتى أحصل في النهاية على الترياق. لقد قيدت نتيجة كل اختبار أولًا بأول في كُتيب تحقيقاتي. كان كل اختبار أجريه يدنيني من مبتغاي خطوة، حتى في النهاية وجدت أنه نظرًا لأن المادة السامة في الجونجادا تؤثر مباشرة على الجهاز العصبي للإنسان، فيا حبذا لو أخصص دواء مقويًا للأعصاب مُسكنًا للنفس كأساس في العلاج. من هنا، التفت إلى نبات السورنجان الكرماني، أرتأيت أنه يلزم أن أنقع أصل السورنجان في الماء، ثم أعتصره، فأستخلص منه عصارته، وحينئذٍ أضيف إليه عُصارة الجونجادا وشوبًا من الأدوية الأخرى، ثم أبدأ بعملية التقطير، وأستخرج منه مسحوق الترياق. وهذا ما حدث في آخر أيام المهلة المحددة لصنع الترياق.

ولما وجدت لزامًا أن أمرث أصل السورنجان يومًا بليلته في الماء، حتى يتهيأ للاعتصار، ولم يكن في ذلك اليوم لي شغل آخر به أقوم، فكرت أن أهتبل الفرصة، فأقصد ينبوع عليّ وأتفقد أحوال رفيقي الحميم ألماس. وعلى ذا غادرت البيت منذ باكورة الصباح، وقصدت بالعربة سبيلي إلى ينبوع عليّ، ففي ذلك اليوم من الأسبوع، وفي تلكم الساعة من اليوم، كان منتزه ينبوع عليّ خلوًا، ما يكاد يتردد

إليه أحد. ترجلت عن العربة، فدفعت الأجرة، وصرت إلى مقهى المشدي رجب. كنت أعلم أن ألماس كلما شد الرحال إلى يبنوع عليّ، قضى جل وقته عند تلكم الصخرة حيثما قضت زوجه عنبر، ثم قصد مقهى المشدي رجب لمبيت ليلته، ولنومته، ولأكلته. وكأين من مرة ذهبنا معًا إلى هذا المقهى، ومن هنا تعرفت مكانه وتعرفت بصاحبه أيضًا. مشيت على امتداد مسار العربة المفروش بالحصباء إلى حيث ضفة النهر. ومن هناك سرت والنهر، ثم مررت بنحو ثلاثة مقاهي أخريات، حتى وصلت أخيرًا إلى مقهى المشدي رجب.

دخلت، فجلت بصري فيما حولي عسى أجد ألماس، فألفيت معظم الدكك شواغر إلا من رجلين كانا قد جلسا ويدخنان الشيشة. نظرت خلف طاولة الإدارة والبيع في المقهى، كذا لم يكن من أحد. حسبت أن ألماس قد مضى إلى سفح الجبل ليجلس إلى الصخرة مطرح وفاة زوجه، ويتفكر في حبيبته الفقيدة كدأبه. استدرت لأخرج من المقهى، وأمضى تجاه الجبل. لكني ما خرجت من المقهى، إلا وهتف هاتف من وراء: «مالي لم أرك منذ زمن...»

استدرت، ونظرت ورائي، إذ كان المشدي رجب قد شب برأسه من خلف طاولته. طارحته السلام لما رأيته. رد السلام، وعاد قائلًا: «أخيرًا جاء أحد!»

لم أفهم مقصده، وفي الوقت الذي كنت أنظر إليه مندهشًا، أردف: «ما لك لم تسأل عن صاحبك؟!»

فكرت هنية، ثم قالت: «من؟ ألماس؟! »

فقال: «أجل ذاك المسكين، لماذا لم يأته أحد؟ مضى له أسبوع وقد

أثقلته تباريح الكروب هنا، وكلما كنت أقول دعني أرسل أحدًا إلى المدينة يقفو أثر رفاقك ومعارفك، قال لا، والظاهر أنه لم يخطر على بال أي منكم.»

تجمد جسدي المكدود المرضوض، وامتلأ فاهي بمرارة مغلظة، ففتحته بمشقة، وعاودت سؤالي: «ألماس؟!»

فأجاب: «أجل، ألماس.»

فقلت: «وأين هو الآن؟»

فقال: «وهل يجدي مكانه الآن؟ إنه ملحود بقبره... كان لزامًا أن تأتيه باكرًا، لطالما...»

هوت كلمات المشدي رجب على نفسي هُوِيًا كان قد ضاهى اللكمات والركلات التي أثخنني بها الجناة قاطني ذلك القصر المهيب على رأسي ووجهي. هطلت عليّ الضربات واحدة تردفها الأخرى، حتى لف الألم ذاتي. عاد فمي ينزف، عاد رأسي يدور، عادت ساقاي إلى ضعفهما و ووهنهما. بمشقة اجتررت نفسي إلى الدكة التي كانت إلى جانب الباب، وإذ ذاك عزبت عن الوعي مغشيًا عليّ.

لما أفقت من غشيتي، ألفيت المشدي رجب ومعه نفر آخر كانا يلينان كتفيّ. أحضرا لي الماء، وحلوى السكر، ثم من بعدئذٍ الشاي الذي امتنعت عن شربه. كان تصور موت صديقي الأعز ألماس وإنه يقاسي مرارة الغربة والوحدة أمرًا مضنيًا، إلى حد أنه جعلني أتمنى لو أرقد تلك اللحظة في القبر إلى جواره. كان أول ما سألت المشدي رجب عنه متى توفي ألماس؟ فكان جوابه أن لم تكن وفاته إلا

أمس. بكيت بعض الوقت، ولعنت حظي العثر أن لماذا في اليوم الذي قصدت أن ألتقي رفيقي، أقع في شرك أولاء المجرمين المتوحشين، فأعجز عن تقديم العون له. ثم إني أخذت بنصيحة المشدي رجب فتمددت على الدكة، وأغمضت عيني، حتى مثلًا أنام، وأي نوم ذاك وأنا لم أغف ولو لحظة! سَرت العَبرة المخنوقة من صدري الحري، وغصت في حلقي، ثم انكسر أوراها وتقطرت من جفنيّ المطبقين دموعًا منحدرات.

تجافيت عن مضجعي بلا حيلة، وغادرت المقهى أجر خطاي إلى النهر. وهناك اغترفت غرفة ماء نثرتها على وجهي، وجلست عند شجرة بيد مجنون(23) التي كانت أغصانها مُدلّاة، تنحدر إلى ماء النهر. كان الصمت يغشى المكان، فما كان يتناهى إلى مسمعي خلا خرير الماء والطير التي كانت بين الأفنان تصدح بشجي الألحان. استندت إلى جذع الشجرة، وأسدلت جفنيّ، وحاولت أن أسكن. وحين أغمضت عيني، اشتد خرير الماء، وحفيف الريح بأوراق الشجر، وغريد الطير التي كانت ترف بين أفنانها. ومن بينها ميزت صوتًا فاقها جميعًا، صوت طائر رجح ظني أنه كان عندليبًا يشدو متقطعًا متهدجًا. لم يكن صوته صافيًا، بل مخدوشًا يرتعش، كأنّما في حلقه غصة. كان صوته الشجي الذي يدمي الفؤاد يبين عما سواه من سائر الأصوات. خلت أنه صوت ألماس وإنه يشدو الساعة مرثية يرثي بها حبيبته الراحلة. ومذّاك تفكرت في أن ذاك الصوت المتهدج وتلك الغصة اللذين يسكنان صوت العندليب الشجي بينة ألماس، وأمارة حداده السرمد على قصة حبه الخائبة. كنت مسترسلًا وبنات أفكاري، وإذ بنفر فوق رأسي يقول: «كيف عرفت؟!»

فتحت عيني، ونظرت فوقي. لمحت من بين خيوط الضوء المتخللة أفنان شجرة بيد مجنون المُدلاة، ظل وجه المشدي رجب، فسألته: «ماذا؟»

فقال: «كيف عرفت؟»

فقلت: «عرفت ماذا؟!»

فقال: «أن المنية وافته هنا.»

فسألته: «من؟ ألماس؟!»

فقال: «أجل... في الموضع الذي تجلس.»

لا إراديًا، ركزت يدي في الأرض، واستويت في جلستي، فقلت: «هنا؟!»

جثا المشدي على ركبتيه، فجلس إلي، ثم قال: «أول الأمر كان يرتقي الجبل، عند تلك الصخرة حيث توفيت عنبر... تذكر عندما كانت زهرة تنبت هناك؟ كان يقول حينها إن عنبر هي من أرسلتها إليّ ... أول ثلاثة أيام تقريبًا كان يختلف إلى ذاك المكان، ولمّا أكن أراه وقتئذٍ، أولئك الذين كانوا يرونه راحوا يقولون أنه يجلس عند الصخرة، وكأنه يناجي زوجه مثلاً، ويقولون أنه يبكي، ويسفح الدموع. في الليلة الرابعة تقريبًا كان جاء المقهى. عندما جاء كان ألمه مُبرحًا، صنعت له بعض الشراب المُغلى، لكنه لم يتعاف. كاد يفتك به ألمه، ولا أدري ألعلة ما كان به من ألم انهدّ حيله فلم يعاود ارتقاء الجبل أم لعلة أخرى لم يرتقه مذ تلك الليلة. كان يخرج من المقهى، ويمشي بضع خطوات فيجيء إلى هاته الشجرة ويجلس تحتها، ولا

يزال يتأمل الماء. لقد جاء هنا صباح أمس، وظُهرًا بعثت إليه صبيًا يدعوه أن يقبل ليتغذّى. كان قلبي يتقطع عليه حسرات أن غدا إلى تلك الحال والمآل، لم أكن وحدي، بل جميعًا. قلت اذهب نادِه يأتي يتغدى، فلما ذهب رآه وقد نفذ فيه أمر الله عند سفح الشجرة. ما كان يجوز أن نُبقي جثته، سيما وأنه في تلك الأيام القِلال لم يكن يتفقده أحد. وعلى ضوء هذا وَسدتُه بنفسي التراب هنا في ذاك القبر. والذي تخايل لي أنه كان يتمنى لو أدفنه في هذا الموضع.»

خنقتني العَبرة مرة بعد، فكرّت دموعي تحدرًا. تنهد المشدي رجب، وقال: «تلكم الأيام إذ كان يجيء هنا، ويجلس، كان قلبي ينفطر. لا أعلم أكان يدري بقصة شجرة بيد مجنون فيأتي هنا ويستوي تحتها أم لا؟ أيًا كان، إني لأجد بين قصة صاحبك وقصة بيد المجنون شبهًا عجبًا!»

غَيّضتُ أدمعي، وأغمضت جفني ففتحهما، ثم ما لبثت أن سألته: «وما قصة بيد المجنون؟»

تارة أخرى تنهد المشدي رجب، ثم قال: «أَ ما سمعت بها أنت الآخر؟»

فقلت: «نعم!»

أومأ برأسه، وقال: «زعموا أن شجرة بيد مجنون كانت رجلًا، كان عاشقًا، فراحوا يلقبونه بالمجنون. كان يعشق فتاة، لنقل أن اسم تلك الأخرى ليلى. ذات يوم وبينا كانا يسيران والنهر، سقطت ليلى في الماء، فانحنى المجنون، فمد يده يأخذ بيدها، بيد أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلًا. جرف الماء ليلى، فانخنقت في خناقه. ولما لم يخرج من

يد المجنون شيئًا، لم يزل يبكيها أحر بكاء، ويحوي على حافة النهر فيدلي يديه إلى الماء راجيًا أن تخرج ليلى من الماء، فيأخذ بيدها. وإذ لم تعد ليلى، لم يبرح مجنونها ضفة النهر، حتى لقد يبس فصار شجرة، صار شجرة بيد مجنون التي تدلي إلى الماء أفنانها... عسى أن تخرج ليلى يومًا، فتأخذ بيدها.»

وإذ ذاك أسدلت سدول عينيّ، وأرخيت رأسي إلى شجرة بيد مجنون، وقد ملك تهدُّج شجو العندليب عليّ سمعي.

الفصل السابع عشر

كنت خائفًا! كان قصر نُويان خان يبدو لي أخوف من ذي قبل. كان بياض مبنى القصر في لجة الليل مخيفًا كمارد منطوٍ. والظلال المُترامية عليه تتراءى في نور القمر هوامًا دقيقة وكبيرة تسير على جثة ذاك المارد. توانت قدماي عن السير بي قُدمًا، لكن شيئًا في وليجة نفسي أزّني على المضي. كان صوتًا بيئًا نافذًا قلّما سمعت مثله من قبل، يقول لي إني وإن رمت عيشًا غير العيش، فحقيق عليّ غلبة خوفي وريبتي جميعًا وقطع سبيل كنت قد بدأتها إلى غاية المُنتهى. كان كنز معتمد الدولة مختفيًا في ركن من أركان هذا القصر المخيف، ولا يعلم به أحد سوايّ. ومتى تربت بذاك الكنز يدايّ، تبدل كل شيء. إني لن أكون من بعدئذٍ صبيًا قرويًا يحتال الميرزا حسن ليطعمني بزيادة رسوم الصبية ذوي المال، ولن يكون أبواي خادمين رهن إشارة من السيد قاسم خان، بل وحتى الميرزا حسن نفسه لن يُجبر بعد الآن على أن يترقب المعونة من هذا وذاك من أجل تأمين نفقات مدرسته. تذكرت مرات ملاقاتي بشكور، وطافت بي ذكرى المال الذي كان ادخره جانبًا، إذ إن المال الذي ينبغي أن أحرزه الآن، ربما كان ألفًا مما ادخر هو، وما كانت أكثر العسرات التي تتذلل لي بذلك المال حتى إن مجرد التفكير فيها جعل يبدد وهن ساقيّ، ويعزز إصراري على دخول القصر.

كنت على أهبة الذهاب إلى القصر عندما تناهي إلى مسامعي صوت من خلف بابه، فسمرني في مكاني. كان أحد ما يفتح الباب، فتشبثت بالجدار، فتراجعت، فاستترت وراء انعطافة الزقاق. اشتد أزيز الباب،

ثم سمعت صوته وهو يدور على مفصلة حديد في بطء شديد. تشبثت أكثر بالجدار، وما هي إلا أن سمعت صوت إغلاق الباب، ثم وطئات خِفاف تتقدم من جهة الباب سمتي، تراجعت أكثر، فتواريت في غور مظلم في كنف الجدار إذ كان وطء الأقدام ينذر بأنها آخذة في التقدم نحوي. ثم إني رأيت راضيًا شاخصًا بقميصه الأبيض وعليه أرخالق أسود بلا أكمام، ودون أن يراني، مرّ بالمنعطف، ومضى إلى نهاية زقاق صاحب الديوان. كان يمضي مُسرعًا والظاهر أنه في عجلة من أمره، ويقصد مكانًا ما، وربما يريد ألا يتأخر. كنت عليمًا أي طريق يلتمس، كنت أعلم أنه يمضي في سبيله إلى مدرسة رشدية، إلى هناك ليقص أثري، ويسألني عن مسكوكات معتمد الدولة. ومن حُسن طالعي أن راضيًا لم يكن يستطيع ولوج الحوض، وإلا لأمكنه رؤيتي وما سوف أفعل لو كان يستطيع الذهاب.

أما الآن فلا فرق بينه وبين سائر البشر. تبسمت حين تفكرت في حاله وقتما تبلغ خطاه المدرسة، ويرى أني لست هناك، وكيف سيحار ويضطرب، ثم بمَ سيشعر بعدما يفطن أني حزت النقود لنفسي. تربصت في مكاني، حتى تناءى. ولما أن تلاشي ظله في عتمة آخر الزقاق، تبلعت ريقي، واتجهت إلى باب القصر سريع السير خفيفه. كان راضي قد ترك الباب مواربًا، فما عاد يلزمني أن أدخل القصر من طريق ممر الماء. ورأيت في هذا فألًا طيبًا، واستيقنت نفسي أن سائر الأمور ستنقضي على هذا النحو ميسرة. غياب راضي عن القصر جعلني أهدأ حالًا، لأنه في جل الليالي كان هو الذي يصحو على أدنى صوت يصدر، ويجوب المكان بحثًا. والآن علمت أني من دونه سأمضي في أمري على نحو أيسر. دفعت الباب برفق، وولجت

الدهليز المتصدر الفناء، وأغلقت الباب ورائي، ووضعت مزلاجه أيضًا. بهذه الطريقة إن أبكر راضي في العود، فلن يتيسر له دخول القصر، وإن في تعطيله أمام الباب إمهالًا لي لأتمم مهمتي. اجتزت نفق الدهليز المظلم بخطى حثيثة، ويممت إلى الفناء. فما وضعت قدمي داخل الفناء، حتى جلجلت صرخة مفجعة قادمة من القصر، أوقفتني في مكاني. تشبثت بالجدار، ومددت إلى القصر عينيّ.

كان ضوء خافت يتسلل من نحو ثلاث من نوافذ الطابق العلوي. كان ثمت أناس في القصر لا يزالون مستيقظين، فما دريت ما عساهم يفعلون. كنت خائفًا أيما خوف، وأجهل ما تعنيه تلك الصرخة المنكرة. لقد رأيت من قبل صبية يُنكل بهم لِما يقترفون من أخطاء، وحتى يكونوا نكالًا وعبرة للآخرين، أما معاقبة وإيذاء رجل وفي هذا الهزيع من الليل كان حادثًا غريبًا غير مسبوق لم أشهد له مثيلًا. حبست أنفاسي، وتسمرت في مكاني بعض وقت، وما هي إلا أن خيم الصمت مرة أخرى على المكان برمته، فسمعت فرُوخًا بصوته الرفيع وإنه يتحدث إلى أحد. كان فرُوخ هناك ما يعني غلبة الخطر. تصاعد خوفي، وللحظة ندمت على مجيئي، ووددت لو أعود. غير أن التفكير في أني أيان عدت، فإني عاجلًا كان أم آجلًا واقع في براثن راضي وحينذاك أقهر على البوح بمحل النقود جعلني لا أبرح مكاني. أطبقت جفني، وأطلقت حبيس أنفاسي، واحتلت كيما أهدئ من روعي. فما هي إلا أن تجاسرت فركضت خلف الأشجار جهة الجدار. ومن هناك إلى غاية السلالم في جانب الفناء يكون بوسعي أن أجوس خلال الأشجار دون أن أرى. ثم من بعد ذلك كان عليّ أن أدرج السلم، وحينذاك تبدأ أخطر مهمة في سائر أمري ألا وهي المرور أمام الغرف،

وإيصال نفسي إلى السلالم التي هي في جهة الإيوان الأخرى، وولوج الغرفة السرية.

تنقلت بين الأشجار مترويًا. وعلى بعد خطوات، صدحت تارة أخرى صرخة مفجعة، فلبثت في مكاني فزعًا. الآن بدأت أسمع أيضًا حوارًا يدور بين بعض نفر آخرين، وصوت فرُوخ كان بين الأصوات يبين. كانت روح القصر وأجواؤه تختلف عن الليالي التي كنت أمضيتها فيه، تلك الليالي إذ كان راضي يمكث وحده مع الصبية وأحيانًا ما كان فرُوخ يمكث الليل هو الآخر في القصر، وما من ماكث عداهما في القصر ليلًا. كان نؤيان خان بذاته من وقت لآخر يغشى القصر، فيفرغ من تناول عشائه على أقصى حد، ثم ما يلبث أن يولّي. أما الآن فكأن أناسًا كثر في القصر، ومن عجب أن لا صوتًا للأطفال مسموع، وكأنما لاذ الجميع بغرفهم حذر الواردين الجدد.

وما مضى من الوقت شيء إلا وقد ومضيت بنفسي إلى أقرب شجرة من السلم. ساعتئذٍ فُتح باب إحدى غرف الطابق العلوي، وخرج منه بعض قوم. تراجعت، وتواريت خلف الشجرة. أما أولاء الذين كانوا بالأعلى، فما لبثوا أن مدوا في الإيوان خطاهم، وهبطوا الدرج. في أثناء هبوطهم، سمعت فرُوخًا وإنه يقول: «لا تغفلوا عنه هنيهة. إذما ضاقت أنفاسه ادعوني في الحال أصعد إليه. لا يحق لأي صبي مغادرة غرفته. من يخرج فيهم فامنعوه حتى آتيه صباحًا ويُمد على الفلقة.»

كان خوفي أجل وأعظم من أن أجسر على مراقبتهم من خلف الشجرة، وأبصر شيئًا. ولكن من وقع الأقدام لم يكن يخفى أن ثلاثة

رجال أو أربعة على أقل تقدير يهبطون الدرج، ويتجهون إلى جهة الفناء الأخرى. كنت أسمع حديثهم وإنهم يبينون، لكني لم أفقه شيئًا مما يقولون. ثم إني سمعت بعد ذلك سمعت صرير فتح باب غرفة في جانب الفناء وغلقه، وصوت فرُوخ وهو يهتف من تلك الجهة: « أيما نفر استعصى عليكم فاردعوه حتى الصباح... لا أرى أحدًا يأتي فيقول إني ذاهب إلى المرحاض.»

لبثت وراء الشجرة حينًا طويلًا. وفي أثناء ذلك أخذ نفران ثلاثة يتكالمون في الفناء. ثم إني سمعت صوت باب القصر وقد فُتح ثم أغلق، ثم أطبق صمت ثقيلٌ على المكان من كل كنف. رميت بنظري من خلف الشجرة، فتأملت الفناء، حيث لم يكن هناك أحد. كانت مياه الحوض في عتمة الليل في أزهى التلمع من شدة سوادها، وكانت هبات النسيم تموّج المياه. ارتأيت أن فرُوخًا قد رقد في إحدى الغرف السفلية، أما الآخرون فمكانهم لم يكن بمعلوم. تؤدت قليلًا خلف الشجرة، ولما لم يعد من حركة فأراها أو صوت فأسمعه، سللت من موضعي ماضيًا إلى السلم. لم أكد أرتقي أولى درجات السلم، حتى استدرت ونظرت حولي، فلم أجد أحدًا في المكان. صعدت في هدوء، حتى ولجت إيوان الطابق العلوي. وقفت هناك في الظلماء قبالة الجدار، ورميت بأذنيّ، فلم يرد إليها صوتٌ، وكانت الغرف مُغلقة الأبواب. كنت على وشك السير، حتى تعالت صرخة الرجل المفجعة تارة أخرى، بيد أنها في هذه المرة أعلى من قبل، ويكأن الصوت من غرفة أدنى قليلًا. التزقت من فوري بالجدار، وجعل خافقي يخفق شديدًا، وامتقع وجهي. كنت مُنظرًا أن يخرج أحد من إحدى تلك الغرف، لكن شيئًا من هذا لم يحدث. وكأنما لم يعد هناك

أحد إلا رجل يصرخ بنفسه بلا مسمع. جعل هاتف في دخيلة نفسي يقول أن مثل هذا الصوت في قصر ثويان خان حادثٌ شائعٌ لا يعبأ به أحد. بقيت في مكاني ساكتًا، لا أحرك ساكنًا.

وما مضى من الوقت شيء حتى سمعت من خلف باب الغرفة التي كنت أقف لديها صبية يتحدثون. كان بعض صبية منهم يتخافتون فيما بينهم ما جعلني لا أفقه شيئًا مما يقولون. ذكرني صوتهم بزمان إقامتي في القصر، وخطرت لي ذكريات أيامي الشِداد بين جنباته، وزمان صداقتي مع شكور. وددت لبضع لحظات لو أفتح الباب وأذهب إلى الصبية، أذهب وأتحدث إليهم، سوى أني انتهرت نفسي، ونبذت ماضي الذكرى. جررت رجليّ اللتين كانتا لم تزالا ترتعشان إلى آخر الإيوان. ومرقت من أمام عدة غرف أخرى، حتى انتهيت خلف السياج إلى قمة سلم لولبي يفضي إلى أسفل. أما ذلك السلم فكنت قد رأيته مرات من قبل مع صبية آخرين، وهبطناه معًا. كان السلم يفضي إلى باسطة مدها زهاء أربعة أقدام. وكان قبالة الباسطة سور قصير خلفه أرض خلاء رحبة تفضي إلى بستان.

كان بعضهم يظن أن المعماري الذي بنى القصر كان قد انصرف عن إكمال ذلك السلم، فتركه هكذا لا يفضي إلى مكان. أما بعضهم الآخر فكان يقول أن هذا السلم يُفضي إلى غرفة ما كان سيد القصر السابق قد سجن بعض نفر فيها، وشيد أمامهم جدارًا ليموتوا هناك. هبطت الدرج، حتى انتهيت إلى باسطة السلم. وكان ذاك المكان في الأسفل أشد ظلمة. انثنيت وتحسست الأرض، فلامست يدي نحو أربع طوبيات، حتى وصلت إلى طوبة كبيرة، كانت على الأقل تكبر الطوبات الأخرى بنحو ضعفين. كان أبو راضي محقًا، فهناك بالفعل

طوبة أكبر من الطوبات الأخريات.

أخرجت من جيبي المقراض الذي كنت قد أخذته من مطبخ المدرسة. ومتلمسًا بيدي في الظلماء ألفيت شقًا يحيط بالطوبة الكبيرة، فغرزت المقراض في الشق، وكشطت حدود الطوبة. شيئًا فشيئًا حتى اعتدت ظلماء أدنى السلم، ورأيت ذاك الشق الذي يحيط بالطوبة أوضح من ذي قبل. كانت حدود الطوبة ملأى بملاط شبيه بالصاروج(24)، إذ كانت متحجرة، ويصعب كشطها. جعلت أحرك بعسر المقراض داخل الشقوق، وأكشط. لم أكد أكشط إلا قليلًا، حتى تبينت أن أحد جوانب الطوبة يختلف عن جوانبها الثلاث الأُخر، فذاك الجانب لم يكن ينكشط كثيرًا، وكأن الطوبة كانت بُوَيبًا(25) من أحد جوانبه موصولًا بالأرض، أما جوانبه الثلاث الأُخر فخُلّت بلا وصل. جعلت أكشط وأكشط حتى حللت جوانبه الثلاث الأخر. والآن كان عليّ أن أمرر أصابعي تحته، وأرفعه عن موضعه. كان هذا الأمر عصيًا منيعًا على مثل يدي الصغيرتين، لكني لم أرعو، فرفعت طرف الطوبة بعناء، ومررت أصابع يدي اليمنى تحتها، ورفعتها، ثم دسست يدي الأخرى تحتها. كانت الطوبة ثقيلة ثِقلًا، ولا تتزحزح عن مكانها إلا بصعوبة. لكني استجمعت تمام قوتي، فرفعتها قليلًا في النهاية. لاح من تحت البُويب كُوة سوداء خرجت منها بعض هوام لونها أسود مختلفة أحجامها. راعتني رؤية تلك الهوام المقبضة، فقمت، وتراجعت. ونظرت بضع لحظات في الكوة الظاهرة من تحت البُويب، ولما رأيت أنه لم يعد يخرج شيئًا، تقدمت مرة ثانية، واعتليت البُويب. كانت رائحة الرطوبة والعطن تنفذ من داخل الحفرة إلى خارجها. جهدت غاية جهدي فرفعت البُويب أكثر، حتى

اتسعت الكوة، وانتشرت منها رائحة الهواء الرطب المتعفن. أخرجت من جيبي علبة الكبريت التي كنت قد أخذتها من مطبخ المدرسة، فسحبت منها عود كبريت، وأشعلته، فأضاءت شعلة الكبريت كل المكان. ثم إني قدمت عود الكبريت المشتعل إلى داخل الكوة، ونظرت.

أبصرت بعض سلالم تفضي إلى أسفل، تمامًا مثلما كان أبو راضي قد ذكر. اغتبطت لأن كل شيء إلى الآن كان يمضي على ما يرام. كنت مستغرقًا في تأمل ما بداخل الكوة وإذ بشعلة الكبريت نفدت، فأحرقت يدي. ألقيت العود الذي نفدت شعلته، ثم إني رفعت البُويب لأعلى بقدر أكبر يفتح لي طريقًا للنزول. بعد ذلك ولجت الكوة متمهلًا، ثم وضعت قدميّ على السلم، ونزلت بحذر. توقفت وسط السلم، وأشعلت عود كبريت آخر. في نور الكبريت أبصرت غرفة مربعة صغيرة تحوطها جدران بيضاء اللون، وفارغة من داخلها ومغبرة. وبينما كنت أنظر حولي، بغتة أغلق البُويب فوقي بضجيج. كانت الريح التي أغلقته، مثلما اطفأت شعلة الكبريت. كانت ظلماء شديدة تغشت المكان كله، فهرعت أصعد السلم هلعًا. ووقتما انتهيت إلى أوله وإني على أولى درجات الدرج رفعت كلتا يدي وثبتهما على البُويب، وبتمام قوتي دفعت، حتى فُتح ببطء. نفذ نور القمر إلى الغرفة السرية، فتنفست الصعداء . دفعت ذلك البويب حتى جعلته عموديًا منتصبًا، ثم عاودت هبوط السلم. أشعلت عود كبريت آخر، وحينها على الفور وقعت عيناي على مصطبة صغيرة كانت على جانب الغرفة الآخر، ويتبدى عليها كيس داكن لونه يعلوه تراب، كان الكيس كبيرًا إذ فوهته مربوطة بخيط ذهبي متين، وكأنما أُلقى على

تلك المصطبة خلسة بعيدًا عن الأعين. كنت في غاية السرور لرؤية الكيس. كان يليق بحجمه ذا أن يحوي جمًا من المسكوكات. ها قد نلت رغيبتي. هبطت والكبريت في يدي الدرجات الثلاثة المتبقيات، وهرعت إلى المصطبة والكيس فوقها.

الآن ما عاد يفصلني عن مُنيتي سوى أربعة خطوات لا أكثر، ولكني لم أكد أخطو ثاني خطواتي، حتى فجأة فرت الأرض من تحت قدميّ، فهويت، إذ انطفأ عود الكبريت، وسقطت من علو بضعة أقدام. صرخت لا إراديًا، وتألم تمام بدني من أثر الارتطام بالأرض، ثم خررت مُغشيًا عليّ مدة. فلما صحوت من إغماءتي، وجدت المكان برمته مظلمًا. كان جسدي يتألم، وفي فمي طعم دم نازف، وما أكاد أبصر شيئًا في تلك العتمة المطلقة. حركت يدي وقدمي بمشقة. مددت يدي حولي متحسسًا، فأتت على جذاذات خشب باردة الملمس. أخرجت بعناء علبة الكبريت من جيبي، وأشعلت عودًا آخر، في نوره جلت بطرفي المكان. كان المكان الذي وقعت فيه سردابًا صغيرًا مُلقاة في أرجائه أشياء غريبة. في الأول لم يمكنني ارتباك الوقوع، وألم جسدي الشديد من أن أرى جليًا، ولكني عندما تقصيت النظر، أبصرت المكان من حولي مكتظًا ببشر، بشر كانوا قد ماتوا قبل زمن، وقد نتأت عظامهم من أسمالهم المهترئة البالية، وتفرقت في كل مفرق.

الفصل الثامن عشر

طوال الليل ما غمض لي جفن. ملكت صورة ألماس عليّ عيني، وتصور موته ملك عليّ ذهني. لشد ما كان قلبي مُلتاعًا، ووجداني حطامًا! سألت نفسي ما لي تركت خدني الحميم في أواخر أيام حياته، لمَ لم آتيه سعيًا لما افتقر إليّ؟ لمَ لم أكن بجانبه؟ ورغم أني كنت أعرف جواب كل سؤال، وأعرف أن أسري في حبائل خاطفيّ في ذاك القصر المخوف هو ما حال بيني وبين إدراك ألماس، لم أزل أؤنب نفسي في ضميري، فجعلت أقول لو كنت أبكرت يومًا واحدًا في الذهاب إليه، ربما لم يكن ما كان. ورحت أقرع نفسي على تقصيري وغفلتي كل القرع.

واصلت الليل بالصباح مغمومًا حزنًا أجلد ذاتي جلدًا. فلما طلعت عليّ الشمس، انصرفت إلى أصول السورنجان التي كنت نقعتها في الماء، لأطحنها فأستخرج منها العصارة، وأباشر تصنيع ترياق المسحوق الخدر. كنت أعلم علم اليقين أن مهلتي لتصنيع الترياق قد انقضت ذلك اليوم، وفي غضون ساعات سوف يأتيني الخاطفون يسألون عن الترياق. لذا فإني انصرفت إلى طست الماء والأصول المنقوعة، فما أخرجتها من الماء، حتى دوى طرق على باب مخزن المتجرة. كنت أعلم أن دكان معين التجار في البازار لمّا يُفتح بعد، حتى يجيء منه إلى المخزن أحد. ولما لم يكن طارق الباب قد جاء من دكان البازار، فلا بد أنه من طرف أولاء الخاطفين. فجأة استبد الخوف بكياني، وسرت في يديّ رعشة. أعدت الأصول التي كنت قد أخرجتها إلى الماء. وخشية أن تعلم زوجي، أسرعت إلى جهة باب

الأنبار. لما فتحت الباب، فطنت أن حدسي لم يخطئ. كان يقف خلف الباب رجلان عظيما الجثة، كان كل منهما يغمد قمة(26) في طرف شال خصره، وقالا إنهما إنما جاءا ليأخذاني معهما أنا والدواء الذي صنعته. فقلت إن الدواء ليس جاهزًا بعد، وحينئذٍ اشتد غضبهما، وقال أحدهما إنهما قد أمرا بقتلي في الحال إن لم يكن الدواء جاهزًا، ثم من بعدئذٍ يقضا أثر زوجي وولدي. فقلت مرتعبًا أمهلاني قليلًا، أمزج بعض ما كنت أعددت ببعض، فأعد الترياق. وقتئذٍ أمراني بأن آخذ كل ما لدي، وأحضره معي، ثم أخلطه عند فراش المريض. فقلت ولكن أصول السورنجان لا بد أن تطحن هنا، لأستخرج عصارتها.

ساعتذاك، فكرا، فقالا إنهما سينظراني، حتى أقوم بهذا الأمر. وعلى الفور انقلبت إلى داخل الأنبار، وفي وقت كان جسدي ينتفض قلقًا ومخافة، أخرجت الأصول، فطحنتها، وبيدي المرتعشتين سكبتها في وسط قماشة، واعتصرتها، واستخلصت منها عصارتها. وما هي حتى تناولت العصارة مع المساحيق التي كنت قد أعددت من قبل، فوضعتها في كيس كتان أبيض لونه. ولكيلا أخطئ في إحدى خطوات العمل بمثل هذا الذهن المشتت، أخذت معي كُتيب تحقيقاتي أيضًا، ووضعته في الكيس، لأتبع كل خطوة فيه تمامًا مثلما كنت دونت.

بعدئذٍ أسلمت نفسي لأيادي ذينك الرجلين اللذين كانا قد وقفا أمام الباب. ذهبنا معًا حتى رأس الشارع، حيث كانت عربة تنتظرنا، فركبنا العربة. تقدم أحد الرجلين، وجلس إلى جانب الحوذي، وتراجع الآخر وجلس إلى جانبي. لم أكن أعرف ما سيحدث، وكان ارتجاج العربة الشديد، يعيني. ثبت عيني على الطريق، وأنشأت أرقب حركة الناس

وهم يسيرون. لا أدري كيف دخلت فراشة العربة، حيث اقتربت مني فراشة ترف بجناحيها الصفراوين، قبالة وجهي. وكأنها كانت تحاول أن تحط عليه. لا طوعيًا أرجعت رأسي إلى الوراء، فتراجعت الفراشة أيضًا، ثم حومت في الجو، وحطت قبالتي على ظهر مقعد الحوذي. كانت ذات جناحين بديعين مرقتين بلون أسود.

كانت ساكنة، كأنها كانت تحقق إليّ النظر وتحدق. كانت رؤية ذلك الكائن الجميل في مثل هذا الظروف المضطربة مبعث بهجة لي. حاولت أتخيل من أين جاءت، تخليتها وهي تجول بين الزهور وأغصان الشجر، وهي تحط على بتلات الزهور الملونة. كانت لا تزال تتأملني، لربما كانت تراجع ما قد جرى عليّ. وفي هذه الخلسة من الزمان، وصفو تلك الحال، كنت أنا والفراشة الصغيرة وكأنا نتجاذب هدب الحديث، وأحدنا يتفقد أحوال الآخر. وأسفاه إذ تعرقلت العربة في حفرة كبيرة، ومن شدة زلزلتها فزعت الفراشة، فطارت وذهبت، فبلغت تلك الحال الرائقة منتهاها. عند مغادرة الفراشة تمكن اليأس مني تارة أخرى، فأغمضت عينيّ، وأسندت رأسي إلى ظلة العربة، وفكرت فيما كان يتربص بي. وبعد أن طوينا مسافة بالعربة ترجلنا في زقاق صاحب الديوان، قبالة القصر المخوف. وفور أن نزلنا، فُتحت بوابة القصر، فخرج منها علينا رجلان أحدهما طويل القامة نحيل يلبس قباءً أسود اللون، يعتمر طربوشًا أبيض، والآخر سمين قصير بقباء رمادي اللون سادة. فما وضعا أقدامهما في الزقاق، حتى استدار منهما الذي كان سمينًا، وقال لمن بداخل القصر: «سنعود، لن نبرح حتى نجده.»

أما الذي كان يقف دون الباب، فلم ينبس بكلمة، وما كان منه إلا أن

أوصده. أفضى الرجل السمين ببضع كلمات لمجاوره بلسان تركي، وقد رد عليه، ثم انتأيا عن المكان مسرعي المشي. حينذاك تقدمنا، فأمسك أحد الرجلين اللذين كانا معي طراقة الباب فطرقه. بعدئذٍ فتح لنا الباب فتى رفيع ذو وجه مصفر، طافح بالبثور، وإنه في حال من الغضب والانفعال. وكأنما هم ليقول شيئًا لكنه عندما رآني بين الرجلين الآخرين، ابتلع كلامه، وأخذ جانبًا مفسحًا لنا طريقًا لندخل القصر. مررنا بالدهليز المظلم، وصرنا منه إلى الفناء. كان صخب جماعة من الصبية في الطابق العلوي من القصر يتردد رجعه في أرجاء الفناء. كان فرُّوخ واقفًا قرب الحوض الكبير ذي المياه الدكنة الآسنة، وحين كنا نتقدم إليه، راح هو يرمقنا. لما أدركناه، ألقيت عليه السلام، وبدلًا من يرد سلامي، التفت إلى الرجلين اللذين معي، وقال: «أرى أنكما جئتما به حيًا، أتراه صنع الدواء؟!»

أشار أحد الرجلين إلى الكيس الذي في يدي، وقال: «الظاهر أنه في هذا.»

صوب فرُّوخ النظر إليّ، وسألني: «كل هذا؟!... ما الأمر؟»

فأجبت: «لمّا يكتمل تصنيعه بعد، أمهلني رويدًا، أمزج المكونات.»

استشاط فرُّوخ غضبًا، وتقدم خطوة، فصفع كل امرئ من الرجلين اللذين معي صفعة، وصرخ: «ألم أقل لكما إن لم يكن جهز الدواء، فاجهزا عليه.»

اضطربت وكأن الصفعتين المحكمتين قد وجهتا إليّ أنا، وارتعدت أوصالي، فسقط الكيس من يدي، وكدت أفقد وعيي. فتحت فمي بعناء، وقلت: «جاهز... جاهز، ليس عليّ سوى أن أركّبه. ما كنت

أظن أن تأتوا لتسألوني عنه بتلك السرعة، كان لزامًا أن يُنقع أصل السورنجان في الماء، فاضطررت إلى أن أنتظر حتى الصباح.»

ودون أن يعيرني فرُوخ نظرة، التفت إليّ الرجلين الواقفين بجانبي، وقال: «خذاه إلى السرداب، إن أنجز مهمته قبل الظهر كان بها، وإلا فاقتلاه في مكانه.»

التقطت أنفاسي فزعًا، فقلت: «أنا بحاجة أيضًا إلى مصباح، يجب أن أبخر العصارة.»

ولىّ فرُوخ ظهره لنا، وقال وهو يبتعد: «اجلبا له ما يلزمه، انتظرا حتى إبان الظهيرة لا مزيد، وعندما يُرفع الأذان، إن لم يكن قد أنجز شيئًا، فافعلا ما أمرتكما به.»

ابتعد فرُوخ عنا خطوات. وبقيت أنا والرجلان اللذان كانا معي متجمدين في مواضعنا. تناهت إلى الأسماع صرخة الشاب المفجعة مدوية من طابق الفناء العلوي، فرفعت هامتي، ورأيت ثلة من الصبية، كانوا يرقبون المشهد، ومن خلال درابزين الإيوان يوجهون أنظارهم إلى الفناء. ووقتئذٍ قبض أحد الرجلين على ذراعي، وقال: «هيا.»

مررنا بالحوض، واتجهنا إلى جهة الفناء الأخرى. هبطنا بعض درجات في جانب الفناء، ثم من بعد ذلك دخلنا سرداب القصر الفسيح الذي كان خاليًا تقريبًا اللهم إلا من بعض الجرار صغارها وكبارها موضوعة إلى جانب الجدار، وحطام الخشب. وهناك قال لي أحد الرجلين: «أتريد مصباحًا صغيرًا أم كبيرًا؟»

فقلت: « أريد مصباحًا بفتيلة، وليكن صغيرًا.»

فما استدار الرجل وهم ليغادر، حتى أضفت: «أريد كأسًا أيضًا، كأس نحاس، ثلاثة منها، و ممساكًا لأضع الكأس على المصباح.»

أومأ الرجل برأسه، وهم بالذهاب، فأردفت: «أريد ايضًا ملعقة نحاسية، وكبريتًا لإشعال المصباح.»

فمكث الرجل، وشزرني، ثم قال: «شيئًا آخر...؟»

فأجبته: «وكيسي... لقد تركته عند الحوض.»

وفي ذلك الحين، غادر الرجلان السرداب، وأغلقا الباب خلفهما. سمعت دبيب أقدامهما وهما يرتقيان الدرج المواجه للباب، ثم قعدت على الأرض من بعدئذٍ. كان جسدي لا يزال يرتعش، وقد استبد بي قلق، فما دريت أيكون ما كنت مزجته من هذا المركب صالحًا أم لا. فلم يكن باديًا هل الترياق الذي كنت أصنعه فعّال حقًا. جعلت أفكر في مصير زوجي وولدي، وأطلب الغوث من رب العالمين، أساله أن يلهمني عونًا من لدنه كيما أصنع الترياق في وقته وبطريق يبدي بها أثرًا، عسى أن أنجو من المهالك التي أوردت إليها، عسى أن أنقذ حياة زوجي وولدي.

كان داخل السرداب يجنح إلى الظلام، وجوه مرطوبًا بشدة. وفي برودة الخريف لم تكن أعظمي الواهنة تحتمل قرس البرد في ذاك المكان. تنقلت على الأرضية الباردة الرطبة من موضع لآخر غير مرة، حتى في النهاية آثرت أن أقف وأمشي. وما لبث أن فُتح باب السرداب، وتقدم منه أحد الرجلين فوضع الأدوات التي قد طلبت مع

الكيس عند قدميّ. ثم سألني: «هل تحتاج شيئًا بعد؟»

فقلت: «لا.»

قال: «إن عرضت لك حاجة، تقدم نحو الباب، وادعنا، نسمعك.»

ثم ابتسم ابتسامة هازئة، وقال: «ذاك بالطبع إلى ما قبل الظهيرة....»

ثم انصرف. قعدت على الأرض، ووحيدًا مستوحشًا مبتئسًا شرعت في عملي. أشعلت عود الكبريت، وأسرجت مصباح الزيت. وقبل كل شيء أدفأت يديّ المنملتين الباردتين فوق وقدة المصباح، ثم التفت إلى كيسي، فأخرجت منه كُتيبي، ووضعته جانبًا. أخرجت قارورة عصارة السورنجان، وأفرغتها في كأس، ثم أخرجت أكياس المساحيق واحدًا واحدًا. فتحت كُتيب تحقيقاتي، وطالعت منه مقدار ما يلزمني أن أضيف من كل مسحوق. ثم إني تحولت إلى الأكياس. فتحت أول كيس منها، وإذ فجأة تناهى إلى مسمعي صوت شبيه بالأنين. رفعت رأسي، وأصخت السمع. لما انقطع الصوت، حسبت أني توهمت السماع خوفًا وقلقًا، فخفضت رأسي مرة ثانية، وباشرت عملي. هذي المرة سمعت ضربات على الجدار المقابل، و كان الصوت أوضح من أن أخاله وهمًا. قمت، ومشيت جهة الجدار، وتارة أخرى سمعت ضربة قوية أردفها حسيس أحد ما وهو يقول: «يا قوم.»

أصخت أذني، فتكرر الصوت: «يا قوم.»

ثم إن أحدًا قال: «لينجدني أحد.»

الفصل التاسع عشر

لقد أُغشي عليّ، لا أحصي لما لبثت أمدًا، ربما كان ليلة إلى بُكرتها. حقيق علينا نحن البشر أن نحمد الله أنّا يُغشى علينا في أوقات المِحَن، ونعزب عن وعينا. فنحن كلما عانينا ألمًا مُمضًا، فسمعنا خبرًا مُنكرًا، أو أبصرنا منظرًا مُفظِعًا، غُشيَ علينا. وكأنما أجسامنا لا تحتمل تبعات الخطب الذي قد دهم، كأنما قُدر لنا إذما احتملنا ذاك المشهد المُشجيَ، والألم الشديد، والغم العظيم، نمُت في الحال. لذا فإننا عندئذٍ نرقد بلا حول منا ولا قوة، فتوقر آذاننا، وتكف أبصارنا، وتفتر عن إدراك الألم أجسامنا. فمتى ما توخى الغم والألم أن يحملنا ما لا طاقة لنا به، تلطفت أجسامنا بنا، فترقد لئلا نلقى عذابًا صَعدًا، لنبقى أحياء. ربما لذلك بعدما نستفيق، نحتمل ذاك الألم الشديد، والغم العظيم بصبر أشد وأعظم.

ذاك اليوم أغشى عليّ في ذلك السرداب الخفي في قصر نُويان خان من هول ما لاقيت، رقدت فاقد الوعي لا أدري متى من بعدئذٍ أفقت.

أول ما فتحت عيني، لم تبصر إلا ظلامًا. وبعد حين طويل تذكرت ما وقع، ثم نهضت خائفًا خوفًا عظيمًا. كانت عيناي قد اعتادتا الظلماء قليلًا، فنظرت فوقي وأبصرت ظل الكوة التي كنت منها هويت. ثم إني نظرت حولي، وعاودني الخوف عند رؤية العظام النخرة، والأجسام المتلاشية . رجعت القهقرى، فلذت بجدار السرداب. ولما كان الهواء داخل السرداب ثقيلًا، أثقل عليّ التنفس. تساءلت كيف هويت في ذلك السرداب، واسترجعت كل ما فات.

تذكرت كلام مُسيب أبي راضي، إذ باح لي عن مخبأ كنز معتمد الدولة. ووفقًا للدليل الذي دلني عليه، كنت أتيت إلى قصر نُويان خان وركنه الخفي، ثم نزلت بي تلكم النائبة. ربما كان مُسيب يدري أن من يسلك في ذاك المخبأ تحت السلم، يواقع ذلك السرداب، فأرسلني إلى هنا متوخيًا. كلا، لست أنا من أرسل، بل كان راضيًا. لقد رجم بالغيب أني سوف أخرج من بئر الظلمات، فأراد بالدليل المضلل الذي دلني أن يكبكب راضيًا في هذا السرداب الموحش، فيثأر منه لقتله هو وزوجه وولده جميعًا وينتقم. عدا أنه في هذي المكيدة، لم يحسب حسابًا لشيء ذلك أني قد أقرر أن أنبش بنفسي عن الكنز بدلًا من أن أُعَين لراضي مكانه.

وفي غمرة الهاجسات، كانت قد وهنت يدايّ ورجاليّ وتراخت، ورشح تمام جسدي بعرق الندم. كان فادح خطأي مهلكًا إلى حد أنه جعلتني أمقت نفسي وأبغض سوء تصرفي. وانكدرت كل أحلامي الزواهر، وفاض محلها الخوف. كان مجرد التفكير في أني سألبث في ذاك السرداب المفظع بين الأجسام الرميم حتى أموت، يرعبني بحق. ومن فرط بؤسي وانعدام حيلتي جلست على الأرض أسح الدموع. كان حلقي جف، وبسبب ثقل الهواء كنت كلما انحنيت ضاقت أنفاسي فوق ما بها من ضيق، فحملت نفسي على القيام مرة بعد.

وفي حلكة اليأس برق في ذهني أنه ربما بإمكاني إنجاء نفسي. فالكوة التي سقطت منها، كانت تعلو قدر ثلاثة أقدام فوقي، وحافة أحد أضلعها لصيقة بالجدار الذي كنت وقفت أمامه. قلبت نظري في الكوة الظلماء، وارتأيت أني إذما تمكنت من الوثوب عاليًا، فقد تطال يداي الكوة، وحينئذٍ أستمسك بحافتها، وأُصعد نفسي. وعلى

بارق الأمل الخافت الذي كان التمع في ذهني، ثنيت ركبتي، وفجأة وثبت إلى أعلى، غير أنه كان بلا ثمر، فلم تكد يداي تبلغان حتى علو قدم من الكوة. عندئذٍ عاودت ثني رجلي، والوثوب، وتارة أخرى كأن شيئًا لم يكن، إذ وثبت كما أول مرة بل ربما أقل. وبإخفاقي في تينك الوثبتين القصيرتين كان نفسي قد انقطع، ومن فرط النقع المثار في الجو جعل صدري من التراب يأز أزيزًا. نظرت مرة أخرى إلى الكوة، وإلى حافتها لصيقة الجدار. قلت إن تراجعت خلفًا، ثم ركضت صوب الجدار، وجهدت أن أتسلق الجدار تسلق هرّ فأعلو قدر قدمين، ربما استطعت أن أتشبث بحافة الكوة، وأتعلق. أزحت بقدمي العظام التي كانت حواليّ جانبًا، واتخذت مسافة بضعة أقدام من الجدار المواجه لي، ثم إني ركضت مسرعًا، حتى وطئت قدمي الجدار. ولكني لم أزد خطوة، حتى انطرحت أرضًا طرحة نكراء، فما عاد في جسدي موضع إلا يؤلمني. انكتم النفس في صدري، وغصت مقلتاي بالدموع، إذ شعرت بالعجز. تنهدت فتأوهت فتغمغمت بهمس: «لينجدني أحدا»

كنت أخشى رفع صوتي بهذي العبارة، إذ كان مرعبًا تصور رجال نويان خان وهم يعثرون عليّ مرة أخرى لضجيجي. فإنهم قد يخرجونني من ذاك السرداب أيان بلغهم صوتي، ولكنهم بعد ذلك سوف ينكلون بي، حتى يطلع عليّ يوم أتمنى فيه وأتلهف أن أرتد إلى ذلك السرداب بين أشلاء الموتى. ومع ذا، فقد جنّ الخوف من البقاء والتحلل وسط الموتى عليّ بظلاله، فرضيت بما يكون من كي وتنكيل، بل وحتى موت على يد راضي وفرّوخ والآخرين. اندفعت متمرغًا إلى الجدار، وطرقته بقبضتي، وهتفت: «يا قوم!»

ترقبت هنيهات، ثم طرقت الجدار ثانية قائلًا: «يا قوم!»

لم يلب ندائي أحد، كذلك ما كنت أكن أنتظر أن أُلبى بهذي السرعة. رفعت صوتي، وصحت: «لينجدني أحدا»

ولما لم يكن من حس ولا خبر، عدت خائب الرجاء، واستلقيت على ظهري أرضًا. أما وقد أبصرت فتحة الكوة فوقي، عاودت الصياح آملًا أن ينفذ صوتي منها: «لينجدني أحدا»

وكأن الكوة صارت أبعد من أن ينفذ منها صوتي. كنت أعلم أنه قلّما يحدث أن تطأ قدم أحد باسطة سلم الإيوان، لكن لم يكن لي من بُد. عزمت على أن أصرخ بما بقي فيّ من رمق، عسى أن يظهر منجد ينجدني. فغرت فاي على وسعه، وعبيت صدري بالهواء الراكد المنتن. هممت أن أصرخ مرة بعد، لولا أن سمعت فُجاءة ضربات على الجدار قبالتي. وكأن شخصًا ما يطرق الباب بقبضته. سمعت كذا ضربة تواليًا، ثم قال رجل ما: «من أنت؟! وما تُليد؟!»

لم أصدق أن أحدًا سمعني، فسرعان ما نهضت، وأوصلت نفسي إلى الجدار مغتبطًا. طرقت بقبضتي الجدار، وصرخت: «أنا... أنا رضا... رضا قُلي... لقد علقت هنا.»

ثم إني شعرت بحُرقة في حلقي، فسعلت غصبًا سعلات متعاقبات. قال الصوت على جهة الجدار الأخرى: «أين علقت؟ ماذا صال؟»

تنحنحت قبل أن أقول : «هنا، بين الموتى، في ذا السرداب.»

فقال الصوت على جهة الجدار الأخرى: «من أنت؟... لم حُبست في ذاك المكان؟»

فقلت: «أنا رضا قُلي الذي كنت قبل ذاك هنا... كنت قد هربت، وها

قد وقعت هنا.»

سألني الصوت على جهة الجدار الأخرى: «من أي مكان هلبت؟»

ذكرني لحن حديثه بألماس. فكرت هنية أن ألماس على جانب الجدار الآخر. هتفت: «أهذا أنت يا ألماس؟!... أنا رضا، رضا قُلي.»

فسكت الذي كان على جهة الجدار الأخرى. فصرخت مرة بعد: «أأنت ألماس؟!»

وحينئذٍ أجاب: «لست ألماس... أتعلف ألماس؟»

فقلت: «أجل.»

فقال: «هل أنت لِضا الذي كنت ثُليد تهليب الأطفال؟»

فقلت مغتبطًا: «نعم... نعم ذاك أنا، هل لك أن تنقذني؟»

فقال الصوت خلف الجدار: «أنا نفسي محبوس هنا.»

فجأة انقلب أملي يأسًا. أنزلت يدي عن الجدار، فاستدرت، فأسندت إلى الجدار كتفيّ. هتف الذي كان وراء الجدار: «إذا خلجت من هنا، فسأفعل ما بمقدولي لأنقذك. »

لزمت صمتًا فلم أقل شيئًا. وما هي إلا أن كرر: «أتفهمني؟ سأفعل ما بمقدولي لأنقذك؟»

وإني في أوج الإحباط وسوَرة الغضب، جأرت قائلًا: «أكون قد مت ... إلى أن يحين ذاك أكون قد مت. »

اتكأت إلى الجدار، وأغمضت جفنيّ وأسلمت نفسي إلى يد القدر.

طفقت خواطر الماضي قاطبة تكر على ذهني كرًا في آن واحد. رأيت نفسي كيف قدمت إلى طهران، وأي محن لقيت، كذا تذكرت مرة أخرى عهدي بشكور، ونجاتي من براثن نويان خان، وما أولانيه الميرزا حسن خان من عطف ومحبة، وذهابي إلى المدرسة... ما كان أقدرني على أن أصيب من الحياة السهم الأوفر. أما الآن...

تذكرت ملتقاي بفسيب في بئر الظلمات. تذكرت وقتما هويت إلى منحدر تلك البئر الزلق، وكلما جهدت لأقوم لم أستطع الصعود وإخراج نفسي منه. ارتأيت أن وضعي وحالي هنا ما كان أشبهه بالذي هو في تلكم البئر المعتمة! وبينما كنت أتذكر، قلت لنفسي لئن كنت أخرجت نفسي من هاته البئر، لأخرجنّ بالمثل نفسي من هنا. قمت، فابتعدت خطوات عن الجدار الذي من فوقه الكوة. شحذت قدمي، ثم إني أطلقت صرخة، وانطلقت بكل ما أوتيت من قوة صوب الجدار. وضعت قدمي على الجدار، وتسلقت الجدار ثلاث خطوات تترًا. وفي ذاك الحين رفعت يديّ ولامست حافة الكوة. عقفت أصابعي على الحافة، وأمسكت بها. كنت مغمورًا بالسعادة، إذ تعلقت بالكوة ومنها تدليت. دفعت يدي، حتى تثبت جيدًا في موضعي من الكوة. ثم إني أصعدت نفسي، غير أن يديّ لم تحتملا، إذ أوجعتني أصابعي، وارتعشت ذراعاي، وانبسطت كفايّ المقبوضتان، فأفلتهما غصبًا عن الكوة، وارتطمت على الأرض بشدة، فاغترزت حافة إحدى العظام المنكسرة في جنبي الأيمن. ومن شدة الألم ضججت، وأُغشي عليّ تارة أخرى.

الفصل العشرون

لم يجبني من بعدئذٍ ذاك الطفل المعصوم. ظننت أن أحدًا ما طرحه على الأرض بقوة، أو هوى عليه بآلة ثقيلة، فضج على ذاك النحو ألمًا، ثم انقطع حسه. عندما ذكر لي اسمه، عرفته. كان ألماس حكى لي عنه، فقال أنه قد خُطف، وسيق به إلى قصر زقاق صاحب الديوان. قال أنه قد هرب مرتين من ذاك القصر المخوف، لكنه توقًا إلى تحرير شقيقة صاحبه، وإنقاذ جماعة من الأطفال الأسرى، أورد نفسه طواعية مورد التهلكة، وبذل الفدى، عسى يخلصهم من شراك أولاء المجرمين الطالحين. وها هو ذا الآن مثله مثلي قد أمسكوا به لينتقموا منه. طرقت الجدار مرة إثر مرة راجيًا أن أسمع له حِسًا، كذا رددت اسمه غير مرة، بيد أنه لم يجب. ذلك الطفل المعصوم، ذلك الصغير البريئ لم ينطق من بعدئذٍ لو بكلمة.

انتأيت عن الجدار محزونًا كئيبًا. وما هي إلا أن انصرف فكري إلى عملي. مازجت بين المساحيق بموجب نتيجة التجارب التي كنت قد دونت في كُتيب تحقيقاتي. خلطت بعضًا منها ببعض، وغليتها، ثم من بعد ذلك مزجتها بعصارة السورنجان، ثم غليتها مرة أخرى، وبخرتها، حتى حصلت على مسحوق أبيض. أخذني السعال ذلك من البخار المتصاعد في أثناء العملية. فجعلت عيناي تلتهبان، وأنهيت عملي بصعوبة. مزجت المسحوق الأبيض، بقليل من الماء، ونتج عن ذلك سائلٌ كثيفٌ، سكبته في قُوَيريرة(27)، و تركته يبرُد. انهيت عملي، ولكن ما أدراني أن تحقيقاتي كانت صائبة، وأن تجاربي صحيحة؟ وما أدراني أني أصبت ما طالعته في الكتب فهمًا؟ وما

أدراني أني ما افترضت المائع جامدًا، والجامد مائعًا؟ وما أدراني أن ما كنت مزجته يعمل عمله في الأمزجة الأربعة(28) كلها على حد سواء؟ ما أدراني أنه لم يكن يعالج مزاج الصفرا، ويقضي على مزاج السودا؟ على هذا ابتدأ في حينه خوفي. كنت أعلم أنهم يقتنصون روحي ولا جرم، حال أن كان الترياق الذي صنعته ليس بفعّال، وربما فوق ذاك أجهزوا على زوجي وولدي. وإذ ذهبت إلى أن الدواء الذي صنعت كان فعّالًا، فما أدراني أني سأخرج من ذلك القصر حيًا.

كنت قد أمضيت ساعة من الوقت أقلب أفكاري، إذ فُتح باب السرداب، وقال الرجل الذي كان جاء لي بالمصباح وسائر اللوازم، قال وهو على السلم: «ماذا فعلت؟ مستعد؟»

فتناولت القويريرة التي كانت في متناولي، وأريتها إياه، فقلت: «أجل.»

فقال الرجل: «إذن، هلم.»

وضعت كُتيب تحقيقاتي في كيسي، ولملمت سائر أشيائي، وأخيرًا تناولت قويريرة الترياق، ثم ارتقيت السلم، وبصحبة الرجل غادرنا السرداب. عندما لفحت الأنسام في الخارج وجهي، أدركت في ساعتي كم كان جو السرداب أشد من الخارج بردًا، بيد أني لشدة ما كنت مُهتاجًا، كان جسدي قد حُم حتى إني لم أعد أدرك في الجو بردًا. لم تكد خطانا تنأى عن السرداب، حتى صك صراخ تيمور من الإيوان العلوي أسماعنا، ثم إنه كر صرختين أخريين من بعد. كان ظاهرًا أن وضعه الصحي تردى. ارتقينا سلالم جهة الإيوان الأخرى، وصرنا إلي الإيوان، إلى أن قدمنا إلى غرفة المريض، فما اجتزنا

عتبة الغرفة، حتى صدني الرجل الذي كان معي عن الدخول، ولم يذرني أمضي قُدمًا. حينها أبصرت هناك فرُوخًا واثنين آخرين كانوا قد وقفوا إلى جانب فراش المريض. عاود تيمور الصراخ، فمزقت صرخته كمثل منشار صدري. رد عليّ حينها الخوف، خفت أن يكون ما صنعت ليس علاجًا فيعالجه. وكأنما فطنت لتوي أي مسلك مدجج بالخطر سلكت. نظر فرُوخ إليّ وإلى الرجل بجانبي، وقال: «ماذا فعلت؟»

رفعت قارورة الترياق، ثم قلت: «لقد صنعته.»

نظر فرُوخ إلى القارورة الصغيرة، ثم قال: «كيف أتبين أنه صالح؟ كيف أتبين أنك لا ترمي إلى قتل هذا الرجل اللطيف؟»

فقلت: «لست طبيبًا، غير أني أستن بسنة الأطباء، وقد بذلت غاية جهدي لأصنع ترياقًا، فيبرأ به المريض من سقمه.»

فقال فرُوخ: «كيف أتبين أنك ما أخطأت؟ أنك ما صنعت دواء غير ذي أثر أو ذا أثر عكسي؟»

فقلت: « لقد أصبت إن شاء الله.»

فاستطير فرُوخ غضبًا وقال: «أيها الرجيل، لا تقل لي إن شا الله وما شا الله، أريد أن يُشفى ليس إلا.»

ثم التفت إلى الرجل بجواري، وقال: «اصفعه واحدة على قفاه، ليعي كيف عليه ألا يتفوه لدينا هنا بإن شا الله وما شا الله.»

وعلى الفور هوت يد الرجل الثقيلة علي قفاي، ومن ثقل وطأته لم أتمالك الوقوف، فتقدمت زهاء ثلاث خطوات غصبًا. أما الكيس فقد

سقط من يدي، وأما قارورة الترياق فاستمسكت بها. دار بي رأسي، وفتحت فمي بصعوبة، لأقول: «لقد بذلت غاية جهدي. عندما أحول عشبة الجونجادا إلى مسحوق خدر، فإنها تُوجِد في الدماغ أبخرة من شأنها أن تحدث خللًا في وظائف القوى الدماغية. وبعد دراسة مستفاضة استبنت أني إذا خلطت السورنجان الكرماني الذي هو مقوي للدماغ وملين للأعصاب، مع ثلاثة مساحيق أُخر سبق لي أن صنعتها من تراكيب دوائية متنوعة، ثم على النحو الذي أعلمه وقد دونته في كُتيب تحقيقاتي، غليتها، وبخرتها، فسوف يكون حاصل ذلك ترياقًا يوقف تصاعد الأبخرة المضرة، ويعيد قواه الدماغية إلى سابق حالها...»

لم أكن قد انتهيت من الكلام بعد، ذلك عندما أطلق المريض على سريره صيحة عالية. على الفور وجهت إليه البصر، حيث كانت يداه مربوطتين إلى السرير من كلا الجانبين، وعليه لحاف رقيق مرفوع إلى صدره. كانت جبهته الطويلة الملساء ترشح بحبات العرق، ومن فمه يرغو زبد أبيض. في الحال مسح أحد الذين كانوا بجانب الفراش ذلك الزبد الأبيض بمنديل، ثم طواه، وبجانبه الآخر جفف عرق جبهة المريض ووجهه. كنت لا أزال محدقًا عندما تقدم فرُّوخ ونزع قارورة الترياق من يدي، ثم قال: «كيف ينبغي له تناوله؟»

فقلت: «بإفراغ كل محتويات القارورة جرعة واحدة، فمثلما أنه تسمم مرة واحدة، يجب أن يتعافى مرة واحدة.»

فسأل فرُّوخ: «كم من الوقت يستغرق؟»

فقلت: «لا أعلم، ربما نصف يوم، ينقص عن ذاك أو يزيد.»

حدق فرّوخ بعينيه الدقيقين إليّ، حتى سيق إلى وهمي أنه سيقتلع روحي من حدقتيّ. كنت أرزح تحت وطأة نظراته، إذ قال: «ويلك إن لم يكن ذا أثر، وأسوأ من ذلك إن جاء بأثر عكسي، حينئذٍ لن أذر في أنحاء طهران زنجيًا واحدًا على قيد الحياة.»

ثم أشاح بنظره عني، وقال للرجل بجانب الفراش: «تعال خذه، واسكبه كله برفق في حلقه، إياك أن يغص به... اسكبه دفعة واحدة لكن برفق.»

بعد ذلك ودون أن يستدير، حيث كان موليًا ظهره لي وللرجل معي، رفع من صوته، فقال: «خذ ذياك الزنجي، وألقِه في ذاك السرداب، حتى أرى ما سيحدث.»

تقدم الرجل من خلفي، فقبض على ذراعي، ودفعني إلى باب الغرفة. خرجنا، وهبطنا الدرج. وإذ صرنا إلى الفناء، رأينا نفرين يوثقان فتى إلى شجرة. ولما كان فتي أشقر، عرفته، كان هو نفسه الذي فتح لنا باب القصر صباحًا. كانا قد خلعا عنه قميصه، وألصقا بطنه بجذع الشجرة، وأوثق أحدهما كلتا يديه معًا خلف الشجرة بحبل. كان باديًا أنه سوف يعاقب، ويجلد بالسوط، وكأين من مرة عاينت مشهد جلد عاملي الديار العصاة منهم بالسوط. أدار الفتي الأشقر إليّ وجهه، ونظر إليّ نظرة تنضح غمًا، كانت عيناه حمراوين وكأنهما قدحان من الدماء. كانت عينه قد شرقت بمائها ، يود لو يبكي. لم يبد مقاومة لمن أوثقوه إلى الشجرة. لقد سَيّب نفسه لهم يفعلون به ما يفعلون. ولما لم أعد أطيق النظر إلى عينيه، نكست رأسي، ومرورًا بالحوض وسط الفناء سلكت طريقي إلى السرداب.

فتح الرجل الذي رافقني باب السرداب وضرب بكفه على كتفي ضربة ثقيلة فقال: «ادخل.»

وقتما دخلت، أغلق الباب خلفي. ها قد حُبست تارة أخرى. قعدت ونشقت أنفاسي، ثم انصرف فكري إلى ذلك الصبي، فاتجهت إلى الجدار، وضربت على الجدار غير مرة، ودعوته، فما كان من مجيب. تيقنت أن ذلك الطفل المعصوم قد أسلم روحه إلى بارئها. جثم على قلبي غم ثقيل، فأسندت ظهري إلى الجدار، وبكيت في هدوء. تذكرت فلذة كبدي ياقوتي، وزوجي التي أحبها حبي لنفسي. فكرت فيما سيطرأ عليهما من بعدي. وبينما كنت أفكر، صرعت مسامعي صرخة تنخلع لها الأفئدة قادمة من الفناء. شحذت أذني، فسمعت جلدات السوط، وصرخات داوية في عقب كل جلدة هاوية. كانوا يجلدون الفتى الأشقر. أغمضت عيني، وأرخيت رأسي إلى الجدار، وجاهدت لأتلهى بشقوتي وحسب. تمنيت أن يكون الترياق فعالًا، فيتعافى المريض المشدود الوثاق إلى السرير، وما لبثت أن خجلت من أمنيتي تلك. كنت أتمنى لو يحيا المجرم، الذي كان عمله هو تخسير حياة أطفال أبرياء، وتتبير مستقبلهم، ذلك كي لا يعتريني أنا وذويّ سوء. تلاحقت أنفاسي، وطفق قلبي يقرع محبس صدري. لمّا يكن انتحاب وتوسل الفتى الأشقر قد انقطع بعد، فرأيت نفسي ضعيفًا، مغلوبًا على أمري. رأيت أنما مثلي كمثل أيما امرئ آخر إذ كنت أخشى فقدان حياتي وأهلي. هببت أسير في فضاء السرداب، وأسكب الدموع مدرارًا وأنشج كطفل صغير. فزعت إلى ربي وجأرت أرجو منه الغوث فما حياة امرئ وموته إلا بيده وحده. مر بعض وقت، حتى سكنت الصرخات والأنات، وخفت الضوء في الخارج،

فأمسى السرداب في ظلام أظلم، حتى إني لم أعد أبصر موضعًا. وقتئذٍ جلست إلى الجدار، وأغمضت مذارفي إذ لم يعد فيها دموع تذرفها. هكذا أمسيت متهالكًا لا رمق فيّ ولا روح، حتى انغمست في حال بين النوم والصحو. لا أدرى كم مضي، حتى سمعت صوت باب السرداب وإنه يُفتح. فتحت عيني، ونظرت إلى رأس السلم، وإطار باب السرداب الصغير. كان هناك رجل يقف في إطار الباب، قمت من حيني، فقال الرجل بصوت أجش: «هيا، اخرج.»

كان قلبي يدق شديدًا. سرت على غير عجلة جهة السلم. قال الرجل: «هيا تحرك...»

ابتعد الرجل عن الباب، وسرعان ما وطئت الدرج، فدرجته، ثم ولجت الفناء. وبينا كان ماء الحوض الداكن يموج تحت نور القمر، دفعني الرجل، وقال: «هيا سِر.»

قطعنا الفناء، ومررنا الحوض، وارتقينا درج جهة الفناء الأخرى. كان الريق قد جف في حلقي، ورجاليّ ترتعدان، حتى لم تعد لي طاقة على السير. كنت إلى هذا الحد مبطئًا، حتى إن الرجل خلفي ضربني على ظهري مرتين، وقال: «هيا تحرك... لمَ تتلكأ؟!»

آخر المطاف وقفنا أمام باب غرفة المريض. فتح الرجل الباب، ودفعني إلى الداخل. كانت الغرفة مُضاءة، إذ أُسرجت في أرجائها عدة مصابيح زيت كبيرة. على أني استغرقت وقتًا لأبصر ما يجري هناك. كان فؤوخ ورجل آخر يقفان إلى جانب السرير، وآخر يستوي عليه، عرفته أول ما أبصرته، كان تيمور هو من قد استوى على السرير، وكان طرف من اللحاف الرقيق يغطي بطنه، أما قدماه

العاريتان فقد أخرجهما من تحته، وقدامه وُضعت صينية نحاس صغيرة زاخرة بصنوف الطعام، وكان قد تناول منها فخذ دجاجة، وأخذ يقضمها بنهم. كنت قد وقفت والباب خلفي، ولمّا أدرك شيئًا مما أرى، حتى فض فرُوخ بصوته الرفيع صمت الغرفة: «بَهْ بَهْ يا زنجينا! لوما رأيت بأم عيني لما كنت أصدق أن الزنوج يتأتى منهم نفع!»

وبينما كان يتحدث، تقدم ووقف على بعد خطوة مني، ثم قال: «إني لا أطيقك أيها الزنجي، ولكن تيمور خان تعافى من سقمه، وذلك بمفعول الدواء الذي صنعت.»

اتسعت حدقتاي من شديد فرحي، وتلاشى خوف كان قد أتخم جسدي. قلت مغتبطًا: «الحمد لله، شفاء المريض فضل من الله على الطبيب.»

ضحك فرُوخ، وقال: «الآن أنت أو الله أيكما كان، لقد تعافى تيمور خان. أتريد الصدق، لقد قلت نقتلك وننهي أمرك، مهما كان فما وقع تلكم الليلة كان بسببك أنت أيها المحروق أبوك، لكن تيمور خان لم يقبل. قال قتل الأسود ليس فأل خير... فوافقته أيضًا، وقلت، ندعك تذهب، ولما كان تيمور خان إلى هذا الحد عظيمًا، إلى هذا الحد نبيلًا، إلى هذا الحد سيدًا، فإنه لن يدعك تنجو بروحك فحسب، بل يريد أن يعطيك الحِلوان أيضًا، لقد وضع لك تومانين تحت الحَشِيّة.»

غمرني فرح وسرور. شكرت الله أن أنجاني من هذا الهلاك العظيم. أردف فرُوخ: «إنها صدقة منه، فغداة غد سيصحب خمسين طفلًا إلى حدود عشق آباد، ويرجو أن يكون سفره آمنًا.»

فورئذٍ أخذت نفسًا عميقًا، ونظرت إلى فرُوخ. قال فرُوخ: «سعيد

أنت، أوليس كذا؟»

هززت رأسي، وقلت: «بلى، الحمد لله.»

فقال فرّوخ: «حسنًا، فلتتقدم، انكب على يد تيمور خان، وقبلها. قل له آسف على ما فعلت تلكم الليلة من خبط وخطأ، ثم خذ التومانين، فاذهب.»

تجمد جسدي، فلبثت في مكاني، ونظرت إلى تيمور الذي كان ينهش فخذ الدجاجة بأسنانه، ولمَ يلتفت إليّ أصلًا. نظرت إليه قليلًا، ثم إلى فرّوخ. قال فرّوخ: «ما تنتظر؟! تقدم، هيا قبل يده، واعتذر، وخذ التومانين، فاذهب.»

رأيت أني غير قادر على فعل هذا. نعم أنا أسود، وعبد، وخادم، لكن ليس من شيمي الخنوع للظالمين. لقد خدمت معين التجار سنوات، فنظفت بيته، وأعددت طعامًا له ولأهله، وصبب الماء ليغسلوا أياديهم، واعتنيت بخيلهم، ولكني كنت كبيرًا في عين نفسي. خدمت سيدي كما يفعل خادم لسيده، لكني ما كنت لأذل نفسي قط وأحط منها، فحَق لي الآن ألا أقبل يد ذياك المجرم. لقد أثخنني فرّوخ ورجاله ضربًا غير مرة، ضنبوا بي الأرض غير مرة، حتى صيروني وحيدًا أدوي كما الأطفال وأبكي. لكن ما كان أحد منهم لينال من ذاتي وشرفي. لم أكن أنا من اتخذ القرار في تلكم الليلة، بل كانت روحًا نبيلة ورثتها عن أجدادي، ولأجل ذاك الجوهر المصون في نفسي، ما استطعت أن أقبل يد ذياك المجرم، الذي يسلب حيوات الأطفال منهم، وأعتذر.

وبينما كنت لا أزال في موضعي واقفًا، قلت لفرّوخ: «الحمد لله أنه

أصبح بخير، ولا أرى نفسي بالحلوان والإنعام قمن. لا أزال خجلًا مما سلف، دعني أذهب من دون إنعام.»

ضيق فرّوخ عينيه، ثم قال: «ماذا تعني؟.... أي فعل نكر فعلت؟ أتراك تريد أن ترد إنعام الخان؟ تقدم... هيا.»

أما أنا فما برحت موضعي، ونظرت إليه ، فقلت: «ولكن.... »

وقبل أن أكمل حديثًا، قاطعني، فقال: «لا تقل لكن... أتطاولت لما أن رفعنا الكُلفة؟ تقدم، هيا واعتذر.»

حينئذٍ أبصرت الخان، الذي راح خلافًا لما كان عليه ينظر الآن إليّ. كانت نظرته مخوفة، إذ إني وعلى بُعد منه شعرت أن طرفي شاربه الطويل يهتزان من فرط الغضب. رفعت عيني عنه وأطرقت إلى الأرض. ضرب فرّوخ على كتفي وقال: «امض... أقول لك امض!»

لا أعرف أي لحظة كانت تلك ولا كيف مرت، ولكن وكأن ذكرياتي الخوالي كلها، وسالف أيامي كلها بحلوها ومرها، بل وكل ما تعلمته من الحياة عرض لي. وي كأن ما فكرت فيه في تلك اللحظة يعدل عمري كله. كززت على أسناني، ورفعت هامتي، فقلت: «كلا!»

أما فرّوخ الذي وكأنه لم يتوقع مني مثل هذه الجسارة، نظر إليّ مذهولًا، وقال: «حقًا أن الخان أمر بألا أقتلك، لكنما بوسعي أن أبطش بك بطشًا فتخر صاغرًا على قدميه، تسأله أن يأذن بقتلك.»

لا أعرف من أين انثالت عليّ كل هذي الشجاعة، غير أني سرعان ما استدرت ناحية باب الغرفة، وهممت بالخروج، وساعتئذٍ أمسك رجل ذو بأس متين كان يقف أمام الباب يدي، ولواها، فانثنيت كرهًا

مرة ثانية إلى فرُوخ. كان في ذراعي ألم عظيم، وكتفي بصدر الرجل لصيقة. ثبت الرجل المتين من وراء على حلقي خنجرًا، ثم قال: «أأجهز عليه فرُوخ خان؟»

التفت فرُوخ، وحدق إلي الخان الذي كان هو الآخر لا يزال ينظر إلينا في ذهول. كان الخان ساكتًا لم يفعل شيئًا ما سوى النظر، وقد تسربل المكان بالصمت مدة من الوقت. تفرق ألم ذراعي في سائر أنحاء جسدي، لكني كابدت فلم أنفث آهة. وما هي إلا أن فض تيمور بصوته الأجش ذاك الصمت: «الليلة لا... ليكن ذلك غدًا، عندما أغادر طهران أجهزوا عليه، أما الآن فدعه ينصرف إلى شأنه.»

فقال فرُوخ: «ولكن...»

فقال الخان: «ولكن ماذا؟... قلت إن قتله الليلة فال شؤم، دعه يذهب. لا أريد أن يكون في هذا القصر، ولا تقل لي أنك يُعجزك في غضون يومين إيجاد زنجي، فتوافيه الجزاء.»

فقال فرُوخ: «أمرك، كما شئت.»

ثم أدار رأسه سمتي، وقال: «الليلة وغدًا تُمهَل من الوقت ما يكفي لتقتل نفسك، وإلا فلتشتهين الموت من بعدئذٍ.»

ثم قال للرجل ورائي: «دعه يذهب.»

أزاح الرجل خنجره، وأفلت يدي، فتخطيته من فوري، وغادرت الغرفة. وسرعان ما هبطت الدرج، وقدت نفسي إلى خارج القصر. وساعة أن ابتعدت قليلًا، توقفت واستندت إلى الجدار. جعلتني نسمات ريح الخريف المرسلة في حال أفضل، فشخصت ببصري

إلى السماء، إذ كانت صافية ساطعة، وكاد القمر أن يكون قرصًا تامًا، حتى إن ساطع نوره حال دون أن تبرز النجيمات من حوله. التقط بعض أنفاسي، ثم واصلت سيري إلى البيت. بعدما التقيت زوجي وشرحت لها ما كان قد ألمّ بي، أقبلت على هذا الورق، الذي منذ زمن وأنا أسطر أحرفي فيه، الذي أتمنى أن يقرأه يومًا ما ولدي، وولد ولدي، وولد ولد ولدي، بل وربما آخرون، ليعلموا ما قد جرى لي، ويعلموا لماذا لم أخنع وأذل نفسي، ويعلموا لماذا الآن سيخبو من الوجود أثري، دون أن أنال شيئًا من ذلك الترياق الذي كنت صنعت لمداواة بَنِيّ المسكين.

الفصل الواحد والعشرون

لا أعرف كم مضى من الوقت حتى أحسست على وجهي شيئًا ناعم الملمس بارده. ولما فتحت عيني، أزاح شكور أصابعه عن وجهي. لم أره في الظلماء، ولكني آنست صوته، إذ قال: «ماذا تفعل هنا؟»

ذُعرت، وكنت أحاول النهوض، لكني شعرت في جنبي بشديد الألم، غصبًا قلت: «آه!»

ووضعت يدي على جنبي، إذ كان جريحًا ويؤلمني، والدماء جفت على قميصي. اعتمدت بمرفق يدي الأخرى على الأرض، وجهدت لأنهض. الآن بت أبصر وجه شكور الذي بدا لي أكبر. أما بياض عينيه في عتمة ذلك السرداب فكان كمثل بقعتين كدرتين تختفيان بين جفنيه ثم تبينان. قلت مسرورًا: «أهذا أنت يا شكور؟!»

عاود سؤاله متجاهلًا ما قلت: «ماذا تفعل هنا؟»

فقلت: «لا أدري... كنت هناك في الأعلى، وإذ بالأرض فرت من تحت قدمي على حين فجأة.»

فقال شكور بنبرته الباردة: «هناك بالأعلى؟!... ولمَ كنت هناك بالأعلى؟»

فقلت: «كنت جئت... أعني افتش عن...»

قاطع شكور كلامي، وقال: «عما ليس لك!»

فقلت: «كيف عرفت؟!»

وتذكرت أن شكورًا يرى كل شيء من فوق. قال شكور: «كنت قلت لك إن هذا ليس مكانك، فلمَ جئت؟»

فأجبته: «تلك النقود.... الميرزا حسن خان...»

فقال شكور: «تلك النقود ليست لك.»

فقلت: «حسنًا، ولا لراضي أيضًا.»

فقال شكور: «ليست لراضي، ولا لأبي راضي، ولا لمعتمد الدولة أيضًا.»

فقلت: «حسنًا، ما دامت ليست لأحد، يمكنني أن أحصل عليها.»

فقال شكور: «أنى لك؟! تلك النقود لها أصحاب، غير أنها فارقتهم بعيدًا، فما عاد أحد يتذكر لمن تكون.»

فقلت: «كنت أريد....»

فقال شكور: «ربما لا يمكنك إعادة تلك النقود لأصاحبها، لكن لا تكن ممن يريدون أن يحوزوها لأنفسهم.»

لم أزد كلمة واحدة، كما سكت شكور عن الكلام. وكأنما كان يرتقب مني أن أقول شيئًا.

في آخر الأمر قلت: «هل جئت لتنقذني؟»

فقال شكور: «نعم،... لكن ليس بمقدوري القيام بذلك دائمًا.»

فقلت: «لم أرد شيئًا إلا أن أحمل تلك النقود وآتيها الميرزا حسن خان.»

فقال شكور: «أنت مخطئ، هذا الأمر ليس من شأنك. أنت على غير شاكلة هؤلاء، وعلى هذا فلا جرم أن تأكل ضربة. فمسيِّب لما ارتأى أنك ستدل راضيًا على طريق النقود، أراد أن يوقعه في الفخ، فأنبأك بمكانها، سوى أنه لم ينبأك أنك لما تدخل الغرفة لا بد أن يكون معك امرؤ آخر حتى يدير المقبض الخشب على الجدار، فتظل الهوة التي تحت قدميك مسدودة، فلا تهوى في ذلك السرداب. كانت الكارثة مقدرة لراضي، غير أنك جلبتها لنفسك.»

خالجني شعور بالخجل، احساس بالعجز والحمق. أطرقت قليلًا، فقلت: «لقد أخطأت... أعِنّي يا شكور أخرج.»

فقال شكور: «حسنًا، ولكن قبل ذلك عليّ أن أخبرك شيئًا.»

فقلت: «ألا وهو؟»

فقال شكور: «يجب أن يُسد المنفذ إلى عالم الموتى.»

فقلت: «ماذا تقصد؟»

فقال: «تعلم أن راضيًا أول من فتح ذلك المنفذ.»

فقلت: «أجل، أخبرني ذا بنفسه.»

فقال شكور: «والآن يمكن لكثيرين من دونه أن ينفذوا منه أيضًا، أكثرهم طالحون. يجب أن يُسد ذلك المنفذ.»

فسألته: «كيف السبيل؟!»

فقال شكور: «على من فتح ذلك المنفذ أول مرة، أن يعود ليُسد.»

فسألته: «راضي؟»

فقال شكور: «أجل، لقد خرج راضي من الحوض أول مرة في ليلة الرابع عشر من الشهر، وغدًا ستكون الليلة الرابعة عشر من الشهر، فإن عاد راضي إلى الحوض غدًا قبل أن يبزغ نور الفجر ويسطع نور البدر على الحوض، يُسد ذلك المنفذ، وإلا يظل مفتوحًا، وحينها قد يحدث ما لا يحمد عقباه. لقد أغرى ذهابك إلى بئر الظلمات كثيرين بالتفكير في الخروج من الحوض.»

فقلت: «أما راضي فلن يعود، إنه يبحث عن النقود.»

فقال شكور: «أعلم، ولكن يجب أن يقهر على ذلك، وإن أُلقي في الحوض رغمًا، وساعتئذٍ يُسد المنفذ إلى عالم الموتى.»

فقلت: «ألا ينبغي أن أقوم أنا بهذا الأمر؟!»

فقال شكور: «بلى، ينبغي، ولكنك وحدك لن تسطيع، التمس صحابك.»

فقلت: «من؟»

ثم تذكرت نادرًا، فقلت: «نادر؟!»

فقال شكور: «أجل، ذاك يمكنه أن يعينك.»

فقلت: «كذلك ألماس.»

أطرق شكور هنية، فقال: «ألماس يقرئك السلام.»

فقلت مذهولًا: «ألماس؟!... أتعني أنك رأيت الماس؟!»

فأومأ شكور برأسه، وقال: «لقد قدم إلينا أخيرًا.»

فعاودت سؤالي: «أوَمات ألماس؟!»

فقال شكور: «أجل.»

طافت بي كل ذكرى كانت لألماس، كلمه، محبته، عونه، فتصدع فؤادي. هممت أبدي حزني وغصتي قولًا، لولا أن قال شكور: «علينا أن نخرج من هنا بسرعة، عليّ أن أرجع، وعليك أن تمضي إلى الأمر الذي قلت.»

تنهدت، فقلت: «حسنًا، سأمضي... سأمضي إلى نادر، وأخبره بكل ما لديّ، عسى أن يتأتى له فعل شيء.»

فقال شكور: «خذ من راضي حذرك، كان يبحث عنك قبل يومين. ومنذ أول ليلة قص فيها أثرك، اكتشف فرّوخ أمر خروجه، حتى أمر يوم أمس بجلده في الفناء، فأُثخم جسده بالجراح، وتألم تألمًا شديدًا. وها هو ذا قد أغمي عليه في إحدى الغرف السفلى، ولكني أعلم أنه في الصباح سوف يعاود البحث عنك، إذ لم يعد يهاب السوط.»

فقلت: «وماذا إن أنبأته بمكان النقود؟»

فقال شكور: «قلت لك يا رضا هذا ليس من شأنك! لا تحسبنّ أنك بإخباره مكان النقود، سينتهي كل شيء، إنه لن يحل عنك، فإما أن يقتلك، أو يأمرك بشيء آخر. انس أمر النقود، اعن راضيًا ينقلب إلى عالمه، هذا خيرٌ له. اعن على سد المنفذ على الموتى.»

فقلت: «ووقتئذٍ لن أراك أيضًا.»

رمش شكور برفق عينيه، ثم قال: «لا ينبغي أن تراني، لم أعد

أنتمي إلى هنا. عليّ أن أنتقل إلى مقام أشد سكينة.»

فقلت مغتمًا: «ولكني أريد أن ألتقيك مجددًا، سوف أفتقدك.»

فقال شكور: «متى أردت رؤيتي، فكر فيّ. فكر في الأيام التي قضيناها معًا، حينئذٍ ستخطر في بالي بالمثل، فنصبح وكأنًا تلاقينا من كثب.»

هممت لأتكلم، عندئذٍ بدل شكور نبرة حديثه، فقال: «انسل من القصر في خفية، ولا ترتد إلى المدرسة. ما يجوز أن تذهب الليلة إلى هناك. توار في مكان ما حتى الصبح. ولما يطلع النهار، امض إلى صاحبك نادر.

ولما أعيتني الحيل، ولما ضاقت بي المذاهب. قلت: «حسنًا، كما تشاء.»

الفصل الثاني والعشرون

ولما أن غادرت قصر نؤيان خان، كان الجو لا يزال مظلمًا. كانت الأزقة مضاءة أرجاؤها بنور القمر، لكنما الخوف من كل شيء أخذ يعاودني، خوف من الجن، إلى اللصوص وقاطعي الطرق، خوف من الدراوغات والطوافين في الليل إلى راضي ورجال نويان خان. كنت أتنقل في خفية لائذًا بالجُدر. وكان جنبي لا يزال يؤلمني، وكان الألم يستعر مع تقدمي في السير. لقد قطعت عدة أزقة، حتى أدركت حمام نواب. وكانت رؤية أناس هناك سواء أولاء الذين كانوا تأبطوا بقجهم ويدخلون الحمام، أم يخرجون تخد في نفسي معدل الخوف. جلست في فجوة جدار عند الحمام. كان النصب أعياني، وجسدي يؤلمني شديدًا. كان النوم لا يزال يغالبني، رغم أني فقدت وعيي زمنًا طويلًا في سرداب القصر. أسندت رأسي إلى الجدار، وأطبقت جفنيّ، فنعست، ثم إني استسلمت إلى النوم.

وفي الصباح فتحت عينيّ على تصايح وتصارخ حمالين اثنين في البازار كانا يتشاجران. كانت الشمس قد أشرقت مذ أمد طويل، وقد نسيت لبعض الوقت أين أكون، وكيف انتهى بي المطاف إلى ذلك المكان. فلما أفقت من نومي، وتنبهت، لملمت رجليّ اللتين كنت مددتهما إلى الأرض، لأقوم، وساعتئذٍ سمعت صوت انكباب بعض مسكوكات صغيرة على أرض الزقاق الترابية. نظرت، فلقيت أسفل مني بضع مسكوكات من فئة شاهي. في البداية لم أفهم من أين جاءت، ثم بعدما أعملت فكري فطنت أن رؤية صبي صغير بأسمال بالية وبالدم ملطوخة وقد أخذه الشبات في ركن من الجدار أمر

استجلب شفقة الناس. ولما توهموا أني شحاذ أو قد أغشي عليّ من فرط الجوع والوهن، ألقوا لي ببعض نقودهم لألتقطها، وآكل شيئًا. شعرت بالفرح، والتقطت المسكوكات، إذ لم أكن تناولت شيئًا منذ ليلتين تامتين. قمت، لأذهب، وأشتري لي خبزًا. كان المخبز مكتظًا، حتى لقد وقفت مليًا في الصف إلى أن ابتعت رغيف خبز، وجلست في ركن، والتهمته. ولما أن شبعت، قصدت دار التلغراف، لأتحدث إلى نادر مثلما كان شكور قد طلب، فألتمس منه عونًا.

كانت الحياة دبت في الشوارع، وها قد انقشع وباء الكوليرا، وآب الجميع إلى أعمالهم وأشغالهم. كان القحط قد انقضى تقريبًا هو الآخر، وبعض الدكاكين تبيع المؤونة. وعلى أن الأكياس المعروضة فيها والأشولة صغيرة حجمها، كانت رؤية ذلك الحمص الحبّ والمقشور والفاصولياء والعدس في الدكاكين، تبدد الخوف من استمرار المجاعة. كانت المسافة من ساحة سبزه ميدان إلى دار التلغراف طويلة، فشحذت قدميّ، لأصل في أسرع وقت. ودعوت من قلبي ألا يحول الرئيس بيني وبين الدخول مرة أخرى، ويدعني هذه المرة أمضي بسرعة إلى نادر. طويت خلفي الأزقة والشوارع زقاقًا زقاقًا وشارعًا شارعًا، وشققت طريقي بين الزحام متقدمًا. وعلى مقربة من شارع علاء الدولة جلست إلى جدول الماء، فشطفت وجهي، ونديت يديّ بالماء، ومسحت غير مرة من تحت قميصي على جرح جنبي، فنظفت الدماء الجافة، ما أنكأ الجرح مرة أخرى، فجعل يؤلمني. حاولت أن أمسح لطخ الدماء عن قميصي أيضًا بيدي المبللة دون جدوى. ثم إني قمت، وواصلت السير. رأيت أن لا حيلة لي سوى أن أخبر نادرًا بقصتي كاملة، كانت قصة طويلة لم يتبد

لي أيصدقها أم لا. ومن بين كل تلك الأحداث العِجاب ألفيت جرح خاصرتي لم يعد شيئًا أريد أن أواريه.

محملًا بهذه الأفكار تقدمت إلى دار التلغراف. كنت أشاهد من ناحية الشارع الأخرى صفًا من الناس يقفون أمام دار التلغراف، ومثلما كان الرئيس من قبل على مقعده حيث كان قد نُصب على الباب. كنت أهم لأعبر الشارع، وإذ بنفر من دوني يقول: «إلى أين؟»

استدرت، فنظرت. أبصرت راضيًا بشعر أشقر أشعث، وعينين أشد احمرارًا. سرى الخوف في أوصالي، وانعقد لساني: «كنت... كنت أريد... كنت أريد أن أعبر إلى الجهة الأخرى.»

فقال راضي: «وكيف تجرؤ على العبور إلى الجهة الأخرى؟ أما كان من المفترض أن تبقي ريثما أعود؟»

فقلت مرتبكًا: «بالفعل... بالفعل انتظرتك مليًا، حتى إذ ألفيتك لم تأت، مضيت. قلت آتيك ليلًا ، وأخبرك.»

فقال راضي: «لكنك لم تأت ليلًا.»

فقلت: «ما كان ممكنًا، أعني أني كنت في المدرسة.»

صرّ راضي على أسنانه، وقال: «لقد أتيتك إلى المدرسة، كذلك لم تكن...»

ثم رفع يده، وهوى على وجهي بلطمة قوية: «أين كنت يا جحش؟»

انطرحت أرضًا من قوة لطمة راضي. دار رأسي بي، وصفرت أذني.

كان راضي واقفًا على رأسي ينظر إليّ ساخطًا. حينها أبصرني نحو ثلاثة أنفار ممن مروا بنا غير آبهين، ثم مضوا في طريقهم. اعتمدت بيدي على الأرض، ونهضت على مهل. ثم تراجعت خطوتين، وقلت هازئًا: «كنت في قبر أبيك.»

ثم استدرت، ومولّيًا لراضي ظهري ركضت بأقصى ما استطعت. سمعت راضيًا من خلفي وإنه يصيح: «توقف!»

ثم إنه أردف: «لأقْتلنّك.»

ركضت غير آبه بكلام راضي. تعثرت في طريقي ببعض نفر فدفعتهم، وعبرت، ثم انثنيت إلى أول زقاق في طريقي. شحذت قدميّ بكل ما أوتيت، وركضت. آلمني جرح جنبي، فتفتق، وكأنما عاد ينزف مرة أخرى. كنت أسمع راضيًا من وراء وهو بفحش الكلام يرميني، ويتهددني بالقتل، ولكن الخوف زاد قدرتي على الجري ضعفًا. انعطفت إلى زقاق، ثم منه إلى زقاق آخر. سلكت سبلًا ضيقة المسالك متداخلة، آملًا أن يضل راضي سبيله إليّ، غير أن صوته كان لا يزال مسموعًا ورائي، صوته الذي كان يبعد ويقرب تواليًا. رويدًا رويدًا غالبني التعب، فكلت رجاليّ، واستعصى عليهما الركض. مررت بعدة أزقة فسيحة، حتى أدركت شارع علاء الدولة. نزلت إلى منحدر مزدحم وبالخلق مكتظ. التقطت أنفاسي، وغدا ألم جنبي لا يحتمل. رغم هذا ما كان من الركض مناص. كنت وضعت يدي على جنبي الجريح، وأخذت أركض بما أوتيت من قوة كانت تفتر لحظة بلحظة. شعرت فجأة بحشد كبير من خلفي يهتفون، فاستدرت ونظرت عقبي. كان ما يجري خلفي مشهدًا مألوفًا لي كنت قد رأيته من

قبل، حيث كان زهاء ثلاثة دراجين، يضربون بأرجلهم ويتقدمون، وقوم كثر عقبهم يتراكضون. وعلى حين فجأة أبصرت بين الجمع الغفير راضيًا وهو يتقدم الجميع راكضًا. تسارع اثنان من الدارجين، حتى تقدما. كان أحدهما الفتى الذي كان أصاب يدي بالحديدة القرناء. أخذ يعلي قدميه وينزلهما، ويمضي قدمًا. تباطأت، ومددت إليه عيني وإنه يزلف مني. كان قد أبصرني أيضًا. لمحت في عينيه ومضيًا يوحي أنه عرفني، حتى إذ تقدم مني، صرخت: «خذني معك.»

فما دريت كيف أحاطت يد الفتى الدَرّاج بخصري، فارتفعت بخفة عود قش. ولما أن تنبهت، رأيت أني قد جلست على جنب من قضيب حديد في مقدمة الدراجة. وعقب جلوسي، ترنحت الدراجة عدة مرات، وأخذت تميل إلى هذي الجهة وتلك، وبعد قليل استوت العجلة مثل قبل وانطلقت بقوة وبسرعة إلى الأمام. كاد قلبي يقفز من فرط الحماسة، حتى إن أنفاسي تسارعت عما كانت عليه في أثناء ركضي. لفحت الريح الباردة وجهي، فانذرفت دموعي، ومن وراء مذارف الدموع لمحت المباني، والعربات المدفوعة بخيولها وإنّا نطويها خلفنا. لمحت وجوه أناس كانوا يتأملوننا مبهوتين، ويحيصون عن طريقنا حذرين، فما نجتازهم إلا ويتراكضون خلفنا. وعلى تلك الحال كان الفتى الدَرّاج لا يزال يبدل قدميه صعودًا وهبوطًا، وتتابع أنفاسه. فما تقدمنا إلا قليلًا، حتى أمسك الفتى إحدى يدي من خلف، ووضعها على حديدة في مقدمة الدراجة كان قد أمسك هو بطرفيها، فقال: «ضع يدك على المقود.»

فوضعت يدي على حديدة باردة فضي لونها في مقدمة الدراجة.

قال: «هل استمتعت؟»

آنست استمتاعًا، ولقد أفسح الخوف مكانه للبهجة. تلك الحركة السلسلة السريعة على هيكل الحديد المُركّب على عجلتين رفيعتين كانت تمنحني لذة. نشطت، وتملكني الضحك، فأخذت نفسًا ملء رئتي، وهتفت: «يا للروعة!»

قال الصبي الدَرّاج وهو يلتقط أنفاسه: «ذلك مُمتع.»

وزاد من سرعة دفع قدميه، حتى لم يعد يُسمع للناس من صخب. الآن يمكنني أن أتخيل راضيًا كيف قد نأى عنا بعيدًا فأبعد، حتى في النهاية كلٌ، ووقف مستيئسًا يرمي من نظره بسهام وإني ممتط ذلك المركب العجيب، وقد نفدث من براثنه. هدأت أنفاسي، فرفعت رأسي، وتأملت الفتى الدرّاج الذي كان يصوب النظر إلى الطريق أمامه، وقد صنع الريح من شعره غرفًا عاليًا. قلت منتشيًا: «شكرًا لك.»

فقال متبسمًا: «سأتوقف عند بوابة همايون، لتنزل.»

وما مضى من الوقت إلا قليل، حتى أوقف دراجته آخر شارع علاء الدولة بمنأى عن تزاحم الناس. عندما توقفت الدراجة كدت أسقط، لكنه وطء الأرض بإحدى رجليه، وأسند مركبه العجيب إلى جنب، ثم قال لي: «انزل.»

انملست عن القضيب وقفزت لأسفل. لقد كان وقتًا ممتعًا، فعاودت قولي: «لقد كان أمرًا ماتعًا.»

فقال الفتى: «ألم تصب يدك ذلك اليوم بسوء؟»

فرفعت يدي، وأريتها له، فقلت: «نعم ، لم يكن ذلك شيئًا.»

نظر الفتى إلى جنبي المُدمى، فقال: «ما دهاك؟»

فقلت: «لا شيء، لقد ارتطمت بالأرض.»

عض الصبي على شفته، فقال: «اذهب إلى الطبيب، وأريه جرحك.»

فقلت: «حسنًا.»

وابتعدت عنه. وإذ ذاك أقبل دراجان آخران نحوه، فتوقف ثلاثتهم أحدهم إلى جانب الآخر، ثم استداروا معًا صوب أول الشارع متقدمين، واشتطوا وهم ضاربون بأرجلهم. وقفت بضع لحظات في مكاني أرقبهم، فلم أصدق أني قبل لحظات كنت أمتطي تلك الوسيلة العجيبة وأجري مع الريح. وكأنها كانت أمتع مغامرة بلوتها في حياتي، حتى إنها لأمتع من ركوب ترام الخيل بسلاسة حركته وجريانه على أديم الشارع، وتبويق الرجل الذي كان يهرول أمامه.

لبثت في مكاني لحظات، ثم إني يممت شطر آخر الشارع. الآن صار بيني وبين دار التلغراف بونًا شاسعًا، بونًا شاسعًا إلى حد أني طردت من رأسي فكرة عود راضي إلى الحوض، ومقابلة نادر، ومضيت في سبيلي. وما هي حتى ألفيتني في شارع الناصري، حيث كنت قد رأيت من قبل نصر الله أبا رسول بصحبة بنيته عالية. معرفتي بالشارع ثبتت فؤادي، وكأنما كان عليّ المجيء إلى هنا منذ البدء. تقدمت في الشارع هائمًا. مررت بالمحال التي كانت خلافًا للمرة التي كانت من قبل مشرعة جميعًا. كان كثيرون يسيرون بخفة أمام المحال، وأحيانًا ما يتباطؤون ويلقون النظر إلى عارضات تلك

المحال. فما كدت أصل إلى دار ضيافة الحاج موسى حتى انعطفت إلى زقاق فسيح، ومن هناك أفضيت مرة أخرى إلى زقاق ضيق، وعلى هذا النحو جزت عدة أزقة حتى اقتربت من مبنى صغير على ما يبدو كان دارًا للضيافة، فتناهى إلى أذني صراخ وعجيج، إذ كانت ثمت امرأة تصرخ. وما وصلت إلى المبنى، إلا ورأيت بقجة كبيرة سقطت من شباك الدور العلوي على أرض الزقاق، ففُضت وانبجست منها أسمال كثيرة بالية من كل لون. ثم أطلت من النافذة امرأة تغطي رأسها بمنديل أبيض وإنها تصرخ: «اغرب من هنا أيها العالة ولد المحروق.... هِيهِ هِيه(29).... إن ألفيتك هنا مرة أخرى، لأقطعن رجليك.»

لم يكن الصراخ قد انتهى بعد، حينما خرج شاب نحيف فارع الطول من المبنى، وشخص إلى النافذة ببصره، فقال: «مالك تتصرفين بمثل هذا، قلت سأدفع لكِ ... ذريني الليلة اذهب إلى عملي، وغدًا أدفع لكِ.»

فصرخت المرأة مرة بعد: « بأي فم تمج هذا الهراء، إنك كل ليلة تذهب إلى عملك اللعين، فتبدد كل ما تجنيه وتقامر به على لعبة الكِعابة(30). ليس عبثًا أن طردتك أمك، وأنا أيضًا لن أمنحك غرفة بالمجان، ولا طعام بالمجان، هيا اغرب من هنا.»

وبينما كان الشاب يتأفف، جلس على أرضية الشارع يلملم الثياب التي بدت أنها له، وحينئذٍ رفع رأسه مرة أخرى إلى النافذة، فقال: «دعيني أبقى هذه الليلة فقط، وغدًا عوضًا عن تومان واحد أدفع لك تومانين اثنين. »

فصرخت المرأة الحانقة: «لا تحمل همًا، ضع تومانين أمام المرآة وانظر يصيران أربعة فافرح وامرح.»

فقال الرجل: «والله لأدفعن، ولأذهبن الليلة حقًا إلى العمل.»

صرخت المرأة مرة ثانية: «ذاك كله هراء، إن عدت إلى هنا ، قسمًا بربي لأجعلنك تُضرب حتى الموت.»

ثم أدخلت رأسها، وأغلقت النافذة.

تعرفت على الشاب، كان قوقو، قوقو ريغو. ذاك الذي خرب قفل دكان الأسطى كاظم بالبراز. وقفت بجانب الجدار أترقبه. ووقتما رأي المرأة أغلقت الشباك، كان قد وضع ثيابه التي كان قد جمعها في البقجة، وعقد أطرافها الأربعة ببعض، ثم قام. ولما قام، وقعت عيناه عليّ وإني أرقبه، فقال: «ما دهاك أيها الولد؟ الم تر رجلًا من قبل؟... امض لشأنك.»

وقفت في مكاني، دون أن أنبس بذات شفة، ونظرت إليه محدقًا. تأبط قوقو بقجته، ونظر إليّ بطرف عينه، وتمتم بشيء، ثم طفق يسير، فاستدبرته. ابتعدنا عن دار الضيافة، وعند رأس زقاق استدار قوقو، ونظر إليّ. فلما أن رآني ألاحقه، توقف قائلًا: «ما بالك تتبعني؟»

فقلت: «إني أعرفك يا قوقو.»

فلوى شفته، وقال ساخرًا: «ذاك من حسن حظك.»

فقلت على الفور: «شهدت ذلك اليوم ما فعلت بقفل دكان الأسطى كاظم.»

فقال: «وما في ذاك؟ هل اشتهيت رؤيتي ثانية؟»

نبذت حذري، وعزمت أمري، فتقدمت فقلت: «هل تريد أن تغنم مالًا جمًا؟»

ابتسم ابتسامة صفراء، فقال: «وأنى لصبي هزيل مثلك بمال جم؟»

فقلت: «ليس ملكًا لي، إنما يمكنني أن أدلك كيف تغنمه؟»

لمعت عيناه، فقال: «أيلزم أن أحسو حساء الآش؟!»

فضحكت، وقلت: «لا، في موضع بقصر ما... يوجد مال...»

فقاطعني قائلًا: «لا بد لقفل القصر أن...»

فقلت: «لا، عليك أن تساعدني نستخرج المال من هناك.»

فقال: «كيف ذاك؟»

فقلت: «سأشرح لك تفصيلًا.»

الفصل الثالث والعشرون

أيقنت أني ما كان ينبغي أن أذهب منذ أول مرة بمفردي. فلو كان شخص آخر معي في السرداب، لما علقت فيه، ولخرجت منه سريعًا جدًا. ولو كنت ذهبت برفقة آخر، لكانت النقود الآن بين يدي . والآن على فرض أني كنت سأعطى بعضًا منها للرجل الذي معي، قلت لنفسي إن الأوان لم يفت بعد، فالآن سوف يعينني قوقو، ويأتي معي إلى الغرفة السرية في قصر نويان خان، ويعينني دون أن أقع في السرداب على استخراج النقود. في البداية لم يصدق قوقو مقالي أن الأمر فيه من المال أوفره، ولكني لم أزل أختلق له الحكاية والرواية، حتى صدقني. ولما أخبرته بمالك القصر، وأولاء الذين قد سكنوه، قال: «أولئك الذين ذكرت ذَوو ثراء فاحش لو ينفضون عن أقبيتهم التراب، لصار تِبرًا.»

وقلت له إني سأعطيه بعض المسكوكات الذهب. قلت حقًا أن المسكوكات ليست لي، وعليّ أن أسلمها إلى آخر. ولكننا سيغنم كل منا سهمًا كافيًا ليبدل عيشنا من حال إلى حال.»

ثم فكر قليلًا، فقال: «أليس من خطر؟!»

فقلت: «ليس كثيرًا، ولكن علينا أن نتوخى الحذر لئلا نقع في ورطة.»

فهز رأسه، وقال: «حسنًا، متى نذهب؟»»

فقلت: «هذي الليلة.»

فقال: «متى آتيك؟»

فقلت: «متى جنّ الظلام، هلم إلى مدخل بازار عود لاجان الصغير، وسآتيك بنفسي هناك.»

فوافق، وافترقنا. لم يكن من مكان أذهب إليه، فطفت في الشوارع قليلًا، وتقدمت إلى الحصن، وبوابة همايون، ثم مرة أخرى صرت إلى شارع الناصري. ولما أدركني التعب، وطواني الجوع، استندت إلى جدار، وأغمضت عينيّ. ما كنت أبتغي النوم، ولكن أخذتني ثقلة، فانغمست في حال بين الصحو والنوم. وإذ ذاك رأيت أني في منحدر بئر الظلمات أتهاوى، ومهما جهدت، ما كنت أستطيع خروجًا. اجتاحني خوف، ففتحت عيني. كانت قلوب الناس رقت عليّ تارة أخرى، فألقوا إليّ ببعض نقودهم. قمت، وشريت لنفسي خبزًا بالمسكوكتين المتبقيتين في جيبي، وتناولته، كما ابتعت علبة كبريت، وسلكتها في جيبي. ثم إني جبت الأزقة حتى كلّت رجلاي، فجلست إبان المغيب على مصطبة أمام بيت، حيث لم يكن من أحد، وكان شعاع الشمس قد سقط على سطح الجدار المقابل. استرخيت إلى الوراء، وحدقت إلى الجدار، وتدبرت ما قد جاوزته. كان كل شيء قد تلاحق سريعًا، حتى إني ما صدقت أني قد جاوزت تلك الحادثات العِجاب. وكأني في ظرف بضعة أيام كبرت بضع سنين. استحال اللون الأصفر على الجدار أحمر فتذكرت ذلك الصبي على سطوح المدرسة. وتذكرت الميرزا حسن حينما أمسك يده، ومضيا معًا. تذكرت أني متى خرجت من المدرسة، فعليّ أن أعود قبل حلول الظلام. وها قد جن الظلام، وما فكرت في الذهاب إلى المدرسة. بمرور الليلة ستكون مضت لي ليلتان وأنا غائب عن المدرسة. كنت أعلم أنه الآن وقد تلونت الجدران بلون أحمر، أن القلق يداهم

بيوك أغا، وأنه يفتش عني. لربما يكون أنبأ الميرزا حسن أيضًا، ربما يبحثان عني مع إبراهيم وأصغر، بل وربما الميرزا جواد أيضًا. أحسست بالوحشة لفقدهم جميعًا، ووخزني ضميري أن أكون جلب عليهم متاعب وحملتهم أكدارًا. قلت لنفسي متى وضعت يدي على المسكوكات، لأعوضنّ كل فائت. ثم ما لبثت أن قمت، وهممت لأمضي. الآن أمسيت أعرف أن بضع نفر آخرين ما سوى راضي يتعقبونني، لذا كان عليّ أن أتوارى على نحو ما لكيلا يعثر أحد عليّ. فجلت أكثر ما جلت في الأزقة الضيقة الحرجة، فكنت أسير بجانب الجدران، وفي الزوايا المظلمة كي لا أرى. سرت وسرت حتى أفضيت إلى ساحة سبزه ميدان، حيث كانت لا تزال آهلة. فطنت أني وقّت توقيتًا سيئًا، إذ كان الزحام قد امتد حتى مدخل بازار عود لاجان الصغير. فإذا أردت المضي وسط الزحام، لا أعدم أن يعثر عليّ أحد أولاء الذين كانوا يجدون في طلبي. انقلبت مرة أخرى إلى الأزقة، وحاولت أن أصل إلى البازار الصغير عبر مسارات أخف وطأة. تنقلت بين أزقة عدة، وقرب الطريق أن يتضاعف عليّ، حتى في نهاية التطواف انتهيت إلى وسط البازار الصغير. كان البازار خاليًا، والمحال الصغيرة تغلق تواليًا، ويغادر أربابها.

مضيت إلى مدخل البازار الصغير آملًا أن ألمح قوقو، لكن ما كان لقوقو من حس ولا خبر بين الذاهبين والآتين. تلفت حوالي مليًا، فلم أجده. خشيت أن أكون أبطأت في القدوم، فولّى. ثم قلت ربما أنه لم يأت من الأساس. سألت نفسي ماذا أفعل من دونه، فلا أنا أستطيع الذهاب إلى القصر وإيجاد النقود، ولا أنا أستطيع العود إلى المدرسة. وبينما كنت أدور في فلك تلكم الهواجس، قال قوقو من خلفي:

«أتراك تضرب موعدًا بمثل هذا يا مليح؟!»

أدرت وجهي، ونظرت، فقلت: «وا...أأنت؟»

فقال: «ومن تراني إذن، أوَ تظن أني الشاهزاده فرمان فرما(31) بجلاله؟ ذاك أنا، حسنًا فعلت أن زرعتنا هنا ولبثت منتظرًا حتى يخضر عودنا.»

فقلت: «لقد جئت من طريق آخر، فتأخرت.»

صاح قوقو صيحة استهجان، فقال: «وماذا بعد؟ قل لي متى صرت ساذجًا لأصدقك! ولد لم يتعلم بعد طريق الذهاب والعود، ويطنطن بكلام عن سك الأشرفي(32) والذهب!»

ثم همّ ليمضي. أمسكت يديه بسرعة، فقلت: «مهلًا... لم أرد أن يراني أحد، فسلكت طريقي إليك زقاقًا بعد الزقاق.»

أدار قوقو رأسه، ونظر إليّ شزرًا، ثم قال: «وما فعلت ليتبعوك؟!»

فقلت: «لا شيء.»

وخفضت من صوتي، فأردفت: «رهط من الناس يسعون لينتزعوا تلك العملات من قبضتي.»

أدار قوقو رأسه، ونظر حوله، فقال: «لا طاقة لي لأشاجر أحدًا.»

فقلت: «ليس عليك أن تشاجر أحدًا، هلم معي، فأعني أستخرج النقود لا غير، ومن بعدئذٍ خذ نصيبك من النقود، وتولَّ.»

فكر قوقو هنية، فقال: «إلى أين نذهب؟»

فقلت: «على مبعدة بضعة أزقة أمامًا، أما الآن فالوقت مبكر، علينا أن نتئد، إلى أن يخلد أهل الدار إلى النوم.»

فقال قوقو: «واه... ومن ذا يطيق كل ذا الوقت انتظارًا، ريثما تنام جماعة... إني ذو شغل ينبغي أن أذهب إلى العمل.»

وهمّ بأن يسير، ويغادر. فأمسكت يده مرة أخرى، وقلت: «كل من هناك يبكر إلى النوم، هناك شرذمة من الصبية قليلون عليهم أن يصحوا مع شقشقة الصباح، فيباشروا أعمالهم، لذا فإنهم يبكرون إلى النوم.»

فتأفف قوقو: «لقد أورطنا أي إيراط!... حسنًا.»

كاد جلد يدي ينسلخ، كي أستبقيه، إذ أخذ يهم ليمضي مرارًا. كان واضحًا أيما وضوح مدى خوفه من تأدية هذه المهمة، خوفه من دخول قصر كبير في خفية، خوفه من أن يُمسك به. كان بيّنًا أنه لم يسبق أن فعل أيًا من هذه الأمور قط. وكيفما كان، فقد لبثنا معًا متربصين في الأزقة حتى خلى المكان برمته. ثم من بعدئذٍ مشينا بحذر وتؤدة تجاه قصر نُويان خان مخافة أن نقع في أيدي مأموري النظمية. كان الجو صحوًا صافيًا والقمر في سمائه بدرًا يضيء كل الأرجاء. وبفضل تجارب قوقو الليلية، بات يعلم أي الشعاب نسلك كي لا يُمسك بنا، ويعلم متى يمر المأمورون وأين. لهذا سلكنا دربنا إلى زقاق صاحب الديوان دون مشكل، وفي نهاية الزقاق، وقفنا إلى جدار جهة القصر. أريت قوقو القصر، وقلت: « إنها هنا، المسكوكات التي قلت لك إنها في الإيوان العلوي، سأسلك القصر من طريق ممر الماء، ثم أفتح لك الباب لتدخل أنت أيضًا.»

فتبلع قوقو ريقه، وقال: «هل أحد بالداخل؟»

فقلت: «ليس سوى حفنة من الصبية لا يجترأون على الخروج من الغرفة حذر الخوف.»

فقال: «صبية وحسب؟!»

فقلت: «كذلك رجل أو رجلان، ولكن لن يرانا أحد، سنصعد خلسة.»

فتبلع قوقو ريقه ثانية، وقال: «الآن ألا نستطيع بأي حال أن نأخذ الأهبة بحساء الآش؟!»

فقلت: «نعم، علينا أن نصعد إلى الطابق العلوي، حيث يوجد غرفة سرية، فنأخذ النقود، وننقلب عائدين. ليس في الأمر من شيء، لقد ذهبت إلى هناك مرة من قبل.»

هز قوقو رأسه، فقال: «لقد عطلتنا عن عملنا وشغلنا.»

فقلت: «سينقضي الأمر بسرعة، اجعل عينك على الباب، فادخل متى فتحته لك.»

ثم ركضت صوب القصر، فتعديته إلى نهاية الجدار حيث ممر الماء الذي دائمًا ما كنت ألج منه. وسرعان ما استلقيت على الأرض، وزاحفًا على ظهري سلكت في الممر. تساقطت هوام الأرض متباينة الأحجام على وجهي، فأغلقت عيني وفمي، وتقدمت بسرعة بتحريك مرفقيّ، وخرجت من جهة الجدار الأخرى. نهضت، فنفضت عن وجهي وثيابي الهوام، وتفلت الحشيرة أو الحشيرتين اللتين كانتا علقتا بشفتيّ. نظرت أمامي، كان القصر غارقًا في حلكة دامسة، فلا خيط نور يلمح في مكان. وذاك ما أسعدني، إذ كان من الواضح أن

الجميع نائمون، نفر واحد فقط قد يكون يقظًا ألا وهو راضي الذي كنت على يقين من أنه لم يزل يفتش عني حانقًا ساخطًا. قلت إنه وإن أراد أن يجدني، فسوف يذهب إلى المدرسة ويتربص بي أن أؤوب. ومع ذلك ليس بعيدًا أن يكون راضي الآن في القصر ما زال، لذا وجب عليّ أن أحتاط وأحترز. ركضت متسللًا بين الأشجار في آخر الفناء متجهًا إلى الدهليز قبالة الباب. وهناك توقفت، وقلبت في المكان من حولي طرفي. ولما استيقنت نفسي أن لا أحد هناك، سلكت الدهليز ثم ركضت صوب الباب. رفعت المزلاج عن ظهر الباب، وسحبت في بطء أحد مصراعي الباب تجاهي، فجعل الباب ينفتح محدثًا أزيزًا يشبه صرخة عالية، لذا حاولت أن أحركه أبطأ. لما أن انفتح الباب بقدر يكفي عبور شخص. فت منه، ورميت نظري إلى الخارج نحو المكان الذي كان على قوقو أن يقف فيه. لم يكن قوقو هناك. هرعت إلى الخارج فرأيت قوقو وقد ولّى دبره لي، وأخذ يتباعد مسرعًا. ركضت وقبضت على قميصه البالي من دبر، فقلت: «أين تذهب؟!»

استدار، فرمقني، فقال: «انظر، لقد وهمته أمرًا هينًا من الممكن أن نأخذ له الأهبة له بحساء الآش، وإني لم يسبق لي أن ذهبت إلى بيت أحد للسرقة، هذا ليس عملي.»

فقلت هامسًا: «أي سرقة؟! لا أحد يعلم أن نقودًا جمة هناك، كانت ملكًا لرجل قد مات، والآن ليس لها صاحب.»

توقف قوقو، فتمكث قبل أن يقول: «دعني امضي إلى عملي.»

فقلت: «تعال معي الليلة، ما ستناله يدك وافر حتى إنك لن تعود

من بعدئذٍ مجبورًا على الذهاب إلى العمل بعد الآن.»

وكأنه تردد أخذ يقدم رجلًا ويؤخر أخرى قليلًا، ثم ما لبث أن استدار نحو القصر، وقال: «لقد أورطنا أي إيراط!...»

وكيفما كان، جئت به معي إلى القصر. أغلقنا الباب خلفنا. طوينا الدهليز، ثم صرنا منه إلى الفناء. أمسكت بيده، واجتذبته معي خلال الأشجار في طرف الفناء. وللحظة توجست شيئًا يتحرك بين الأشجار في ناحية الفناء الأخرى. وكأن أحدًا هناك، فقلت لقوقو: «توقف.»

توقفنا. وأصخت السمع، فما سمعت إلا نباح كلب لا ينقطع. تقصيت النظر في محيط الفناء، فلم يُر لي شيء. ومع ذلك لبثنا متربصين. وما مضى من الوقت شيء حتى قلت لقوقو: «لنذهب.»

وسرنا في بطء. وحينما كنا نتحرك رميت نظري من وراء أغصان الأشجار اليابسات إلى الحوض وسط الفناء الذي كان ماؤه يلمع في النور المقمر كما القار الأسود. تذكرت شكورًا وقد ناءت بحملي قدمي، فأهبت بنفسي زاجرًا أني الآن ما دمت قد جئت هنا، فعليّ أن أقضي أمري. عليّ أن أحمل تلك النقود، وأعود لحياتي. توقفنا مرة أخرى عند السلم، فجلنا النظر في أنحاء المكان. ولما استوثقت من عدم وجود أحد بالمكان، صعدنا السلم، ووصلنا إلى الإيوان، ثم مررنا على رؤوس أصابعنا أمام الغرف، حيث لم يكن يُسمع من خلف أبواب الغرف الموصدة صوت. ودون أن يرانا أحد، بلغنا جهة الإيوان الأخرى. نزلنا سلالم الجهة الأخرى، حتى وصلنا إلى الباسطة. وفي الأرض الخلاء التي خلف القصر كانت بضعة كلاب تتهارش، وتتنابح،

إذ لما كنا هناك كان بوسعنا في نور القمر رؤيتها وبعضها يخب على بعض، ثم تتباين، فتعاود من الجهة الأخرى التهاجم. أريت قوقو طوبة الباسطة الكبيرة، وهمست له همسًا كنت أنا نفسي أسمعه بصعوبة: «علينا أن نمسك حرف الطوبة ذاك، ثم نرفعها.»

مرر قوقو أصابعه النحيلة بين الفواصل، ورفع الطوبة، فتحولت الطوبة إلى أعلى ارتفاع البويب، وتراءت الكوة التي تحتها. ولما رأى قوقو الكوة، قال: «وي! ثَمّ شيء.»

فقلت: «أجل، ذاك هو المكان، علينا أن ننزل.»

ثم أخرجت من جيبي علبة الكبريت التي كنت ابتعتها بمال التسول، وأشعلت عودًا منها. وفي ضوء شعلة الكبريت، تراءى لنا الدرج الذي يفضي إلى الغرفة تحت الأرض، فقلت: «هيا بنا.»

فقال قوقو: «أوليس من خطر؟!»

فقلت: «نعم، لقد جئت ذات مرة.»

ثم أطفأت عود الكبريت، وعلى ضوء القمر وطئت أول درجة. فما نزلت ثلاث درجات، حتى نظرت فوقي، وإلى قوقو الذي كان ينظر إليّ بريبة وتردد، فقلت: «أقبل...هيا أقبل!»

قال قوقو شيئًا لم أتبينه، ثم وضع قدمه متحرزًا على الدرج. نزلت فوقفت جهة الدرج، وأشعلت عود كبريت آخر. نظرت أولًا إلى أعلى ورأيت قوقو وإنه يهبط، ثم نظرت حولي، وحينئذٍ أُغلق البويب فوقنا بصوت عالٍ، فانطفأ عود الكبريت في يدي، وغرق المكان برمته في ظلمة دامسة. ساعتئذٍ صرخ قوقو مُفزعًا: «ما الخطب؟...

ما الخطب؟»

فقلت خائفًا: «اهدأ...، لم يحدث شيء، لا تصرخ. إن ذاك البويب بعد مدة قصيرة ينغلق من تلقاء نفسه، فينفتح ثانية لما ندفعه لأعلى.»

فتذمر قوقو قائلًا: «المكان مظلم قاطبة، في تلك الظلماء أي شيء لعين تريد فعله؟»

فقلت: «معي عود كبريت الآن سأشعله.»

وأخرجت عودًا آخر من علبة الكبريت، فأشعلته. فأبصرت أول ما أبصرت قوقو الذي كان قد تيبس على الدرج، ثم ألقيت نظرة من حولي. أبصرت كوة أرضية الغرفة التي كنت هويت منها وسط الموتى، حيث كانت لا تزال مفتوحة، ومن خلفها على المصطبة في جانب الغرفة الآخر يبرز كيس النقود. تأملت الكيس قليلًا والأرضية التي كان مفتوحة كفيه مفغور، ولم يكن ممكنًا حتى تخطيها بأي حال. ثم إني تأملت الجدران، حيث كان يبرز أمامي قليلًا على الجدار جهة اليمين دعامة طويلة من الحديد على طرفها مقبض خشب صغير. كان ذاك المقبض الذي حدثني شكور عنه، يلزم أن يديره أحد برفق، ويظل ممسكًا به إلى أن تنغلق كوة الأرضية. آنذاك نفد عود الكبريت فلذع يدي، فرميته على الأرض، فخيم الظلام على المكان. أما قوقو الذي كان هبط الدرج، قال من خلفي: «أشعِله، أشعِله، أسرع.»

فقلت: «حسنًا، الآن.»

وأخرجت عود كبريت آخر، فأشعلته. عندما أُضيء المكان من حولنا، نظر قوقو إلى الأرضية، فقال: «لمَ يبدو هذا المكان كذا؟»

ردًا على سؤاله، أشرت إلى المصطبة على جانب الغرفة الآخر، والكيس الذي عليها، فقلت: «النقود هناك.»

فمد قوقو نظره إلى الكيس، ثم نظر تحته، فقال: «لا يمكننا أن نعبر من هنا، سوف نهوى.»

ناولته عود الكبريت المشتعل، فقلت: «أمسك ذا.»

أخذ قوقو عود الكبريت مني، فقال: «إنه يذوي...»

أخرجت علبة الكبريت من جيبي، وأعطيتها إياه، فقلت: «كلما انطفأ واحدًا، أشعل آخر.»

قبضت على المقبض وأدرته، فلم يتحرك. أحكمت قبضتي غير أنه ما تحرك. كنت أبذل غاية قوتي، وعندئذٍ قال قوقو: «ماذا تفعل؟»

فقلت: «أريد أن أديره، لكنه جامد لا يلين.»

فقال قوقو: «علّه يدور إذن من جهته الأخرى!»

رأيت أنه محقٌ. أدرت المقبض من جهة العكس. في البداية استعصى بعض الشيء، لكني عندما شددت علية بكلتا يديّ، تحرك ببطء. انطفأ عود الكبريت، فأشعل قوقو عودًا آخر. أدرت المقبض شيئًا فشيئًا، وذهلت إذ رأيت أن لوحين عريضين كبيرين على جانبي الهوة المفتوحة في الأرض، يتحرك أحدهما تجاه الآخر. قال قوقو: «واهًا... ذلك الموضع.... يُغلق.»

فقلت: «أعلم.»

وأدرت المقبض مرة أخرى. فانضم اللوحان العريضان إلى بعضهما شيئًا فشيئًا، وشدت الكوة. هممت لأفلت يدي عن المقبض لولا أن رأيت وكأنه سوف يدور من جهة العكس، وتنفرج الكوة مجددًا ذلك بمجرد أن أفلت يدي عنه. لذلك لم أترك المقبض. قلت لقوقو: «سأمسكه، واذهب أنت فاحمل الكيس.»

على ضوء الكبريت نظر قوقو تحته، وتقدم خطوة إلى الكوة، فداسها بخفة، ولما تيقن أنها مغلقة، وطئها، وتقدم، حتى وصل إلى المصطبة، فتناول عنها الكيس، ورجه بين يديه، فعلا صوت ارتطام مسكوكات وفيرة بعضها ببعض. استدار ونظر إليّ، وقال والابتسامة على وجهه: «إنه ملآن!»

فقلت: «نعم، تقدم، ناولنيه.»

فقال قوقو: «أناولكه؟!»

فقلت: «أجل، هيا، سأفتحه، وأعطيك حقك.»

تلبث قوقو في مكانه، ونظر لي بعين الريبة، أمسكت المقبض بيد، ومددت يدي الأخرى إليه، وقلت: «هاته، إن لم تعطنيه، فلن تستطيع الخروج من هنا، هاته لنخرج معًا.»

تقدم قوقو متبطئًا، حتى توسط موضع الكوة تقريبًا، كان ممسكًا بعود الكبريت بيد، وباليد الأخرى بكيس النقود. مد لي يده التي كانت ممسكة بالكيس، فأخذته منه برفق. وعلى حين غفلة لفح عود الكبريت المشتعل يده، فألقى عود الكبريت، وتغشى المكان برمته

ظلامًا. وإذ بي أفلت يدي عن المقبض الخشب، فارتفع صوت دوران المقبض، وانفراج كوة أرضية الغرفة، وصراخ قوقو وإنه يهوى: «آه أوه...»

كنت تجمدت في الظلام المطلق في مكاني، وكانت يدي تنوء بحمل كيس النقود، وساقاي ترتجفان. سمعت قوقو وإنه يصارخ: «افعل شيئًا، انتشلني.»

لم يسقط قوقو، إنما وكأنه قد علق في مكان، إذ قال مرتين: «خذ بيدي، سأسقط.»

كنت معميًا، لا أكاد ألمح شيئًا. صرخت: «لا أرى شيئًا.»

فصرخ قوقو: «أدر ذياك المقبض اللعين، أدره، لتسد الفتحة مرة أخرى، وأتمكن من الصعود.»

ودون أن أنطق كلمة، وقفت في موضعي. لم أكن أبصر شيئًا، غير أني كنت أعلم أن هوة كبيرة أمام قدمي تنفذ إلى سرداب الموتى، وأن على الجدار جهتي مقبضًا يمكن إدارته، فتنسد تلك الفتحة، وأن من ورائي درجًا يمكن صعوده، وفتح بويب في منتهاه، والنفاذ منه. صرخ قوقو مرة أخرى: «مالك لا تفعل أي شيء أيها الجحش، افعل شيئًا لعينًا، سأسقط.»

ودون أن أقول شيئًا، وليته ذبري، وصعدت الدرج خلفي. صعدت الدرج أركض ركضًا. ولما أن سمع قوقو قرع قدمي في أثناء ارتقائي، صاح بأعلى صوته: «إلى أين تذهب أيها النذل، أعني لأخرج.»

وضعت الكيس على آخر درجة من السلم، ووضعت يدي على كوة

السقف، ودفعت ما استطعت إلى ذلك سبيلًا. ارتفع البويب ببطء وثقل، ثم انتصب عموديًا. نفحني نسيم الخارج العليل، وتنسمت نفسًا طازجًا. كان نور القمر ينير المكان من حولي. انثنيت، وتناولت كيس النقود، فوقعت عيني على الهوة في أرضية الغرفة. كان صوت قوقو وإنه يستغيث لا يزال يعلو. لم أعبأ بالًا، فرفعت الكيس، وأخرجته. وبعدئذٍ ثبت يدي على طرفي الكوة، وأصعدت نفسي حتى صدري. لكني لم أكد أخرج كاملًا، حتى سمعت نفرًا يصرخ: « امسكوه.»

جمدت في مكاني مرتعبًا، و لم أعرف ماذا أفعل. فما هممت لأنظر حولي، إلا سمعت أحدًا يقول مرة ثانية: «امسكوه، لا تذروه يهرب.»

تناولت على الفور كيس النقود، وعدت داخل الكوة. أردت أن أكر عبر الدرج إلى أسفل، حينئذٍ فجأة لمحث قدميّ رجل متشح بالسواد، وقد وثب فوق الفتحة، ومضى. وقتئذٍ سقط من فوق الفتحة على رأسي كيس أبيض كبير، كان كيسًا ثقيلًا، وقد اندفعت منحدرًا من أعلى الدرج إثر إصابته رأسي إلى أسفل. كان كيس النقود قد سقط هو الآخر من يدي، وتألم جسدي، فجعلت أئن وإني أتقلب على الأرض. في ذلك الوقت سمعت قرع أقدام بعض أناس من أعلى وهم يركضون، وصوت رجل يصيح: «امسكوا ابن المحروق ذاك... لقد قتل تيمور خان.»

كنت سقطت قرب الهوة. مددت يدي أتحسس الأرض، ووجدت كيس النقود قربي. وما عرفت للكيس الأبيض أثرًا، وكأنما سقط داخل الهوة في أرضيه الغرفة. كان قوقو عالقًا، ويجهد ليصعد،

فقال: «أوَرأيت أيها الجحش؟... أورأيت أنك لا تستطيع الخروج بمفردك... هيا.... هيا أدر ذياك المقبض، لتغلق تلك الهاوية اللعينة، وأخرج... لقد كلت يدي عن حملي.... سأسقط.»

هممت لأرد، لولا أن البويب أعلى الدرج أغلق بصوت عال، وعاد الظلام ليخيم على المكان. صرخ قوقو: «وا غوثاه.... وحياة أمك أفعل شيئًا، إني لأخاف الظلماء.»

نهضت بصعوبة، حملت كيس النقود، وصعدت الدرج مرة أخرى. وفي أعلاه عاودت دفع الفتحة حتى انفتحت. لبثت قليلًا، وأصخت السمع للأصوات من حولي، لم تتوجس أذناي إلا صرخات قادمة من بعيد. خرجت من الفتحة بحذر، ونظرت حولي. كان ثمت صرخات تدوي من الأرض خلف القصر، كان رجل قد هرب، وتخطى الباسطة وثوبًا إلى الخلاء الترابي خلف القصر، و تعقبه الآخرون. آنئذٍ كانت الفرصة غانمة لأهرب، فدرجت الدرج بسرعة، ثم تواريت خلف جدار الإيوان، وتفقدت المكان، فلم يكن من أحد. كانت ثمت رائحة تشبه البارود منتشرة في رحاب المكان. يممت وجهتي إلى الإيوان، وقليلًا إلى الأمام كان أحد أبواب الغرف مفتوحًا، ويخرج من داخلها دخان، وكان امرؤ في الغرفة يسعل. تلبثت في مكاني ثوان معدودات، فما كنت لأجرؤ على التقدم، ثم إني استدرت، ونظرت خلفي. كنت خائفًا أن يباغتني أحد من الخلف، فالتصقت محتميًا بالجدار. كان صوت السعال لا يزال، وهناك رجل يسعل تارة، وأخرى يتهوع. قلت مهما كان فهو في حال أسوأ من أن يقدر على إيذائي، فتقدمت زهاء خطوتين.

والآن فوق رائحة البارود شممت رائحة أخرى نفاذة، رائحة شبيهة برائحة الثوم الذي قد تكون خلطت به أشياء أخرى. وفجأة خرج من داخل الغرفة شاب قوي البنية أصلع، وألقى بنفسه متهالكًا إلى الدرابزين في واجهة الإيوان، وحينئذٍ لفظ من مكانه قيئه تجاه الفناء وسعل. كان تهوعه منكرًا وكأنما يريد أن يقيء قلبه وأحشاءه. ثم من بعد ذلك استدار، واستند إلى الدرابزين، فوقعت عيناه عليّ، وأبصرني، فتراجعت القهقرى. كنت قد تفرست وجهه، إذ كان ذا شارب طويل يتدلى حتى طرفي شفته. وكان خيط دم انسل من زاوية شفته، فانحدر مارًا بشاربه. لما أن رآني، حرك شفتيه، كأنه كان يحاول أن يقول شيئًا. حرك شفتيه مرتين ثلاثًا، ولكنه قبلما يلفظ بحرف انغلقت عيناه، وانكفأ رأسه إلى منكبه. وقفت قليلًا، وصوبت فيه النظر. ولما ألفيته لا يحرك ساكنًا، سرت متئدًا، ومررت به. وبينما كنت اجتزت نحو غرفتين، قال أحد ما داخل إحدى الغرف: «رضا.... أهذا أنت؟»

مكثت في مكاني لحظة، كان قد رآني شخصًا وتعرف عليّ. أدرت رأسي جهة باب الغرفة، فرأيت عبر شق الباب وجه صبي أضمر، ينظر إليّ وقد أخذت به الدهشة. ولما أن رآني أبادله النظر، عاود سؤاله: «أأنت رضا؟... أقتلته؟!»

لم أجبه، واستدرت، فانكدرت في سيري. صرخ الصبي الذي كان يرقبني عبر شق الباب قائلًا: «ذاك رضا... رضا... رضا قتل تيمور خان.»

ثم ردد بعض صبية آخرين من داخل الغرف وعبر الأبواب قائلين:

«رضا... رضا.»

ركضت حتى رأس السلم. تطلعت إلى الفناء، فلم أجد أحدًا. حينذاك هبطت بسرعة. كنت أهم لأمضي نحو الأشجار لولا أن أنقضت علي كتفي براثن حادة لاذعة.

الفصل الرابع والعشرون

كانت السيدة المُربّية قد طأطأت رأسها، وأخذت تفكر. قال أبي: «الآن ما ضرنا شيء، قولي له أن يبحث هناك، إن وجده فخير، وإلا فلن يخسر شيئًا.»

كان أكبر قد وقف إلى جانب الباب، يتوسل بعينيه السيدة المربّية، لتقبل، لكن السيدة المُربّية لم تنظر إليه حتى، بل ولم تنظر إلى أي أحد. كانت قد أمسكت بيد الفتاة الصغيرة التي تجلس بجانبها، وتتأمل خرزات المسبحة الكبيرة في يدها الأخرى. ولما وجد أبي أن لا أحد يتكلم، أردف قائلًا: «لم أكن لأصدق أيضًا، لأني لم أقرأ ذلك الجزء في مذكرات رضا قُلي، ولكن ابني إذ كان قرأها، بصّرني، فرأيت أنه محق.»

كم شرحت لأبي وأوضحت، ليصدق. أنا نفسي كنت قد نسيت ذلك الجزء من نصوص رضا قُلي. ولما لم تكتمل مذكرات كافور على هذا النحو حتى النهاية، جلست أنا و أبي، وتفكرنا. قالت ليلى: «تُرى ماذا حدث في النهاية؟!»

فقال أبي: «ربما فعل شيئًا، أرأيت كيف كان قد كتب أنه سوف يُقدم على فعل شيء.»

فقالت ليلى: « هذا هو السؤال.... ماذا فعل؟»

فقال أبي: «كان كافور معرضًا للخطر، وقد يُقتل هو وأسرته، فكان عليه أن يفعل شيئًا ليمنع ذلك الأمر بطريقة أو بأخرى.»

فقالت ليلى: «هل تقصد أنه هرب؟»

فأجاب أبي: «لا، أولًا فإنه لم يكن يستطيع الذهاب إلى مكان لا يدركه فيه هؤلاء الناس، فالعثور على ثلاثة أفراد سود لم يكن شيئًا بالنسبة لهم. ثانيًا فإن أسلوب صياغة كافور لكتاباته يشبه صياغة وصية. مثلما قال إنها مذكرة أرغب في أن يقرأها الآخرون، ويفهموا لماذا فعلت هذا الأمر.»

فقالت ليلى: «ربما أراد أن يصيب أولئك الناس بسوء، كأن يقتل نؤيان خان مثلًا أو...»

تذكرت الأجزاء الأخيرة من مخطوطات رضا قُلي. الآن بعدما كنت قرأت مخطوطات كافور فإن الأجزاء المبهمة فيها اتضحت لي. هتفت مغتبطًا: «لقد فهمت، كان كافور ذاك...»

نظر أبي وليلى إليّ بدهشة. قال أبي: «ماذا؟... كان كافور ماذا؟»

فقلت متحمسًا: «كنت قد نسيت تمامًا. أنتما لم تقرأا المخطوطات كاملة، أما أنا فقرأتها غير أني كنت نسيت. ذلك الرجل الذي وثب فوق الكُوّة كان كافورًا.»

فقال أبي مستغربًا: «أي كُوّة؟»

فقلت: «الآن سأريك.»

ثم اتجهت إلي حقيبة ظهري، وأخرجت أوراقي المنسوخة من مخطوطات رضا قُلي ميرزا. سريعًا سريعًا تصفحتها، حتى وصلت إلى الصفحات الأخيرة، حيث كان رضا قُلي يحاول أن يخرج من كُوّة السقف، فجاء أحد ووثب فوقها.

قرأت على أبي وليلى الواقعة كلها منذ بدايتها قبل عدة أسطر، ثم إني ضممت الأوراق إلى بعضها مرة أخرى، وقلت: «عندما هدد فرّوخ وتيمور بقتل كافور وزوجته وطفله، بادر كافور، وتسلل في الليل خفية إلى القصر. وفي غرفة تيمور، ربما يكون أعاد صنع شيئًا شبيهًا بمسحوق التخدير، وألقاه في الغرفة. ثم تناول كيسه الذي كان قد وضع في الغرفة، وانطلق إلى الخارج. هل تتذكران أنه كان قد كتب لقد سقط كيسي من يدي في غرفة المريض؟ كان كُتيب أبحاثه في الكيس أيضًا. لقد أخذ الكيس، وفر هاربًا من الغرفة، ورجال تيمور ورائه. من المحتمل أن يكون الطريق المؤدي إلى السلم مغلقًا، وكأن رجال تيمور كانوا هناك مثلًا، أو كانوا قادمين من تلك الجهة. حينئذٍ اتجه كافور إلى جهة الإيوان الأخرى، حيث كان هناك سلم أيضًا، غير أنه يُفضي إلى الباسطة التي توجد تحتها الغرفة السرية. وفي الوقت نفسه الذي كان رضا قُلي قد فتح بويب تلك الغرفة ليخرج، وثب كافور فوق الكوّة. ثم إنه رأى أن الطريق مغلق، ولا يمكنه سوى القفز إلى الخلاء خلف القصر، ثم يمضي مغادرًا، فألقى كيسه في كوّة الغرفة السرية، ووثب من الباسطة إلى الأرض الخلاء و...»

قاطعتني ليلى، فقالت: «ولماذا ألقى الكيس في الكوّة؟!»

فقلت: «لا أدرى، ربما لأنه أعاق مسيره، ربما ليأتي بعد ذلك ويأخذه.»

وقال أبي: «ربما لكي لا يقع في أيدي رجال تيمور، لأنه كان قد دون مزيدًا من المعلومات في هذا الكُتيب، فأراد أن يتخلص من هذه الكتابات، وإلا فإن رجلًا قد شرع في أمر آخره الموت، لن يعود يفكر

في أخذ الكيس وأغراضه. لم يكن يريد أن تبقى كتاباته لدى فرُوخ ورجاله من بعدئذٍ، لم يكن يريد أن يستخدموا بكتاباته تلك. لذا أراد أن يخفي أثرها.»

سكتنا بضع لحظات، حتى قال لي أبي: « حسنًا، وماذا بعد؟...»

فقلت: «لا شيء آخر... ربما قفز من فوق ذلك السور، فلحق به من كانوا ورائه فقفزوا و... »

فقالت ليلى: «ثم...؟»

أطرقت قليلًا، فقلت: «من المستبعد أن يكون نجا.»

فقالت ليلى: «ألم يكن من الأفضل أن يفكر قليلًا بشأن طفله بدلًا من الذهاب إلى تيمور، وجلب هذا البلاء لنفسه؟!»

كنت أفكر فيما أجيبها به، ولكن أبي سابقني قائلًا: «أيعد تصرفه هذا صحيحًا أم لا ذلك شأن، ولماذا لم يعالج ابنه ذلك شأن آخر. كان فرُوخ قد أنذره وقال سنأتيكم في غضون يومين ونقتلكم جميعًا. في حين كان تصنيع ذلك الترياق يستغرق مدة أطول، وفوق ذاك فإنه لتصنيعه كان بحاجة إلى ذاك العشب... ما اسمه؟»

فقلت: «الجونجادا. »

فقال أبي: «كان في حاجة إلى عشب الجونجادا ذاك الذي كان على ما يبدو قد نفد، أو نُسي في مكان ما بالقصر، لذا فإنه عزم على ذلك الأمر، أن يبذل نفسه من أجل أن تعيش زوجته وطفله. ربما كان من الأفضل لو تصرف بتعقل أشد. مثلًا كأن يحتفظ من البداية بقدر من ذلك الترياق لطفله، أو يفكر له في حل آخر قبل الذهاب إلى تيمور

خان.»

قالت ليلى: «أظن أنه قبل أن يمضي في إثر تيمور، كان قد عهد بزوجته وطفله إلى أحد، أو أخفاهما في مكان، لأنه على ما يبدو لم يصبهما مكروه، وبقيا حيين.»

فقال أبي: «أجل ليس بعيدًا أن يكون الأمر كذلك.»

بدلت موضوع الحديث، فقلت: «والآن هل توافقاني الرأي أن كُتيب كافور قد سقط في

ذاك السرداب تحت باسطة السلم؟»

فقال أبي وليلى: «أجل.»

بعد ذلك، كان أول تصرف منا هو إبلاغ أكبر بمكان الكُتيب. تقدم أبي نحو الباب، ونادى أكبر. وسرعان ما صعد أكبر. طلب منه أبي أن يتصل بسيده، ويخبره بمكان الكُتيب. ولكن أكبر قال إن سيده لن يصدق هذا الكلام ما لم تؤكده السيدة المُربّية بنفسها. وهذا ما صار إذ نزلنا وتوجهنا إلى السيدة المُربّية، والآن أخذ أبي يوضح لها الأمور التي كنا قد أدركناها. مرة أخرى لزمت السيدة المربّية الصمت. قال أبي: «الوقت يداهمنا... الآن هذا الرجل في حال حرجة، أخبروه بأن يذهب ويبحث عن الكتاب في أسرع وقت.»

أدنت السيدة المربية رأسها برفق من أذن الفتاة الصغيرة، وقالت شيئًا، ثم التفتت الفتاة إلى أبي وقالت: «السيدة المُربّية تقول أنت تذكر أن ذلك الصبي رضا قُلي كان قد ذكر أن الكُتيب سقط في تلك الغرفة تحت الأرض. لكنه كان قد مات، لا يمكنه أن يرى شيئًا.»

وقبل أن يقول أبي شيئًا، عدلت جلستي على الأرض، فقلت: «كلا، لم يكن ميتًا، لقد قرأت في مذكراته أنه سقط من الكوّة، فأخذ يصيح، حتى أغشي عليه، وقد سمع كافور صوته من ناحية الجدار الأخرى، فظن أنه مات.»

حدقت إليّ السيدة المُربّية، وكأنها كانت تنتظر أن أقول شيئًا آخر. أشرت إلى حقيبة ظهري، وقلت: «ها هي ذي، إنها هنا، مذكرات رضا قُلي ميرزا هنا، إذا شئتِ أعطيتك إياها، لتطلعي عليها أو أقرأها عليك بنفسي.»

وعقّب أبي، فقال: «الوقت يداهمنا أيتها السيدة المُربّية.»

تأملت السيدة المُربّية مسبحتها، ثم أدنت رأسها من أذن الفتاة، وقالت شيئًا. حينئذٍ قامت الفتاة واتجهت إلى أكبر الذي كان قد وقف عند الباب، فقالت: «السيدة المُربّية تقول اذهب، واتصل بالسيد، وأخبره.»

الفصل الخامس والعشرون

أوشكت عينا راضي الحمراوان أن تخترقا قلبي؛ لم تكن نظراته بمثل هذه الحدة بتاتًا. وكانت رائحة أنفاسه الكريهة أربكتني. جعلت ساقاي ترتعدان حِذر الخوف والألم الذي سرى في كتفي فتفرق في سائر جسدي. قلت: «دعني... دعني.»

أغرز راضي في كتفي براثنه غرزًا شديدًا، حتى وكأن رؤوس أصابعه كادت تخرق كتفي وهي تتضامم. انثنت ركبتاي، وطفقت أتوجع: «بالله عليك...»

انتزع راضي بيده الأخرى كيس النقود من قبضتي، فحسبته سيعتقني لساعته، لكن هيهات. ولما لم يعد لي طاقة ولا جلد، جثوت على ركبتي حتى أحمل راضيًا على أن ينحني عليّ فيقتلع مني براثنه. فقلت: «بالله عليك دعني...»

فقال راضي: «أوَخلت نفسك أريبًا فطنًا؟!... أوَددت لو تأخذ على كل شيء وتمضي به؟!»

فقلت: «لا... لا... إنما أردت...»

ولما لم يتفتق ذهني عن منطوق، أعدت عليه القول: «دعني... آه...»

فقال راضي: «أكنت تود أن تستغفلني؟!»

كان الألم قد بات فوق احتمالي، فتلويت منه، وقلت: «أنا آسف... آسف»

وإذ فجأة زعق أحد من أعلى شرفة الإيوان قائلًا: «دعه.»

جلى راضي ببصره إلى أعلى، فرأى الصبية الذين كانوا خلف الدرابزين قد اجتمعوا. مكث لحظات، ثم قال وهو ينظر إلى أعلى: «من ذا الذي قال دعه؟!»

لم يجبه أحد. فعاود راضي إليّ النظر، ثم ما لبث أن فك وثاق قبضته، وركلني في صدري ركلة، انطرحت إثرها على الأرض. حينها هدأ ألم كتفي، والتقطت أنفاسي. جلى راضي ببصره إلى أعلى، فقال: «تركته... حسنًا؟!»

صعدت بصري إلى أعلى وأنا طريح الأرض، فأبصرت الصبية وقد ألقوا إليّ النظر من وراء درابزين الإيوان مبهوتين مذهولين.

قال راضي: «الآن أريد أن أريحه. كيف؟.... أريد أن أشيعه إلى رفيقه.»

ثم انحنى، وبتلك اليد التي أفلتها عني، أمسك بطوق قميصي، وأقامني. ثم تارة أخرى التفت إلى أعلى، فقال: «هل من قول آخر؟!»

وما كان جواب الصبية إلا أن سكتوا. فجرني راضي بذات اليد على الأرض. كنت خائفًا ذعرًا إلى حد أني لم أعد أملك من أمري شيئًا. وصلنا إلى حافة الحوض، فأقامني راضي لأقف موليًا ظهري للحوض، ثم دفعني.

تراجعت خطوتين فالتصقت قدمايّ من الخلف بحرف الحوض. ساعتئذٍ رمقني بنظرته الحقودة، فقال: «ليلة أن جئتك... ليلة أن أفضيت إليك بشقوري(33)، كنت أظنك أخا ثقة... أظنك لن تغدر بي...»

ثم رفع يده إلى صدري، وقال: «ما أسرع ما صرت أريبًا، أيها الصبي القروي!»

ودفعني إلى الوراء برفق، ولكن لم يعد في الوراء موضع قدم لي. كنت أغلقت عينيّ أمام عينيّ راضي الطافحتين حنقًا وانتقامًا. انحنى ظهري خلفًا، وكدت أواقع الحوض. ولشد ما حللت عقدة لساني فقلت: «عذرًا... كلها لك... كل النقود... لا أريد لنفسي شيئًا.»

فقال راضي: «الآن فات الأوان...»

ودفع بيده في صدري دفعة أشد من ذي قبل. تراجع رأسي كثيرًا، دُفيعة واحدة فقط كانت كافية لأنبذ في الحوض. رفع راضي رأسه إلى درابزين الإيوان، فقال للصبية الذين كانوا يتشوفوننا: «تأملوا... سأشيع هذا الصبي الأريب إلى مثواه المُستحق.»

وعلى حين غرة لاح من دون راضي ظل، فقال: «انزل به ما شئت، ولكن أعطني هذا أولًا.»

ثم استلب كيس النقود من يد راضي، وولى مُدبرًا. رفع راضي يده عن صدري، ونظر إلى الرجل الذي كان باغته من وراء، كذا نظرت، فرأيت قوقو بقامته الفرعاء الهزيلة كان أمسك بكيس النقود يركض إلى جهة الإيوان آخر الفناء. أتبع راضي قوقو بنظره، ثم نظر إليّ، فقال: «لقد أخذ النقود.»

شد راضي أسنانه بعضها على بعض، كأنما كان يحاول أن يختار بين أمرين: قتلي، أو الإمساك بقوقو. رفسني رفسة شديدة في بطني أولًا، ثم جرى خلف قوقو. استشرى شديد الألم في بطني، فتهالكت

على الأرض. أوشكت على السقوط في الماء، لولا أني استمسكت بحافة الحوض وارتميت على أرض الفناء. كانت أنفاسي قد انحبست خوفًا وألمًا، ولبثت لحظات على أرضية الفناء هامدًا. ألزقت جانب وجهي بأرضية الفناء المفروشة بالحصى والباردة، وأقفلت جفنيّ. ثم إني أسندت كفي إلى الأرض, وأقمت نفسي بعناء. كان تصايح راضي وقوقو وتصاخبهما داخل الدهليز آخر الفناء يُسمع في الجهات. كنت أحاول أن ألتقط أنفاسي، عندما لطمتني لطمة شديدة على قفاي. فكبوت، وسقطت على الأرض. في الوقت عينه علت صرخة راضي المنكرة القادمة من الدهليز. نظرت فوقي، فألفيت فرُوخًا واقفًا على رأسي بقميص أبيض طويل من دون قباء ولا قبعة الفرو التي دائمًا ما كان يعتمرها. كان من الواضح أنه هب من نومه فزعًا. لقد تباينت دون قبعة هيئته، إذا بدا رأسه الأصلع أصغر، ولولا أنه تكلم لما عرفته: «ماذا تفعل هنا يا جحش؟»

نظرت إليه وإني على الأرض، فقلت: «لا شيء... لا شيء.»

وضع فرُوخ إحدى رجليه على صدري وداس، فقال: «شيء ولا شيء! قل أي إثم اقترفت؟!»

كانت وطأة قدمه حبست أنفاسي، فأردف فرُوخ: «أتواطأت أنت وذياك المقبور على أمر؟!»

كنت أختنق، فتخبطت بيدي وصككت برجلي لأنملس من تحت قدمه، إذ خلت عظام قفصي الصدري ستتكسر في الحال. حينئذٍ كان الصبية يصطخبون في الإيوان العلوي. امتقع وجهي، وغشيّ عيناي سواد. حتى عندما رفع فرُوخ قدمه عن صدري، كانت أنفاسي

حبيسة صدري لا تزال، وقد جهدت جهدًا لأتنفس مرة أخرى. ابتعد فرّوخ عني خطوة، وملتفتًا إلى آخر الفناء قال: «ما الخطب؟ ماذا يفعل ذاك هنا؟»

كان يخاطب راضيًا الذي كان يتقدم من الدهليز. نهضت عن مكاني، كنت أحاول تجانب فرّوخًا لكنه تشبث بي، فأمسك بطوق قميصي، وأخذ يرجني غير مرة. أما أنا فدون أن أبدي مقاومة وقفت إلى جانبه. كان راضي قد أمسك كيس النقود بيده اليُسرى، وأطبق بكفه اليمنى على ذراعه اليسرى وراح يتقدم وإنه يعرج. لما أن اقترب منا، توقف. فكرر فرّوخ قوله: «ما الخطب؟... ماذا يفعل ذاك هنا؟... من ذاك الذي فرّ؟»

ثم وكأنه تنبه من فوره إلى الكيس، فقال: «وما ذلك؟!»

كان راضي يلهث، فنشق نفسًا، وقال: «لا شيء.»

فقال فرّوخ: «ماذا تعني بلا شيء؟ هاته لأرى.»

تلبث راضي في مكانه كما هو، ولم يقل شيئًا. فكرر فرّوخ قوله: «قلت هاته لأرى.»

لم يبرح راضي مكانه ما استوقد غضب فرّوخ، فترك طوقي، فقال: «ألم أقل هاته.. أتريد أن أجعلك تُجلد بالسوط مرة بعد؟»

نظر راضي قليلًا إلى فرّوخ، وقليلًا إليّ. تقدم خطوتين ثلاثًا، وفي الوقت الذي كان لا يزال ممسكًا بذراعه، رفع الكيس، وأعطاه فرّوخًا. ثم رفع كفه عن ذراعه، ونظر إلى جرح ذراعه، فقال هزئًا بابتسامة: «لقد طعن الخسيس ذراعي... عندما أخذت منه الكيس، طعنها

بسكين، وولّي هربًا.»

رج فرّوخ الكيس بين يديه، وقال متقدًا: «ما ذاك؟! .. أمال هو؟!»

أردف راضي غير حافل بفرّوخ: «إن الجرح لا ينزف... لكنه يؤلم.... وأي ألم.»

حلّ فرّوخ متوترًا وثاق الكيس، وسلك فيه يده، فقال: «إنها مسكوكات، ذهب...»

نظر راضي إليّ، فقال: «إنه يؤلم أيها الصبي القروي، أتذكر... كنت قد قلت لك إنه يؤلم...»

ثم إنه تقدم. وكأن فرّوخًا يريد أن يسلمني إلى يد راضي ذلك حينما كان يستخرج النقود من الكيس ويتفحصها، ابتعد عني خطوة، فالتزق بحافة الحوض. أما راضي فتقدم مني مجددًا، حتى وقف مني وجهًا لوجه. كانت عيناه الحمراوان المنكدرتان تحدقان إلى عيني، حينئذٍ قال: «لم يؤذني أحد قط بقدر ما آذيت.»

ورفع يده كأنه يهم يلكم وجهي لكمة يفرغ بها عليّ جام غضبه. أغمضت عينيّ خوفًا وارتعد جسدي، وأطبقت شفتيّ متربصًا ضربته، وإذ بي فجأة أسمع دوي ضربة شديدة، وصرخة يطلقها فرّوخ. فتحت عينيّ تلقائيًا، فرأيت فرّوخًا وقد انثنى جهة الحوض إثر لكمة نكراء كان راضي سددها إليه، ثم سدد راضي إلى ظهره رفسة من وقعها ألقي فرّوخ في الحوض كمثل كيس ثقيل بحمله، فإذ به يغوص في المياه الداكنة ويطلع. وبينما كان يضرب في الماء بيديه ورجليه أخذت تنسل من حلقه أصواتًا مبهمة، وجعل يستغيث بعينيه

المفزعتين. لكن أحدًا لم يحرك ساكنًا؛ كان الجميع ينظرون إليه مبهوتين.

غاص فطلع فرّوخ تارة أخرى من الماء، وهذي المرة صرخ قائلًا: «آي...»

ثم وكأنما شده أحد نحوه إلى أسفل، غاص في الماء وامّحى أثره. خيم السكوت ساعتئذٍ على أرجاء القصر، فراح الجميع ينظرون في الحوض في ذهول. كان غرق فرّوخ أمرًا لا يُصدق، وكأن جميع الكائنين كانوا متربصين أن يخرج، فيحاسب راضيًا حسابًا عسيرًا. غير أن شيئًا من هذا لم يحدث، فمياه الحوض التي كانت تلاطمت إثر سقوط فرّوخ، سكنت، والأمواج التي من فوقه تدرجًا صغرت، وما هي إلا أن أخذ سطح مياه الحوض الصافي الساكن يلمع تحت القمر البازغ كزجاج أسود ممرد. في تلكم اللحظة انتبه راضي الذي كان ألقى عينيه إلى الحوض، فالتفت إليّ. من فرط خوفي نكصت بضع خطوات، فتقدم راضي متمهلًا، فقال: «كيف أنت الآن أيها الصبي القروي؟»

تراجعت تارة أخرى، فقلت: « آسف يا راضي... آسف.»

ساعتئذٍ شعرت أن الصبية في الإيوان العلوي يتنقلون، استدرت ونظرت خلفي. كان جمع من الصبية قد ساروا، فجعلوا يهبطون السلم. نظر راضي إليهم، فقال: «ما لكم كيف تجرؤون؟! انقلبوا إلى أعلى... أتراكم اشتقتم إلى الضرب؟!»

لكن الصبية تجاهلوا كلامه، فجاءوا إلى الفناء. كان يتقدمهم إسماعيل، الذي كان أكبرهم، يردفه صبية كبار وصغار يتقدمون

صامتين منذرين بالشر. صرخ راضي مرة بعد: «انقلبوا إلى أعلى... أنا هنا الآمر الناهي الآن.»

تقدم جمع الصبية وكأنهم لم يسمعوا قولًا، فأحاقوا بي و براضي كطوق. الآن صار حوض الفناء من خلفنا، ومن أمامنا لفيف من زهاء أربعين صبيًا بين صغير وكبير رؤوسهم جميعًا حلقية بلا شعرة، ووجوههم ضامرة، وعيونهم غائرة، وعلى صفحات وجهوهم تتبدى جروح وبثور. كانوا جميعًا يتقدمون قليلًا قليلًا. تنشق راضي نفسًا، وقال مترفقًا: «إني لشقي مثلكم.»

تقدم الصبية أكثر، فرفع راضي صوته أعلى: «بل إني لأشقاكم جميعًا.»

توقف الصبية، نظر راضي إليّ نظرة المبغض، ثم إلى الصبية الذين كانوا قد وقفوا قبالته، ودون أن ينبس أي منهم بكلمة، حدقوا إلي وجهه فما حادت عنه أبصارهم. عض راضي على جانب شفته، وبصق بصقة انتفشت على الأرض. ثم استدار إلى الحوض وولّى الصبية دبره. وضع برفق إحدى قدميه على حافة الحوض، فصعد. وحينئذٍ أدرا رأسه، فتأمل مبنى القصر شيئًا قليلًا. ثم ما لبث أن أولج رجله في الحوض، وعلى أعين الآخرين المدهوشة وقف على الماء. وما كاد يخطو على الماء خطوتين إلا واستدار، ونظر مرة أخرى إليّ وإلى الصبية الذين كانوا من دوني واقفين. أخذ نفسًا عميقًا، وصاح قائلًا: «ليحصدكم الموت مجحومين زُمرًا.»

ثم إنه مضى، وانغمر في الماء.

بعد أسبوع من انقضاء قصة قصر نويان خان، كنت اجتمعت

في معية الميرزا حسن خان، وبيوك أغا، وفريق من طلاب مدرسة رشدية في ساحة مشق لنشهد صعود منطاد نادر ميرزا في الجو. وقد راجعت في ذهني كل ما كنت بلوته في سالف الأيام. وكان من بين الطلاب بعض صبية قصر نُويان خان ذلك إذ بعد أن تحرروا وفدوا إلى المدرسة متفيئين في حِمى الميرزا حسن خان، وقد أقاموا بها. تلك الليلة بعد مقتل فرُّوخ، وأوبة راضي إلى عالم الموتى، وبعد أن تمكن امرؤ مجهول الهوية من ذاك الرجل ذا الشارب الطويل الذي سمعت بعدها أنه كان ابن شقيق نُويان خان وأجهز عليه، لم تقم لقصر نؤيان خان قائمة أيضًا. وبشكوى تقدم بها الميرزا حسن، دهم أفراد النظيمة القصر، وحرروا زمرة من الصبية الذين كانوا قد شرقوا. لقد رجع عدد كبير من الصبية المبيعين والمأجورين إلى بيوتهم وحيواتهم، ومضى بعض من أولاء الذين لا سكن لهم ولا أهل كلّ يبحث عن عمل ومأوى يأويه، واستقدم الميرزا حسن خان من بينهم عددًا إلى المدرسة، رغم اعتراض الميرزا جواد الذي لم يكف عن الشكوى والتذمر من نفقات المدرسة المزيدة، فأسكنهم فيها.

وعند تحري مأموري النظمية داخل القصر، فرغم أن جميع من فيه شهدوا بأنه كان قد ضرع نفران على الأقل في الحوض اختناقًا، فإن كبير المأمورين رفض أن يصدر أمرًا بإفراغ الحوض من مياهه، والبحث جوانيه. لا بد أنه كان قد سمع بكلام الآخرين عن حوض القصر المخوف، فراح في كل مرة يختلق غذرًا لكل من يطلب منه القيام بهذه المهمة، ويأبى القيام بها. وعلى هذا النحو أُجلي هذا القصر بحوضه الغامض من ساكنيه، وأوصد بابه. ومن بعد ذلك سمعت بأن نُويان خان قد باع ذلك القصر لتاجر كرجي يقطن

طهران.

وبعد خلاصي من ذلك القصر المخوف، لم يسألني الميرزا حسن خان قط عن علة ذهابي إلى هناك. كان قد سيق إلى وهمه بداية أن رجال ثويان خان سرقوني مرة أخرى، فأخذوني لأعمل في القصر. ولذا فإنه جدّ في أثري هناك غير مرة، وسأل عني، فلما كان الجواب أني لست هناك، دوّن شكوى إلى النظمية، والتمس من الجنود هناك أن يداهموا القصر ويفتشوه لإيجادي. كذلك فإني لم أخبره بشيء مما كان جرى عليّ. كل ما في الأمر أني بيني وبين نفسي كنت خجلت من سوء تصرفي في ذينك اليومين، وفكرت كيف أن وجودي في بئر الظلمات وتأثري بأجوائها، كان قد جعل مني إنسانًا آخر. ولكن قبل يومين حدث أمرًا فطنت منه أن الأمور ليست على هذا النحو وأن الميرزا حسن كان على علم بما جرى.

بعد ظهر ذلك اليوم، كان الميرزا حسن خان في غرفته عاكفًا على عمله. أما أنا فكنت جلست في شمس الفناء، أورق كُتيبًا كان الميرزا قد فرّقه حديثًا على طلاب الصف الأول، دعاني بيوك أغا من المطبخ. تركت الكُتيب، وذهبت إليه. كان بيوك أغا مشغولًا بجلي أطباق غذاء الطلاب، فأشار بيده نحو ركن المطبخ، فقال: «احمل كوب الشاي ذا إلى الميرزا حسن خان عله يرّوح عنه الكلال، فمنذ زمن وهو على عمله دؤوب.»

نظرت إلى المنصة في ركن المطبخ، فرأيت عليها كوب زجاج ملآنًا بالشاي الرائق لونه. أطعت أمره، فتناولت كوب الشاي. كان الكوب ساخنًا، فجعل يلذع يدي، بيد أني لم ألتمس منه أن يضعه في صحن

أو شيء من هذا، بل أمسكت الكوب الساخن بين يديّ، وخرجت به من المطبخ. كان كلما لذع إحدى يديّ، أرخيتها عنه، وعوضًا عن ذلك أحكم مسكة اليد الأخرى. سرت بخطى عجلى على طول الفناء، حتى وصلت إلى سلم دهليز المدرسة. كانت سخونة الكوب قد استعرت، وغدا الإمساك به عسيرًا. قلت لنفسي إني سأوصله على أية حال. ولجت الدهليز، ومُستحث الخُطى جُزت الغرف واحدة واحدة، حتى وصلت إلى غرفة الميرزا حسن خان. اغتبطت إذ أوصلت كوب الشاي بسلام، وإذّاك خرج الميرزا جواد من الغرفة، فارتطم بي، فسقط الكوب من يدي، فتهشم، فراقت قطرات الشاي الحارة على رجلي، فلذعث، وما لبث أن تأوهت متوجعًا، وارتددت خلفًا. قال الميرزا جواد: «ما الخطب؟... هل لُذعت؟!»

نفضت رجلي، وقلت: «لا بأس.»

خرج الميرزا حسن الذي كان سمع خبط الكوب بالأرض، وتأوهي، فسأل: «ما الخطب؟»

فقال الميرزا جواد: «لقد سقط كوب الشاي، وتهشم.»

ثم أخذ يُثرب عليّ قائلًا: «لمَ أمسكت بيدك كوب الشاي الساخن وجئت به؟ لمَ لم تضعه في صحن أو شيء من هذا؟... الآن لملم كِسر الزجاج تلك لئلا تغترز في قدم أحد.»

نظر الميرزا حسن خان إلى كِسر زجاج الكوب المهشم، ثم نظر إليّ وإلي الميرزا جواد، ثم إنه نكز مترفقًا بظهر يده ذراع الميرزا جواد، فقال: «تفضل أنت اذهب، وإني جامعه ورضا.»

قال الميرزا جواد: «وما لك أنت؟ من كسره، يجمعه.»

فقال الميرزا حسن: «لا، سنجمعه معًا، تفضل أنت... تفضل.»

ثم أثنى ركبتيه وجلس، والتقط فلقة من الكوب المكسور. وسرعان ما جلست بجانبه، وقلت: «دعني أجمع الزجاج بنفسي يا ميرزا، لا تمسسه.»

فقال الميرزا في هدوء: «بل نجمعه يدًا بيد.»

ثم رفع رأسه، فقال للميرزا جواد الذي كان لا يزال واقفًا ينظر: «تفضل.»

همّ الميرزا جواد بالذهاب. أما الميرزا حسن فبطرف بنانه التقط فِلقة زجاج، فقال: «حذار أن تغترز في يدك.»

لملمنا معًا كِسر الزجاج الكبيرة، ثم ذهبت، وأحضرت مكنسة بيوك أغا، وبعون من الميرزا كنسنا الكِسر الصغيرة أيضًا. فلما أن فرغنا من الأمر، قال الميرزا: «اذهب، وأعد المكنسة لبيوك أغا، ثم تعال؛ أريدك في حاجة.»

مضيت وأعدت المكنسة، ثم انقلبت إلى الغرفة. كان الميرزا وقف قبالة مكتبه موليًا ظهره لي، وراح يقلب الأوراق التي عليه. قلت: «تفضل يا ميرزا.»

ودون أن يلتفت قال الميرزا: «سيد رضا، أود أن أقول لك شيئًا، فانصت.»

فقلت: «ألا وهو؟!»

فقال: «حادثة تهشم الكوب تلك، لا تنسينها ما حييت.»

فقلت: «ولمَ ذاك؟»

فقال: «أحيانًا ما يكون شرف المرء ونزاهته كمثل كوب ملؤه شاي حار، حفظه عزيز.»

ثم إنه التفت، وبينما كان يسدد النظر إلى عينيّ، قال: «يجب أن تحترز كل الاحتراز، وتحتاط غاية الحيطة ألّا يهوى، فيتهشم، فيراق.»

كنت شاردًا فيما فات، حتى ردني صخب الحشد إلى انتباهي. كانت نيران المجمرة متقدة تحت قبة المنطاد، وكانت القبة قد علت كمثل كرة ضخيمة، فجعلت أحبال سلة المنطاد تنشد إلى أعلى. ولج نادر السلة، وألقى نظرة إلى القبة من فوقه، ثم إنه اختبر بيديه الأحبال المشدودة إلى القبة، ومن بعد ذلك استدار، وتأمل الناس. نظراته أسكتت الألسن؛ كان الجميع يترقب أن يقول شيئًا، وقد بان أيضًا أنه عازم على الكلام. وعن جُنب كان في الإمكان رؤية بريق عينيه من خلف زجاج نظارته المدور. أسند يديه إلى حافة السلة، فنحم. مكث بضع لحظات، ثم وكأنما تراجع عن الكلام فما نطق إلا هتافًا: «ها نحن أولاء ننطلق!»

هزأ بعض نفر من بين الملأ فضرطوا بأفواههم، وتعالت ضحكاتهم. أما نادر فحلّ الأكياس الثِقال التي كانت أربطت إلى سلة المنطاد، ووقع عجا وعجيجًا. وراح أولاء الذين ضحكوا يطلقون أصواتًا عِجابًا ويستهزئون، كما كان الآخرون إلى نادر بأعينهم يحدقون، فهم من تصرفاته مبهوتون، وفيما بينهم يتخافتون. حتى إذا حلّ

آخر كيس، تحرك المنطاد، فأقلع عن الأرض، وتعالت معه اصطخابات الجموع. وراح كل امرئ يدلي بدلوه، فجعل كثيرون منهم يتخاطرون أيسقط المنطاد أم لا. وكان بعضهم قد وقفوا ما لهم حبض ولا نبض يرقبون المنطاد الذي كان ينطاد. أما نادر فبتحمس متقد هتف تارة أخرى: «ها نحن أولاء ننطلق!»

وانطلق المنطاد في سبيله. ساعتئذٍ اذَّكرت قصة منطاد الرجل الهندي، فخشيت أن يحيق بنادر بلاء كان قد حاق قبله بالرجل الهندي. وقلت في نفسي أرى أنه حقيق على نادر أن يحترز احترازًا بالغًا، ويوقظ حواسه تيقظًا نابهًا، لربما تنخرق قبة منطاده، لَربما تنصرم حبائله، لَربما تنخمد نيران موقده، لَربما...

---

(1) الميرزا جواد الملكي التبريزي (١٨٥٧: ١٩٢٢م) عالم إيراني وفقيه من العائلات الثرية المعروفة بالتجارة في تبريز، ومن تلامذته المعروفين قائد الثورة الإسلامية في إيران روح الله الخميني. كان الميرزا جواد من أصدقاء الميرزا حسن المقربين، إذ تلاقت أهدافهما العلمية ورغبتهما في إنشاء المدارس ونشر العلم. وعندما لاقى الميرزا حسن هجومًا من ذوي العقول المغلقة كان من بين رجال الدين المستنيرين الذين أيدوه ماديًا ومعنويًا.

(2) هو مادة ملحية كانت تُستعمل قديمًا في الطهي، وتنقية المياه، وتنظيف الأواني.

(3) هذه العبارة باللغة التركية الأذرية وتعني: أسرع باركك الله

(4) هذه الأبيات للشاعر الإيراني الكبير سعدي الشيرازي (١٢١٠: ١٢٩٢م)، من ضمن غزلياته. نظمها على لسان العبيد، لتفيض بالأسى، وتستدر الدمع.

يقول في أول بيتين منها:

نحن متسولو جيش سلطاننا ,,, نحن أسرى هوى معشوقنا

ما كان للعبد اسم يتسمّى به ,,, وأيما لقب نُبزنا فهو لقبنا.

(5)ناظم هذا البيت هو الشاعر محمد أفضل سرخوش، من شعراء القرن الثاني عشر الهجري. وعلى غرار سالف الشعراء سعى في طلب المال، فامتدح أغلب ذوي السلطة، من بينهم همت خان أحد حكام ذاك العصر، والظاهر أن همت خان شرّ بمدحه فوعده أن يجزل له العطية، ولكنه ماطل وما وفّى. فلما رأي سرخوش نكد طالعه انصرف من المدح إلى الهجاء. فقال يهجو همت خان:

يا من ظفرك بالفلك غير مقدور ,,, فلك بلا عطية أوَغتررت بالغرور

عدمت همتك واسمك همت خان ,,, وخلافًا تسمّى الزنجي بكافور.

وأصبح هذا البيت الشعري يجري في بلاد فارس مجري الحكمة، إذ يُنبي ويخبر عن عظيم التفاوت بين المظهر والجوهر. ومن عجب أن يكون نبات الكافور الطيب الريح، بزهره الأبيض، وخشبه الأبيض لقبًا لطالما نُبز به العبيد على مر الدهور.

(6) النُقرة تعني الفضة الخالصة.

(7) خط شكسته نستعليق يعني الخط النسخي المعلق المكسور. وهو ضرب من الخطوط الفارسية له قواعد خاصة ويمتاز بخفة ولطف وهو أطوع في يد الكاتب.

(8) محمد حسن الأصفهاني(١٨٣٥: ١٨٩٨م) الملقب بأمين الضرب نظرًا لتوليه رئيس دار ضرب العملة. من أكابر التجار في إيران في العصر القاجاري، إذ كان مؤسس أول غرفة تجارية في طهران، ويعد أول مستثمر في مجال الصناعة آنذاك، كذلك فإنه كان أول من اشترى جهازًا لتوليد الكهرباء ومن هنا كانت بداية وصول الكهرباء إلى إيران، ليكمل ابنه محمد حسين أمين الضرب ما بدأ أبوه وينشئ بعدئذٍ محطات توليد الكهرباء في أنحاء إيران فيلقب بأبي الكهرباء في إيران.

(9) الدهشة ضرب من الخنجر

(10) الكرور وحدة قياس قديمة تعني نص مليون من الشيء ومجازًا تعني الشيء الوافر.

(11) الفراش بتشديد الراء أي كثير الفرش واستلت الكلمة من أنه كان الخادم الذي يقوم بأعمال الفرش والتنظيف، ثم إنهم تولوا بعد ذلك مهمة جباية الضرائب وتوصيل الرسائل وحفظ الأمن، وأوكل لهم مهمة معاقبة المخالفين في بيوت الأعيان بالجلد. أطلق على رئيسهم اسم فراش باشي وكان تحت إمرته عدد من الفراشين لتنفيذ هذه المهام.

(12) العثنون ما نبت على الذقن وتحته

(13) القبة هي الخيمة المدورة.

(14) هو الشاعر الكبير على إسفندياري (١٨٩٦: ١٩٥٩م) ولقبه أبو الشعر الإيراني الحديث، من قرية يوش التابعة لمحافظة مازندران شمال إيران، درس الشعر الإيراني القديم، و تعلم اللغة العربية، والتحق بمدرسة سانت لويس في طهران حيث تعلم اللغة الفرنسية، ومارس الشعر بتشجيع من أستاذه الشاعر الإيراني نظام وفا. فأنشد على غرار معلميه، و كانت قصائده الأولى تحاكي الشعر القديم ثم اتجه بعد ذلك إلى الشعر الحديث، فكسر نيما قواعد و قوالب الشعر، واستخدم مصطلحات وإيقاعات جديدة لم تأت في قصائد من سبقوه.

(15) نيما يوشيج لقب اختاره الشاعر علي إسفندياري لنفسه فنيما اسم لجبل يقع في محافظة مازندران بإيران، ويوشيج معناه باللهجة الطبرية لأهالي طبرستان الذين ينتمي إليهم الشاعر ابن يوش.

(16) نظام وفا الكاشاني (١٨٨٧: ١٩٦٥م) ولد لأبوين أديبين من كاشان. درس اللغة العربية وآدابها، والأدب الفارسي، والفلسفة والطب القديم، واستقر في طهران وتعلم اللغة الفرنسية. دخل المعترك السياسي، وأعتقل، وبعد تحرره

انسحب من الحياة السياسية، ليعمل بتدريس اللغة الفرنسية. كان يكتب الشعر من صغره وتجلت المعاناة والمصاعب في حياته في أدبه المنثور والمنظوم. من أشهر تلامذته الشاعر الإيراني الكبير نيما يوشيج.

(17) جبة من قماش رقيق ليس لها أكمام تُلبس فوق الثياب.

(18) ريغو صفة له وهي مفردة فارسية تعني الهزيل والحقير.

(19) حساء بسيط من الحبوب كالحمص والفاصولياء، واللوبياء والعدس، إضافة إلى البصل والخضروات الورقية، والتوابل.

(20) طبق شائع بين الإيرانيين والعراقيين، ويستخدم في طهي هذه اليخنة معجون الطماطم والبصل المقلي، واللحوم الحمراء، والبطاطس، والحمص، والليمون المجفف، والتوابل. تقدم مع الأرز.

(21) كان لقبًا تلقب به ناصر الدين شاه، وهو من قبيل المبالغة في تعظيم ذاته، ويعني القبلة وموضع سجود العالم كله.

(22) همايون: لفظة فارسية تطلق على السلطان والملك العزيز من الناس، وتعني المبارك والمقدس والملوكي.

(23) البيد بالكسر شجرة الصفصاف. والبيد شجرة لا ثمر لها تعيش على ضفاف الجداول والأنهار، تنمو سريعًا وتتميز بأغصانها المتهدلة، وظلها الوارف. تنتشر في المشرق العربي وتركيا وإيران ومعظم أوروبا. وهي على عدة أقسام. أما شجرة بيد مجنون التي تعني بيد المجنون فصنف منها يُعرف لدينا باسم الصفصاف الباكي أو المستحي.

(24) الكلس وأخلاطه مما يستعمل في طلاء الجدران وأعمال البناء والترميم.

(25) تصغير باب.

(26) سلاح أقصر من السيف وأطول من الخنجر

(27) تصغير قارورة.

(28) نظرية في الطب القديم وضعها الطبيب أبقراط ، تقوم على أن جسم الإنسان يحتوي على الدم والبلغم والصفراء والسوداء وهي ما تعرف بالأخلاط الأربعة أو الأمزجة الأربعة. وتقوم على افتراض أن وجود فائض أو نقص في أي من هذه الأمزجة الأربعة في جسد إنسان يؤثر مباشرة على مزاجه وصحته.

(29) كلمة تقال للزجر والطرد.

(30) الكعابة لعبة شعبية قديمة من كعب عظم الغنم لها قواعد وفنون. وفكرتها أن يرسم اللاعبان مستطيلًا على التراب ويضع أحدهم (كعابته) داخل المستطيل ويقوم الخصم بضربها بالصول فما خرج منها عن المستطيل صار كسبًا له. والصول كعب كبير يصبون في تجويفه الرصاص ليصبح ثقيلاً.

(31) هو عبد الحسين ميرزا (١٨٥٢: ١٩٣٩م) الملقب بفرمان فرما كان أميرًا من سلالة القاجار من ذوي النفوذ والسلطة.

(32) شك الأشرفي لأول مرة في مصر المملوكية، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى السلطان المملوكي الأشرف بارسباي وهي عملة ذهبية ضُرب بها هنا المثل في المسكوكات ذات القيمة العالية.

(33) أي: بحت له بأسراري كلّها